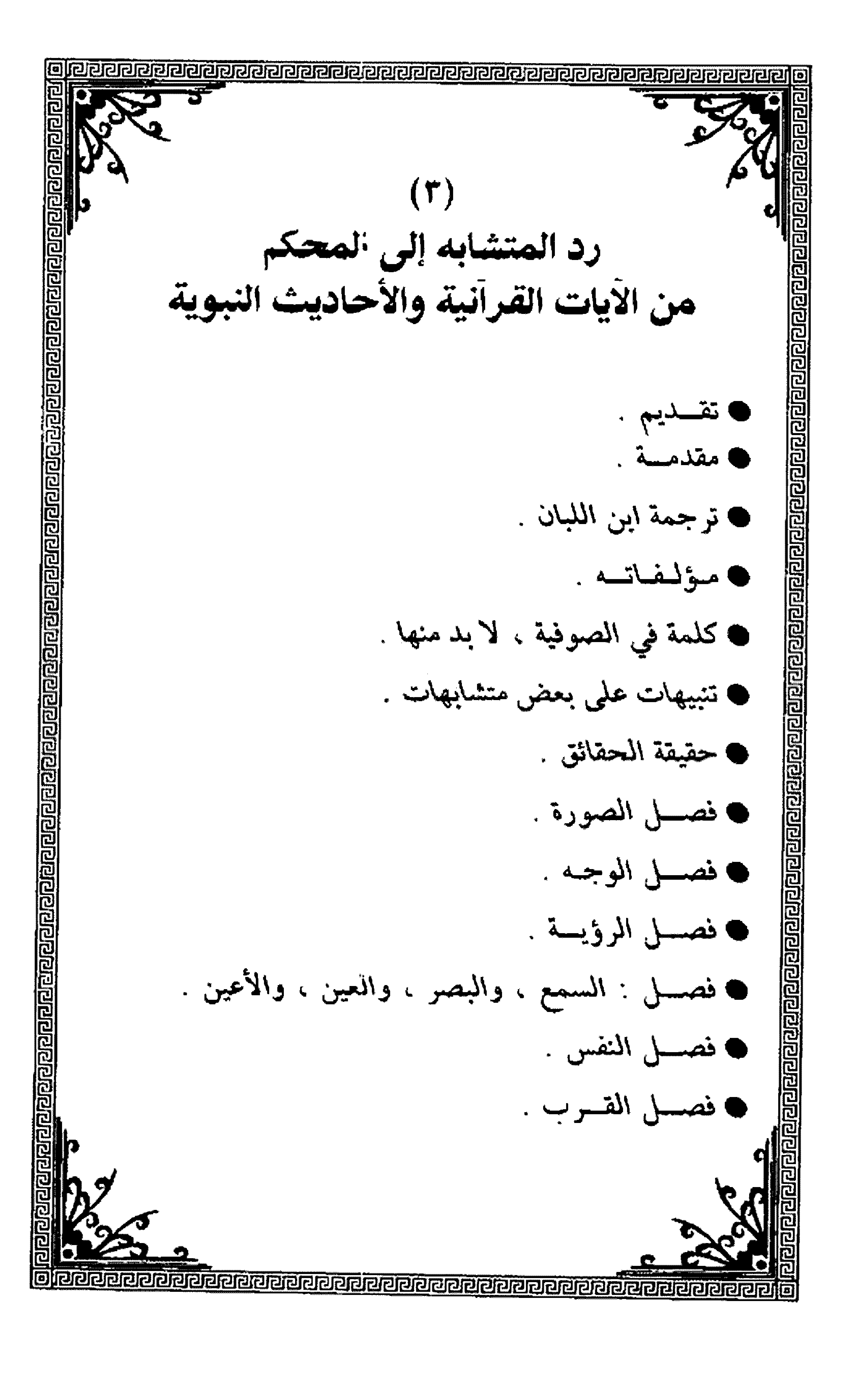


تأليف

الشيخ الأكبر والكبريت الأحمر سيدي
محي الدين بن عربي الحاتمي الطائي

المجلد الثاني

دار المحجة البيضاء
دار الرسول الأكرم (ص)



(٣)

رد المتشابه إلى المحكم
من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية

تقـديم

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمد لله رب العالمين .

والصـلاة والسـلام على سيّدنا محمـد سيد المـرسلين وآلـه وصحبـه وأتبـاعـه وأحبابه ومن اهتدىٰ بهديه إلى يوم الدين .

أمـا بعــد :

فـإن هـذا الكتـاب : «رد المتشـابـه إلى المحكم» لابن عـربي (رحمــه الله تعالىٰ) ، من أفضل مـا كتب (رحمه الله تعـالىٰ) وأجزل ثـوابه : تنـاول فيه أمـراً من أهم أمـور الإسـلام ، وهـو : تفسيـر المتشـابـه من القـرآن والحـديث ، بـالمحكم منهمـا ، لم يستعمل فيـه رأياً ، ولا قـال فيـه كلمـة إلاّ وهـي مـن كـلام أهـل السنـة والجماعة .

علماً بأن أولى ما فسّر كتاب الله : هو كتاب الله تبـارك وتعالىٰ ، وكـذلك السـنـة الشريفة .

والحقيقة : أن فيه دلالة واضحة على سعة أفق الرجل ، وطول بـاعه في هـذا الفن .

وجله ، بل كله : رد على الذين لا يخشون الله وافتروا عليه ما افتروا .

ويبدو فيه واضحـاً : انه كـان معاديـاً للفلاسفـة أشد العـداء ، كما سترىٰ في أسلوبه وكلامه (رضي الله عنه) .

وما يدعيه بعضهم أنه كان فيلسوفاً ، إنما هو ناتج من الجهل بمنهج الرجل ، وما أذاع هذا إلّا الذين تشبعوا بآراء الفلاسفة الأفلاطونيين وغيرهم من أهل أوروبا قديماً وحديثاً ، ومن تتلمذ لهم من المسلمين .

على أنني ـ والحمد لله أولاً وأخيراً ـ أخذت على نفسي عهداً بيني وبين ربي ـ وأسأل الله تعالىٰ أن يعينني على الوفاء به ، فإنه حسبي وكفى ـ أن أخرج للناس كل ما يقع تحت يدي من كتب هذا الرجل ، دفاعاً عن ديني ، ولأزيل ـ بقدر إمكاني ـ الغشاوة التي غطت قلوب كثير من الناس في هذا المجال .

والذي أعلمه علم اليقين : أن هذا الرجل (رضي الله عنه) ابتلىٰ بافتراء الناس عليه ، ووضعهم في كثير من كتبه الكلام الذي لم يقله ، خصوصاً في «الفتوحات المكية» التي تناقلتها أيدي من لا يؤمنون بالله ولا يخافون حسابه من اليهود والنصارى ـ والسفهاء الذين تتلمذوا لهم ممن يدعون الإسلام ـ ودسوا فيها كلاماً في الحلول والاتحاد بما يشبه عقائد النصارى واليهود : ليقولوا للمسلمين : «ها هم علماؤكم يقولون كما نقول ، فنحن وأنتم سواء» .

وكذبوا والله الذي لا إله إلّا هو : ما قال حرفاً واحداً من هذا ، والله الحاكم بينه وبينهم يوم القيامة ، يوم الحسرة والندامة .

ثم انني أثناء قراءتي لهذا الكتاب : علقت بعض التعليقات على مقدمة الأستاذ الفاضل السيد ـ «أبو بكر عبد الرحمن مخيون» ـ (رحمه الله تعالىٰ) : إتماماً للفائدة ، وتركت تعليقاته على الكتاب كما هي ، فإنه (رحمه الله) كان أقدر مني على شرح هذا الكتاب ، إلّا أن الله تعالى لم يحرمني من أن أضع عليه ما رأيت أنه محتاج إليه ، وإن كان الأمر كما يقولون : «ما ترك الأول للآخر شيئاً» ولكن الله تبارك وتعالىٰ أعطىٰ الهدهد والنملة ما لم يعط سليمان (ع) ، فلا حرج على فضله تبارك وتعالىٰ وجوده على من يشاء من عباده ، وله الفضل كله .

شرحت بعض الكلمات التي تحتاج إلى شرح ، وذكرت مصادر الحديث التي لم يذكر مصدرها : سواء كان في الكتاب أو في الهامش : لمزيد الفائدة .

إلّا أني حذفت صفحة الإهداء التي أهداها لوالديه وأخيه الأكبر : (رحمهم الله جميعاً) : لعدم جدواها لهذه الطبعة .

وقد ميزت كلامه بأن كتبت بعده «مخيون» .

كان في الإمكان أن نفعل كما يفعل كثير من سفهاء هذا العصر : أن نحذف المقدمة والتعاليق ، أو ننسبهما لأنفسنا بغير وجه حق

لكن : لما كان المقصود هو نفع المسلمين ، ورد الضال والشارد منهم إلى حظيرة الحق : تركنا هذه المقدمة على طولها ، كما هي ، وكذلك التعاليق ، لنستفيد ونفيد .

على أن الطبعة التي راجعنا عليها طبعت بمطبعة الصدق الخيرية بدرب الأتراك بجوار الأزهر : عام ١٣٦٨ هجرية .

والله يقول الحق ، وهو يهدي السبيل

عبد الرّحمن حسن محمود

مقدمة

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمد لله العلي المجيد رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد عبده ورسوله خاتم النبيين ، وآله وصحبه أجمعين .

وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، خاتم النبيين : البشير النذير ، الصادق المصدوق الأمين .

صل اللّهم عليه صلاة تؤته بها الوسيلة ، وأضعاف أمداد الكلم وسلّم تسليماً ، وعلى آله .

أما بعد :

فباسم الله العلي الكبير ننشر على «خير أمة أخرجت للناس» كتاب : «رد المتشابه إلى المحكم» للشيخ محيي الدين بن العربي ، راجين الله الحليم أن يجعل عملنا لوجهه الكريم .

على أنه محاولة كريمة من محاولات الفكر ، ولمعة من نور العبقرية المعبر عنها بـ «علوم الوهب» في فهم الآيات المعجزة والأحاديث الجوامع كلمها ، معتقدين أن الإنسانية تعجز بجمعها - بل والملكية تعجز أيضاً - عن ادراك التأويل المراد لله تعالى ولرسوله (ص) ، إلاّ بوحي من الله تعالى ، وبتبيين من رسوله (ص) ، وأن الطريق الأسلم الكامل ، هو : التسليم الشامل والتفويض لله العليم فيما يريد ،

مع الإيمان الوثيق والتنزيه الطليق .

أنظر الحديث الشريف الذي رواه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول .

«إن الله تعالىٰ قد احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار ، وأن الملأ الأعلىٰ يطلبونه كما تطلبونه» .

ويكفي لبيان مقصودنا : أن الشيخ محيي الدين نفسه (رحمه الله) ـ على ما أوتيه من مواهب وعبقرية ورسوخ ـ يقول في هذا الكتاب «ص ٣(*) وكان من أدبهم (رضي الله عنهم) ـ يعني الصحابة ـ أن لا يثق أحد بفهمه في استيعاب المراد منها» الخ . . .

وقال ص ٨(**) عن نفسه «ولنشرع في التفصيل ، مع بسط يد الفاقة والإفتقار ، عسىٰ أن يهديني ربي سواء السبيل» .

ثم قال في نفس الصفحة(***) : «وكل من له من الله نور ، له في مرجعها إلى المحكم فهم ، على حسب نوره ، ونحن إن شاء الله نذكر مبلغ علمنا وفهمنا ، ونسأل الله تعالىٰ أن يهدينا لما أختلف فيه من الحق باذنه» .

فالرجل يذكر مبلغ فهمه وعلمه ، وظاهر من كلمه : اقراره بعجزه عن إدراك المدىٰ ، والله أكبر .

نشرنا هذه الرسالة من نسخة خطية قديمة مؤرخة أوائل شهر ربيع الآخر سنة ١٠٣١ هـ ضمن مجموعة من مؤلفات ابن عربي أطلعنا عليه الإنسان الكامل المخلص لله الشيخ «على عبد العزيز حميدة» شيخ السادة البرهامية الشاذلية ، وهو من مخلفات والده أستاذنا المرحوم العارف بالله تعالىٰ السيد «عبد العزيز حميدة» المنتقل لرحمة الله ليلة الثلاثاء ١٠ من ذي القعدة سنة ١٣٦٤ الموافق ١٦ أكتوبر سنة ١٩٤٥ : وكنا نظن أن هذه الرسالة لم تطبع قبل ، ولكن أخانا في الله عزّ وجلّ الشيخ «إسماعيل الصاوي» أمتع الله به ، وجد نسخة بدار الكتب طبع بيروت سنة ١٣٢٨ وإن غاير عنوانها عنوان الأصل الذي طبعنا منه ، فقد

(*) راجع ص ٣٨٩ من هذه الطبعة .

(**) راجع ص ٣٩٥ من هذه الطبعة .

(***) راجع ص ٣٩٧ من هذه الطبعة .

عنونت : (رد معاني الآيات المتشابهات إلى معاني الآيات المحكمات) منسوب تاليفها لابن عربي .

وتبيّن لنا أن صاحب كشف الظنون نسبها لابن اللبان[1] . ولكن تحقيقنا شككنا في روايته - مع أنه ثقة - حتى تكرم علينا بعد طبع الملزمة الأولى الأستاذ المحقق الصوفي السيد «عبد الحميد الشيمي» الوفائي الحاتمي شيخ السادة الشيمية الحاتمية بنسختين : طبعة بيروت السالفة . وأخرى طبعة الآستانة نشرها سعادة الأستاذ «حافظ وهبة» سفير الحجاز بلندن الآن ، ولكنها منسوبة لابن اللبان المصري وعنوانها : (رد الآيات المتشابهات إلى الآيات المحكمات) ذكر ناشرها انه استخرجها من مكاتب الآستانة ، فعذرنا صاحب «كشف الظنون في أسماء الكتب والفنون» الذي قال : «رد المتشابه إلى المحكم» للشيخ محمد بن أحمد بن اللبان الأشعري المصري المتوفى سنة ٧٤٩ هـ من الآيات القرآنية ، أوله : «أما بعد حمد الله الواحد بذاته وصفاته» الخ . ذكر فيها متشابهات القرآن ا هـ .

وإن كانت مخالفته لعنوان الرسالة المطبوعة تستلفت النظر ، وكذلك قصره وصفها على متشابهات القرآن .

وسبب تشككنا في كلمته ، وهو «مصطفى بن عبد الله الحنفي المعروف بكاتب جلبي ، وبحاجي خليفة» أنه مولود سنة ١٠١٧ هـ ، ومتوفي سنة ١٠٦٧ فعمره كان قريباً من أربعة عشر عاماً ، أي لا زال في أول عهده بتحصيل العلم ، في وقت كتابة المخطوطة الذي طبعنا منه الرسالة ، وتاريخ كتابته كما قدمنا سنة

---

(١) لفظ صاحب كشف الظنون بتمامه ص ٥٣٦ جـ ١ طبع : دار سعادة : «رد المتشابه الى المحكم» للشيخ محمد بن أحمد بن اللبان الأشعري المصري المتوفي سنة ٧٤٩ تسع وأربعين وسبعمائة «من الآيات القرآنية» أوله : «أما بعد حمد الله الواحد بذاته وصفاته» الخ : ذكر فيه «متشابهات القرآن» ا هـ.

هذا لفظه (رحمه الله تعالى) وأورده في ص ٣٧٥ جـ ٢ مرة أخرى باسم : «متشابه القرآن» للشيخ الإمام : سمش الدين محمد بن عبد المؤمن المصري الشافعي الشهير بابن اللبان ، المتوفي سنة ٧٤٩ تسع وأربعون وسبعمائة مختصر أوله «أما بعد حمد الله الواحد بذاته» .

ولنا هنا ملاحظات ، منها :

كتاب ابن اللبان اسمه : «متشابه القرآن» وكتابنا هذا اسمه : «رد المتشابه الى المحكم من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية» فكتاب ابن اللبان خاص بالقرآن فقط - حسب كلام صاحب كشف الظنون - وكتابنا شامل للقرآن والحديث .

ومنها أن بداية كتاب ابن اللبان المصري : «أما بعد حمد الله . . . » وكتابنا يبدأ بقوله : «الحمد لله . . . » .

١٠٣١ ، وقد نسبها المخطوط الذي نقلناها عنه لابن عربي . ومع أن صاحب الكشف حجة ، فلم نجد أحداً وافقه فيما يذكر ، حتى أن الحافظ ابن حجر العسقلاني في كتابه : «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» في ترجمته لابن اللبان ، لم يذكرها في مؤلفاته ، ولما أطلعنا على النسخة التي نشرها سعادة حافظ وهبة ، وذكر أنه استخرجها من مكاتب الآستانة ، وصاحب كشف الظنون تركي ، وجدنا له عذراً فيما قال : زاد وضوحاً إذ وجدنا في «اليواقيت والجواهر» للشعراني جـ ١ المبحث الثامن في وجوب اعتقاد أن الله معنا أينما كنا .

ذكر الشعراني : «عقد مجلس في الجامع الأزهر سنة خمس وتسعمائة بين الشيخ بدر الدين العلائي الحنفي ، والشيخ زكريا ، والشيخ برهان الدين بن أبي شريف ، وجماعة ، وبين الشيخ إبراهيم المواهبي الشاذلي ، قرر فيه المواهبي اعتقاده في مسألة المعية ، وانها بالذات لا بالأسماء والصفات ، كما يقولون .

فسألوه عمن وافقه غير العلامة الغزنوي في «شرح عقائد النسفي» فقال : ذكر شيخ الإسلام ابن اللبان في قوله تعالىٰ : **﴿ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون﴾** ان في هذه الآية دليلاً على أقربيته تعالىٰ من عبده قرباً حقيقياً ، كما يليق بذاته ، لتعاليه عن المكان» .

وذكر المواهبي كلاماً يقرب من كلام هذه الرسالة ، في مسألة القرب ، مما برهن لنا أن الشك في نسبتها قديم ، لأن هذا النص ألقىٰ ظلاً من الشك في أنها كانت معروفة في بعض الأوساط ، بأنها لابن اللبان من سنة ٩٠٥ ، أي قبل صاحب الكشف بمائة سنة ونيف .

ثم وجدنا في معجم المطبوعات العربية والمعربة ليوسف سركيس ص ٢٢٩ ضمن مؤلفات ابن اللبان «إزالة الشبهات عن الآيات والأحاديث المشتبهات» و «رد معاني الآيات المتشابهات إلى معاني الآيات المحكمات» في التفسير ، فلم نخرج باختلاف العناوين بطائل ، واحتاجت المسألة لبحث دقيق ، لأن الأدلة تقريباً تعارضت : فتقرير صاحب كشف الظنون ، من النص الذي نقله الشعراني عن المواهب ، يوحيان بأنها لابن اللبان ، في مقابل النسخة التي نقل عنها الأستاذ يوسف سنو: طبعته ببيروت ، والمخطوط القديم الذي طبعناها عنه ـ وهو مغربي في أغلب الظن ـ يثبتانها لابن عربي .

ولكنا رجحنا أنها لابن عربي لما يلي :

ابن عربي أقدم من ابن اللبان بمائة سنة ونيف ، فلا شك أنه استعان بمؤلفات ابن عربي ، وطالعها واقتنى منها .

ولم يذكر ابن حجر في ترجمته لابن اللبان هذه الرسالة ضمن مؤلفاته .

وفي اجازة ابن عربي للملك المظفر غازي ، أو الظاهر صاحب حلب نيف وأربعمائة مؤلف .

وقد وجدنا في هذه الرسالة كثيراً من الأعلام ، ذكرنا وفياتهم في محلهم ، وكلهم سابقون ابن عربي ، اللّهم إلاَّ القرطبي ، الذي لم نعرف من يعني ، فإنه ذكره في معرض رواية حديث ، باعتبار أنه محدّث ، ومن أشتهر بهذا اللقب من المشتغلين بالحديث عديدون ، فمنهم بقي بن مخلد القرطبي الحافظ ، شيخ الإسلام المتوفىٰ سنة ٢٧٦ .

ولكن يظهر أنه ليس هو المعنىٰ بهذه الجملة (ذكر القرطبي حديث يعلى عن أبي بكر النجاد) إذ النجاد متأخر عنه ، فهو : الحافظ أبو بكر أحمد بن سليمان بن الحسن بن إسرائيل النجاد البغدادي الحنبلي ، المتوفىٰ في ذي الحجة سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة ، وله كتاب في السنن كبير .

فاللائق بالأخذ عنه نذكرهم بترتيب الأُخرىٰ منهم :

الأول : القرطبي : أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري المالكي ، حافظ المغرب والمشرق ، المتوفىٰ بشاطبة بالأندلس سنة ثلاث وستين وأربعمائة ، وهذا في نظري أقوىٰ المعنيين .

الثاني : صائن الدين يحيى القرطبي : أحد الأئمة في القراءات وعلوم القرآن والحديث والنحو واللغة وغير ذلك ، توفي بالموصل سنة سبع وستين وخمسمائة .

الثالث : أبو العباس : أحمد بن عمر القرطبي ، شرح بعض صحيح مسلم وسماه : «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» ولم نجد له ترجمة ، غير أنه كان أستاذاً .

الرابع : القرطبي محمد بن فرح الأنصاري المتوفى سنة ٦٧١ مؤلف تفسير الجامع لأحكام القرآن ، وهذا وإن كان معاصراً لابن عربي ، فقد كان حدث

السن بالنسبة لابن عربي ، ولم يشتهر شهرة الآخرين بالحديث .

الخامس : أبو عبد الله محمد بن عبد الملك بن أيمن بن فرج القرطبي ، مسند الأندلس المتوفى سنة ثلاثين وثلاثمائة ، وهذا وإن كان معاصراً للنجاد ، فجائز أخذه عنه أيضاً .

أليس من الغريب : إن كانت الرسالة لابن اللبان حقاً ، أن لا يكون ذكر فيها اسم شخص بعد عصر ابن عربي ؟ وان من ذكر فيها كلهم سابقون ابن عربي ، أو لم يتجاوز أحدهم ابن عربي ، على التشكك الفرضي .

هذا مع دقة مؤلف الرسالة في نسبة الكلمات لقائليها ، حتى اللغوية .

ثم ان ابن عربي : شاعر بليغ ، وله ديوان شعر كبير[1] ، وفي كل مؤلفاته يذكر شيئاً من أشعاره مناسباً للمعنىٰ ، ولم يذكر مترجم ابن اللبان في صفاته : انه كان شاعراً .

وفي الرسالة أشعار نسبها المؤلف لنفسه ، تعبر عن روح ابن عربي الشعرية الرقيقة ، فضلاً عما ذكرنا ، مما قوي أنها لابن عربي ، فقد كان (رحمه الله) مغرماً بضرب المثل بالواحد في الأرقام .

قال في هذه الرسالة في الحديث :

«كان الله ولم يكن معه شيء غيره ، وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء» .

أخرجه البخاري من حديث عمران بن حصين .

وقد كثر ذكر معية الله بغيره في مواضع من الكتاب والسنة ، وهو من المتشابه ، ورجوعه إلى المحكم ، بأن يعلم بأن الله سبحانه في الموجودات قد ضرب لنفسه مثلاً بالواحد في الأعداد ، ومن المعلوم ان ما من عدد إلاّ وهو في الحقيقة يرجع إلى الواحد ، فالأثنين من شهود الواحد مرة ومرة ، والثلاثة من شهوده مرة ، ومرة ، ومرة ، وهكذا جميع الأعداد ، فلو طلبت لعدد من الأعداد حقيقة مجردة عن الواحد : لم تجده . ولسبب ذلك كانت الأعداد لا تتناهىٰ ، لأن تجليات الواحد لا تتناهىٰ ، ولولا معية الواحد للواحد ما ثبتت الشفعية ، ولولا

(١) مطبوع .

إحاطته بالشفعية ما ثبتت الوترية ، وهو الأول والآخر ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلاّ هو رابعهم﴾[1] الآية ، فمن أشهده الله آخرية معيته له ، فقد شفعه . فإن أشهده مع ذلك أولية معيته فقد أوتره «أن الله وتر يحب الوتر»[2] ، ومن أشهده سر وحدانيته في نفسه ورجوع الأعداد إليه فقد وحده «ما وحد الواحد إلاّ الواحد»[3] ، وبهذا يفهم السر في قوله : «من عرف نفسه عرف ربه»[4] .

وقال ابن عربي في رسالة «الحجب» : والتوحيد إنشاء العديد من الواحد ، كالواحد إلى الواحد في ظهور الأثنين ، وزاد واحداً يكن ثلاثة ، بالغاً ما بلغ من أسماء العدد ، فبالواحد تظهر أعيان الأشياء ، وبزواله تزول ، كالأتحاد : غيبوبة العدد في واحده الذي به ظهر ، وفناؤه فيه من حيث الواحد ، فليس العدد غير الواحد ، ولا هو نفس الواحد .

وقال أيضاً في كتابه «مراتب الحروف» : فمهما نظرت الوجود جمعاً وتفصيلاً وجدت التوحيد يصحبه ، لا يفارقه ألبتة ، صحبة الواحد للأعداد . فإن الاثنين لا يوجد أبداً ما لم يضف إلى الواحد مثله ، وهو الاثنين ، ولا تصح الثلاثة ما لم يزد واحد على الاثنين ، وهكذا إلى ما لا يتناهىٰ .

فالواحد نفس العدد ، وهو عين العدد ، أي به ظهر العدد . فالعدد كله واحد : لو نقص من الألف واحد : أنعدم اسم الألف وحقيقته ، وثبتت حقيقة أُخرىٰ ، وهي تسعمائة وتسعة وتسعون ، لو نقص عنها واحد لذهب عنها .

فمتى انعدم الواحد من شيء عدم ، ومتى ثبت : وجد ذلك الشيء .

هكذا التوحيد : أن حقيقته : ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾ .

إلى أن قال : كما جمع العدد كله كما قدمناه في الواحد .

وهناك أمثلة أُخرىٰ كما في كتاب «الهو» ، فاقتصرنا على هذه ، لأنها في

---

(١) سورة المجادلة ؛ الآية : ٧ .

(٢) رواه ابن نصر عن أبي هريرة ، وعن عبد الله بن عمر ، ورواه أبو يعلى عن ابن مسعود بلفظ «ان الله وتر يحب الوتر ، فإذا استجمرت فأوتر» والترمذي عن ابن مسعود : «ان الله وتر يحب الوتر فأوتروا يا أهل القرآن» .

(٣) هما بيتان للشيخ ابن عربي (رحمه الله) .

(٤) مشهور عن الصوفية ، وهو من قول يحيى بن معاذ .

علمنا : لم تطبع .

وظاهر أن هذه التشبيهات مصدرها واحد ، فلو كانت الرسالة لابن اللبان ـ وهو كما أسلفنا ـ متأخر عن ابن عربي ، للزمه أمانة أن يشير إلى مصدره في ضرب المثل ، ، وهو : ابن عربي .

وقد وجدنا من الأعلام المذكورين في الرسالة الشيخ أبا النجا ، وهي كنية غامضة ، ولكنها كنية أبي مدين الغوث المحبوبة عند ابن عربي ، وسيدي أبو مدين الغوث متوفىٰ سنة ٥٩٤ ، نبهنا لهذا الأستاذ الشيمي ، وهو حجة في ابن عربي :

قال : «لم أجد من كناه بأبي النجا ، سوى الإمام محيي الدين : تلميذه .

وإليك بيان ذلك من كتابه : «مواقع النجوم ومطالع أهله الأسرار والعلوم» جاء في باب الفلك اليميني ص ٩٦[1] ما نصه : «وكذلك اتفق لشيخ الشيوخ بمغربنا أبي النجا ، المعروف بأبي مدين الخ . . » .

وفي ص ١٥١[2] من نفس الكتاب في باب «الفلك القلبي» ما نصه : «ولقد بلغني عن ثقة : أن الشيخ أبا النجا ، المعروف بأبي مدين (رحمة الله عليه) ، وجه إليه بعض الأبدال في مسألة ، وهي : لأي شيء لا يعتاص علينا ، وأنت تعتاص عليك الأشياء ، ونحن راغبون في مقامكم ، وأنت غير راغب في مقامنا» اهـ .

وإذا قرأنا ترجمة ابن اللبان : نرىٰ أنه منع من الكلام لضبط كلمات عليه على طريق الاتحادية ، كما يقول ابن حجر .

وهذا الممنوع من الكلام بحكم القضاء الذي لم ينقذه منه إلاَّ مكانة ووجاهة ابن فضل الله ، وتشفعه ، لا يسوغ له التأليف فيما منع منه ، كما هو معروف حتى في عصرنا هذا .

وفي هذه الرسالة مواضع لا تقبل إلاَّ ممن أجمعوا على تأويل كلامه ، كابن عربي .

---

(١) ص ٨٩ طبعة مكتبه صبيح .
(٢) ص ١٣٩ من نفس الطبعة .

وقـد ذكر المؤلف كتـاب «الأمـالي» من تـأليفـه ، ولـم نجـده في مؤلفـات ابن اللبان .

أمـا ابن عربي فلم نعثـر على ثبت بكل مؤلفـاته ، وهي أربعمـائـة ونيف كمـا ذكر[1] .

أمـا السر في خـطأ نسبتها ، فـربما كـان غلطاً من الناسـخ ، أو كـان مكتـوبـاً عليها اسم ابن اللبان : ملكاً لا تأليفاً ، وعلم ذلك عند كلام الغيوب .

وسواء أكانت هذه الرسـالة لابن اللبـان ، أو لابن عربي ، فهي علم ينتفـع به على الحالين .

وابن اللبـان كان من الأعيـان ، وكـان يلقب بشيـخ الإسـلام ، ولـم يكن ممن يستهان به : فنرى لزاماً علينا ذكر ترجمته .

بقي أن نقول : . . . أن نسختنا هذه ـ وكان أصلهـا المخطوط المغـربي ـ كثير التحريف والخطأ مفقودة منه المقدمة إلى قوله : (وفـرعها في السمـاء) قد راجعنـاها على نسختي بيروت والآستانة المطبوعتين ، وكانتا أكثر تحريفاً وخطأ .

أما نسخة بيـروت : فهي كالمخـطوط الذي طبعنـا منه ، لـولا مواضـع تقديم وتأخير في فصولها ، ونقصها قليل بـالنسبة لنسخـة الآستانـة المنسوبـة لابن اللبان ، ففيهـا مغايـرات كثيرة ، ونقص كثيـر ، واختصار ، حتى أن نـاشـرهـا قـال : (ولقـد تصرفت في بعض عبارات الكتـاب التي لم أقف على أصلها ، وكـان بعضها ممـزقاً من تصـرفات الأيـام) وعلى ذلك كـان من السعد أن خـرجت نسختنا هـذه في غايـة من الدقة والضبط (بحمد الله تعالى) ، فضلاً عن التعليق عليها .

ونـرى لزامـاً أن نشكر السـادة الأشراف : «الشيـخ علي عبد العـزيـز حميـده» الذي سمح لنا بالأصل القديم الذي طبعنا منـه ، والأستاذ العـلامة «أحمد بك خيري .

---

(١) في دار الكتب صـورة اجازة إلى السـلطان الملك المـظفر : بهـاء الـدين بن الملك العـادل أبي بكـر بن أيـوب ، وأولاده رقم ١٥٨ ، ذكـر فيهـا مصنفـاتـه ، وهي ضمن مجمـوعـة من ورقـة ١٠٤ ـ ١٠٩ .

وأخـرى ذكر فيهـا مصنفاتـه أيضـاً رقمهـا ٦٣٣مجاميع طلعت أرسلهـا إلى الملك العـادل أبي بكر بن أيوب وأولاده ، وذكر فيها مؤلفاته أيضاً ، وكان ذلك عام ٦٣٢ هـ بدمشق .

الحسيني» الـذي وضع مكتبتـه الثمينـة تحت أمـرنـا ، ونفعنـا بعلمـه الغـزيـر ورأيـه الصـائب ، والسـيد «عبـد الحميد الشيمي» الـوفائي الحـاتمي الذي كـان من كـرمـه ونصحـه للمسلمين أن أرسل لنـا نسخته من الـرسالـة ، على غير معـرفة ، لمـا علم أننا نطبع الكتاب ، حتى أمكننا المراجعة والتصحيح عليهما .

وقد نفعنا بعلمه أيضاً الأستاذ «الهادي عبد القادر» التونسي .

وكذلك نشكـر كل من عـاونا على إخـراج هذه الـرسالـة ، جزاهـم الله تعـالى خير الجزاء ، والحمد لله رب العالمين .

ترجمة ابن اللبان

نقلاً عن الحافظ ابن حجر العسقلاني ، المتوفى سنة ٨٥٢ ، قال في الجزء الثالث من «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» .

«محمد بن أحمد الأسعردي (اسعرد(*) بلد ذكره في القاموس) ثم الدمشقي ، نزيل القاهرة شمس الدين بن اللبان ، ولد سنة ٦٨٥ هـ أو نحوها ، وسمع بدمشق من ابن غدير وغيره ، وبالقاهرة من الدمياطي وغيره ، وتفقه وبرع في الفنون ، ودرس بزاوية الشافعي بالجامع[1] ، وتكلم على الناس - على طريق الشاذلية - فطار له بذلك صيت عظيم ، ولكنه ضبطت عليه كلمات على طريق الاتحادية ، فقام عليه الفقهاء ، وحضر إلى مجلس القاضي جلال الدين القزويني ، وادعى عليه عنده ، وانتصر له ابن فضل الله ، إلى أن استنقذ من يد القاضي المالكي : شرف الدين عيسى الزواوي ، بعد أن منع من الكلام ، وله ترتيب الأم للشافعي ، واختصر الروضة ، ولكنه تعانى تعقيد الألفاظ ، فلا يفهم ، واختصر علوم الحديث ، وله مختصر في النحو وتفسير سور ، وكتاب على لسان الصوفية ، وفيه من إشارات أهل الوحدة ، وهو في غاية الحلاوة لفظاً ، وفي المعنى سم ناقع .

قال الأسنوي : كان عارفاً بالفقه والأصلين والعربية ، أديباً ذكياً فصيحاً ، ذا

(*) وهي «بكسر العين» .

(١) كانت للإمام الشافعي زاوية في مسجد عمرو بن العاص

همة وصرامة وانجماع ، وعمل في «كائنة الكمال جعفر الأدفودي» مقامة حط عليه فيها .

قال العثماني قاضي صفد : رأيته بمكة وقت صلاة الجمعة ، وأمير الحج يضرب الطائفين ، ويقول أجلسوا للصلاة ، فقام عليه وأمسك بكتفيه ، وقال : نبيك قال : «لا تمنعوا أحداً طاف بهذا البيت ، أي ساعة شاء من ليل أو نهار» فسقطت العصا من يد الأمير ، وقبل يد الشيخ» .

قال : «فاتفق أنه لما خرج الخطيب جلس الناس دفعة واحدة . مات في الطاعون العام سنة ٧٤٩ هـ» ا هـ .

ترجمة الشيخ محي الدين بن العربي

مختصرة عن كتاب :

«إزالة الشبهات من قول الأستاذ الأكبر : كنا حروفاً عاليات» .

تأليف الأستاذ المحقق «أحمد بك خيري الحسيني» عن فوات الوفيات ، ونفح الطيب، وغير ذلك من المراجع التي تنص عليها إن رأينا ضرورة .

هو : الشيخ الأكبر : محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي ، من ولد عبد الله بن حاتم ، أخي عدي بن حاتم الصحابي ، يكنىٰ أبا بكر ، ويلقب بمحي الدين ، يعرف بالحاتمي ، وبابن عربي ، بدون ألف ولام ، كما أصطلح عليه أهل المشرق ، فرقاً بينه وبين القاضي أبي بكر بن العربي المتوفىٰ سنة ٥٤٣ ، وكان يعرف بالمغرب بابن العربي ، بالألف واللام ، وكان أيضاً يعرف في الأندلس «بابن سراقة» ، ولد بمرسية ، يوم الاثنين سابع عشر شهر رمضان ، سنة ٥٦٠ ستين وخمسمائة ، وانتقل منها إلى أشبيلية سنة ٥٦٨ فأقام بها إلى سنة ٥٩٨ ، ودخل بجاية(*) من بلاد المغرب سنة ٥٩٧ ، ثم ارتحل إلى المشرق حاجاً ، ولم يعد بعدها للأندلس .

قال عن نفسه في «رسالة الحجب» : «كنت يوماً بمدينة قرطبة وأنا ماش إلى صلاة الجمعة ، ومعي جماعة من إخواني ، وذلك في أيام جهالتي» وذكر حكاية بيتين من الشعر .

(*) بضم البـاء .

ويفهم من هـذا النص تنقله في الأنـدلس ، ودخـل مصـر حـاجـاً ، وأقـام بالحجاز مدة ، ودخل بغداد سنة ٦٠١ ، وسنة ٦٠٨ والموصـل ، وبلاد الـروم ، ثم سكن دمشق ، واستقر بها إلى أن مات .

قـال الشعراني في الطبقات : «ترجمة الشيخ صفي الدين بن أبي المنصـور وغيره بالـولاية الكبرىٰ والصلاح ، والعـرفان والعلم ، فقـال : «هو الشيخ الإمـام المحقق ، رأس أجلاء العـارفين والمقـربين ، صـاحب الإشـارات الملكـوتيـة ، والنفحات القدسيـة ، والأنفاس الـروحانيـة ، والفتح المـونق ، والكشف المشرق ، والبصائر الخارقة ، والسرائر الصـادقة ، والمعارف الباهرة» .

إلى أن قال : «وهو أحد أركان هذه الطريق» .

وكـذلك تـرجمة الشيخ العارف بـالله تعالىٰ سيـدي محمد بن أسعـد اليـافعي (رضي الله عنه) ، وذكره بالعرفان والولاية ، ولقبه الشيـخ أبو مـدين (رضي الله عنه) بـ : «سلطان العارفين» .

وكـلام الرجـل أدل دليل على مقـامه البـاطن ، وكتبه مشهـورة بين الناس ، لا سيمـا بأرض الـروم ، فإنـه ذكـر في بعض كتبـه في صفـة السلطان : جـد السلطان سليمان بن عثمان الأول ، وفتحة القسطنطينية في الوقت الفلاني ، فجـاء الأمر كما قال : وبينه وبين السلطان نحو مائتي سنة .

وقد بني عليه قبة عظيمة وتكية شريفة بالشام ، فيهـا طعام وخيـرات ، واحتاج إلى الحضـور عنده من كـان ينكر عليـه من القاصـرين ، بعد أن كـانوا يبـولون على قبره (رضي الله عنه) ، وذكر حكاية في ذلك وكرامة للشيخ .

ثم قـال : وكان (رضي الله عنـه) أولاً يكتب الإنشـاء لبعض ملوك المغـرب ، ثم تـزهد وتعبـد وساح ، ودخـل مصر والشـام والحجـاز والـروم ، ولـه في كـل بلد دخلها مؤلفات .

وكـان الشيخ عـز الدين بن عبد السلام ـ شيخ الإسلام بمصـر المحـروسـة ـ يحط عليـه كثيراً ، فلمـا صحب الشيخ أبـا الحسن الشاذلي (رضي الله عنـه) وعرف أحوال القوم ، صار يترجمه بالولاية والعرفان والقطبية ا هـ .

محنته بمصر : ذكر المقري في «نفـح الطيب» : «ثم قـال صاحب العنـوان ،

أي «عنوان الدراية»[1] : أن الشيخ بمحي الدين رحل إلى المشرق واستقرت به الدار ، وألف تآليفه ـ وفيها ما فيها ـ أن قيض الله من يسامح ويتأول سهل المرام ، وإن كان ممن ينظر بالظاهر فالأمر صعب ـ وقد نقد عليه أهل الديار المصرية ، وسعوا في اراقة دمه ، فخلصه الله تعالىٰ على يد الشيخ أبي الحسن البجائي المتوفى سنة ٦٥٢ ، فإنه سعىٰ في خلاصه ، وتأول كلامه .

ولما وصل إليه بعد خلاصه ، قال له الشيخ (رحمه الله تعالىٰ) : «كيف يحبس من حل منه اللاهوت في الناسوت» .

فقال له : «يا سيدي تلك شطحات في محل سكر ، ولا عتب على سكران» .

---

(١) هو كتاب «عنوان الدراية في تاريخ بجاية» و «بجاية» بضم الباء وفتح الجيم ، من بلاد المغرب .

مؤلفاته

ألف الشيخ كثيراً من المؤلفات ، وجلها - إن لم يكن كلها - في التصوف والعلوم الغيبية ، وهي : نيف وأربعمائة مؤلف ، عد منها العظم في كتابه «عقود الجوهر» ٢٤٣ مؤلفاً ، وقال : «وللشيخ مؤلفات غير هذه لم أقف عليها» .

اجتهاده : نقل عنه الشعراني : «أنه كان مجتهداً» في الباب السابع والستين وثلثمائة من الفتوحات المكية .

قال : «ليس عندنا - بحمد الله تعالىٰ - تقليد إلَّا للشارع (ص)» وأظن هذا كاف للرد على من ترجم بأنه ظاهري المذهب ، ولا حاجة لتأويل هذه الكلمة ، لأن قوله : «للشارع» يدل على اجتهاده في الفقه بنوع خاص .

قال في ديوانه في «باب التبري من التقليد» :

نسبوني إلى ابن حزم ، واني	لست ممن يقول : قال ابن حزم
لا ولا غيره ، فإن مقالي	قال نص الكتاب : ذلك علمي[1]
أو يقول الرسول أو أجمع الخلـ	ـق على ما أقول : ذلك حكمي

وابن حزم أكبر شيوخ الظاهرية

ثم أنظر لقوله في الفتوحات ج ١ ص ٥١٨ : «اتفق المسلمون على أن

(١) وهذا يدل على أنه ليس ظاهري المذهب ، وإنما مجتهد ، وربما وافق اجتهاده الظاهرية في بعض الأحكام عفو الخاطر وإن كان هو اختصر «المحلى» لابن حزم ، وسمّاه «المجلى في اختصار المحلى».

التوجه إلى القبلة ـ أعني الكعبة ـ شرط من شروط صحة الصلاة ، فلولا أن الإجماع سبقني في هذه المسألة لم أقل : أنه شرط ، فإن قوله تعالى : ﴿**فأينما تولوا فثم وجه الله**﴾ نزلت بعده ، وهي آية محكمة ، غير منسوخة» .

أليس في هذا الكلام روح الاجتهاد ؟ .

وأنظر الفتوحات أيضاً ج ١ ص ٤٤٧ «فمنهم من أجاز إمامة المرأة على الإطلاق ، بالرجال والنساء ، وبه أقول ، ومنهم من منعها مطلقاً ، ومنهم من أجازها بالنساء دون الرجال ، وقد شهد رسول الله (ص) لبعض النساء بالكمال ، كما شهد لبعض الرجال بالكمال ، وإن كانوا أكثر من النساء في الكمال ، والأصل امامة المرأة ، فمن أدعىٰ منع ذلك من غير دليل ، فلا يسمع له ، ولا نص للمانع في ذلك» ا هـ .

وكتبه مشحونة بمثل هذه الأمثلة التي تدل على الاستقلال في الرأي ، والاجتهاد في الحكم .

وأظنه ما اعترف لأحد عليه بالفضل ما اعترف للإمام جعفر الصادق (رضي الله عنه) .

قال ابن عربي في كتابه «ستة وتسعون» في «الكلام على الميم والواو والنون» : «وهذه طريقة الإمام جعفر الصادق (رضي الله عنه) ، وغيره كان يقول بصورة الحيوانات ، ولكن نقول بالأشكال ، وما أظن ـ والله أعلم ـ إلاَّ أنه لمكذوب عليه في ذلك ، من حيث أنه صورها أو أمر بها ، وأما ان كان نبه عليها ، فصورها التلميذ من غير معرفة ، فهذا هو الذي يليق بمقامه ورتبته ، فإنه أجل من أن يجري عليه لسان ذنب ، فاني ـ وإن كنت من بعض حسناته ـ لا أقول بهذا ، وأحرى بمثل ذلك السيد المجتبىٰ حسياً وعلماً» .

نقلنا أكثر نصه ، لأنه ـ فيما نعلم ـ لم يطبع ، وظاهر منه إقراره بالفضل للإمام جعفر ، مع استقلاله في الرأي .

حفظه :

قال الشيخ المفسر المحدّث : إسماعيل العجلوني الجراحي المتوفىٰ سنة ١١٦٢ في «كشف الخفا ومزيل الألباس ، عما أشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس» ج ٢ ص ٢٦٢ ناقلاً عن الغرس ، ذكر لنا شيخنا الشيخ حجازي الواعظ

«شارح الجامع الصغير للسيوطي» بأن الشيخ محي الدين بن عربي ، معدود من الحفاظ ـ أنظر التعليق على حديث : «من عرف نفسه عرف ربه» فإنه فيه بطوله ـ والحافظ في مصطلح المحدثين ، يطلق على من يحفظ مائة ألف حديث .

أولاده :

رزق بولدين ، أحدهما : سعد الدين محمد ، ولد بملطية ، وهي بلدة من الأناضول ، في شهر رمضان ٦١٨ وسمع الحديث ودرس ، وقال الشعر الجيد ، وله ديوان شعر مشهور ، توفي بدمشق سنة ٦٥٦ ، وهي السنة التي توفي فيها أيضاً أستاذنا الكامل سيدي أبو الحسن الشاذلي ، سنة دخل «هولاكو» بغداد ، وقتل الخليفة المستعصم .

ودفن عند والده بسفح قاسيون ، بتربة القاضي بن الزكي .

وفاته :

وليلة الجمعة ، الثامن والعشرون من شهر ربيع الآخر ، من شهور سنة ٦٣٨ توفي الأستاذ الأكبر بمدينة دمشق ، بعد أن عمر ١١ يوماً ، ٧ شهور ، ٧٧ سنة ، بدار محي الدين بن الزكي ، ودفن يوم الجمعة بجبل قاسيون ، بتربة بني الزكي ا هـ .

وأختم هذه المقدّمة بالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، حمداً يؤدّي شكر كل آلائه على جميع خلقه .

الأربعاء ١١ من شعبان ١٣٦٨
٨ يونية ١٩٤٩

أبو بكر عبد الرحمن مخيون
عزبة مخيون ـ بأبي حمص ـ بحيرة

كلمة في الصوفية ، لا بد منها

بسم الله الرّحمن الرّحيم

أحمده سبحانه ، وأصلّي على رسوله خاتم النبيّين ، وبعد :

فهذه الرسالة فيها ألفاظ على مصطلح الصوفية ، موهمة لغيرهم ، يصعب تأويلها إلَّا على عارف منهم .

ولأن لكل قوم من ذوي العلم إصطلاحات خاصة بهم ، ولأني لم أتشرف بنهج منهجهم الوعر على أمثالي ، ولأنه لا يصح الكلام إلَّا بذوق وحال ، فقد رأيت إيراد بعض نصوص لها خطر من كلامهم ، تعين على فهم المراد حتى يحسن الاعتقاد فيهم ، ويقام : لهم العذر ، أو يسلم لهم حالهم إلى ﴿ليسأل الصادقين عن صدقهم﴾ وقد أطلت في إيراد النصوص كاملة لأنها مشردة في الكتب ، وبدأت بكلمة حجة الإسلام الغزالي في كتاب : «المقصد الأسنىٰ شرح أسماء الله الحسنىٰ» فانها ، وإن كانت وافية بالمرام - حتى لقد أحال عليها في كتابه «المنقذ من الضلال» - إلَّا أن ما يأتي بعدها كزيادة شرح وإيضاح لها ، وبه فوائد لم تذكر فيها ، فنقول وتوكلنا على الله :

قال الغزالي : «في المقصد الأسنىٰ» بعد شرحه لآخر الأسماء الحسنىٰ التي ذكرها الحديث :

«خاتمة لهذا الفصل واعتذار» .

إعلم أنه إنما حملني على ذكر هذه التنبيهات - ردف هذه الأسامي

والصفات ـ قول رسول الله (ص) : «تخلقوا بأخلاق الله تعالىٰ»[1] ، وقوله (ص) : «إن الله تعالىٰ كذا وكذا خلقاً ، من تخلق بواحد منها دخل الجنة» .

(رواه في الجامع الصغير : «ان لله تعالىٰ مائة خلق وسبعة عشر خلقاً ، من أتاه بخلق منها دخل الجنة»[2] وذكر أن رواه الحكيم ، وأبو يعلى في مسنده ، والبيهقي في شعب الإيمان ، عن عثمان بن عفان ، ووضع أمامه علامة الحسن) .

وما تداولته ألسنة الصوفية من كلمات تشير إلى ما ذكرناه ، لكن على وجه يوهم عند غير المحصل شيئاً من معنىٰ الحلول أو الاتحاد ، وذلك غير مظنون بعاقل ، فضلاً عن المميزين بخصائص المكاشفات .

وقد سمعت الشيخ أبا علي القارمذي يحكي عن شيخه أبي القاسم الكركاني (قدس الله روحهما) ، أنه قال : «أن الأسماء التسعة والتسعين : تصير أوصافاً للعبد السالك ، وهو يعد في السلوك غير واصل» .

وهذا الذي ذكره : إن أراد فيه شيئاً يناسب ما أوردناه فهو صحيح ، ولا يظن به إلاّ ذلك ، ويكون في اللفظ نوعاً من التوسع والإستعارة ، فإن معاني الأسماء ، هي : صفات الله تعالىٰ ، وصفاته لا تصير صفة لغيره ، ولكن معناه أن يحصل له ما يناسب تلك الأوصاف كما يُقال : فلان حصل علم أستاذه ، وعلم الأستاذ لا يحصل للتلميذ ، بل يحصل له مثل علمه[3] .

وإن ظن ظان ، أن المراد به ليس ما ذكرناه ، فهو باطل قطعاً ، فإني أقول قول القائل : «إن معاني أسماء الله صارت أوصافاً له» ، لا يخلو : إما أن عني به غير تلك الصفات أو مثلها ، فإن عني به مثلها ، فلا يخلو : إما أنه عني به مثلها مطلقاً من كل وجه ، وإما أنه عني به مثلها من حيث الاسم والمشاركة في عموم الصفات ، دون خواص المعاني ، فهذان قسمان .

---

(١) وقال (عليه الصلاة والسلام) : «الخلق زمام من رحمه الله» رواه الحاكم في تاريخه ، وقال (ص) : «الخلق وعاء الدين» رواه الحكيم .

(٢) مع شهادة أن لا إله إلاّ الله .

(٣) وكما تقول مثلاً : « ـ فلان رجل صبور ـ » أي يتحمل الأذىٰ كثيراً ، ولكنها ليست كالصفة التي وصف الله تعالىٰ بها نفسه ، فإن العبد ليس له منها إلاّ الاسم فقط ، والمعنى الكامل لله تبارك وتعالى ، وشتان بين هذا وذاك .

وإن عني بها عينها ، فلا يخلو : إما أن يكون بطريق إنتقال الصفات من الرب إلى العبد ، أو لا بالانتقال ، فإن لم يكن بالانتقال ، فلا يخلو : إما أن يكون باتحاد ذات العبد بذات الرب ، حتى يكون هو هو ، فيكون صفاته صفاته ، وإما أن يكون بطريق الحلول ، وهذه أقسام ثلاثة ، وهو : الانتقال ، الاتحاد ، والحلول ، فهذه خمسة أقسام ، الصحيح منها قسم واحد ، وهو أن يثبت للعبد من هذه الصفات أمور تناسبها على الجملة ، وتشاركها في الاسم ، ولكن لا تماثلها مماثلة تامة ، كما ذكرناه في التنبيهات .

وأما القسم الثاني : وهو : أن يثبت له أمثالها على التحقيق فمحال ، فإن من جملتها : أن يكون له علم محيط بجميع المعلومات ، حتى لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، وأن يكون له قدرة واحدة تشمل جميع المخلوقات ، حتى يكون بها خالق السماوات والأرض وما بينهما ، وكيف يتصور هذا لغير الله تعالىٰ ؟؟؟

وكيف يكون العبد خالق السماوات والأرض وما بينهما ، وهو من جملة ما بينهما ؟؟؟ .

فكيف يكون خالق نفسه ؟ .

ثم إن ثبتت هذه الصفات لعبدين ، يكون كل واحد منهما خالق صاحبه ، فيكون كل واحد منهما خالقاً من خلقه .

وكل ذلك ترهات ومحالات .

وأما القسم الثالث : وهو انتقال عين صفات الربوبية ، فهو أيضاً محال ، لأن الصفات يستحيل مفارقتها للموصوفات ، وهذا لا يختص بالذات القديمة .

بل لا يتصور أن ينتقل عين علم زيد إلى عمرو .

بل لا قيام للصفات إلاّ بخصوص الموصوفات ، لأن الإنتقال ووجب فراغ المنتقل عنه ، فيوجب أن تعري الذات التي عنها إنتقال صفات الربوبية عن الربوبية وصفاتها .

وذلك أيضاً ظاهر الإستحالة .

وأما القسم الرابع : وهو الإتحاد ، فذلك أيضاً أظهر بطلاناً ، لأن قول

القائل : «أن العبد صار هو الرب» كلام متناقض في نفسه ، بل ينبغي أن ينزه الرب سبحانه عن أن يجري اللسان في حقه بأمثال هذه المحالات ، ويقول قولاً مطلقاً ، إن قول القائل : إن شيئاً صار شيئاً آخر محال على الإطلاق ، لأنا نقول : إذا عقل زيد وحده ، وعمرو وحده ، ثم قيل : إن زيداً صار عمراً ، واتحد به ، فلا يخلو عند الاتحاد إما أن يكون كلاهما موجودين ، أو كلاهما معدومين ، أو زيد موجوداً وعمرو معدوماً ، أو بالعكس ، ولا يمكن قسم وراء هذه الأربعة ، فإن كانا موجودين فلم يصر أحدهما عين الآخر ، بل عين كل واحد منهما موجود ، وإنما الغاية أن يتحد مكانهما ، وذلك لا يوجب الاتحاد . فإن : العلم ، والإرادة ، والقدرة ، قد تجتمع في ذات واحدة ولا يتباين محالها ، ولا تكون القدرة هي العلم ولا الإرادة ، ولا يكون قد أتحد البعض بالبعض .

وإن كانا معدومين فما أتحدا ، بل عدما ، ولعل الحادث شيء ثالث ، وإن كان أحدهما معدوماً والآخر موجوداً فلا اتحاد ، إذ لا يتحد موجود بمعدوم ، فالاتحاد بين الشيئين مطلقاً محال ، وهذا جار في الذوات المتماثلة ، فضلاً عن المختلفة ، فإنه يستحيل أن يصير هذا السواد ذاك السواد ، كما يستحيل أن يصير هذا السواد ذلك البياض أو ذلك العلم .

والتباين بين العبد والرب : أعظم من التباين بين السواد والعلم .

فأصل الاتحاد أذن باطل ، وحيث يطلق الإتحاد ، ويُقال : هو هو ، لا يكون إلاّ بطريق التوسع والتجوز اللائق بعادة الصوفية والشعراء ، فانهم - لأجل تحسين موقع الكلام من الافهام - يسلكون سبيل إستعارة ، كما يقول الشاعر :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا[1] -

وذلك مؤول عند الشاعر ، فإنه لا يعني به أنه هو تحقيقاً ، بل كأنه هو : فإنه مستغرق الهم به ، كما يكون هو مستغرق الهم بنفسه ، فيعبر عن هذه الحالة بالاتحاد على سبيل التجور .

وعليه ، ينبغي أن يحمل قول أبي زيد حيث قال : «انسلخت من نفسي كما

---

(١) أنا من أهوى ومن أهوى أنا روحان حلا جسدا

وهل يمكن أن يكون ذلك على سبيل الحقيقة . . . لا . . . ولكنه كناية عن الحب الخالص ، ولغة العرب مليئة بمثل هذا .

تنسلخ الحية من جلدها ، فنظرت فإذا أنا هو» ، ويكون معناه : ان من ينسلخ من شهوات نفسه وهواها وهمها ، فلا يبقىٰ فيه متسع لغير الله ، ولا يكون له هم سوىٰ الله تعالىٰ .

فإذا لم يحل في القلب إلاّ جلال الله وجماله ، حتى صار مستغرقاً به ، يصير كأنه هو ، لا أنه هو تحقيقاً ، وفرق بين قولنا : «كأنه هو» وبين قولنا : «هو هو» . لكن قد نعبر بقولنا : هو هو عند قولنا : «كأنه هو» كما أن الشاعر تارة يقول : «كأني من أهوىٰ» ، وتارة يقول : «أنا من أهوىٰ» ، وهذه مزلة قدم ، فإنه ليس له قدم راسخ في المعقولات ، ربما لم يتميز له أحدهما عن الآخر ، فينظر إلى كمال ذاته ، وقد تزين بما تلألأ فيه من حلية الحق ، فيظن أنه هو ، فيقول : «أنا الحق» وهو غالط غلط النصارىٰ ، حيث رأوا ذلك في ذات عيسى (ع) ، فقالوا : هو الإله . بل غلط من ينظر إلى مرآة قد انطبع فيها صورة متلونة ، فيظن أن تلك الصورة هي صورة المرآة ، وأن ذلك اللون لون المرآة ، وهيهات ، بل المرآة في ذاتها لا لون لها ، وشأنها قبول صور الألوان على وجه يتخايل إلى الناظرين إلى ظاهر الأمور : ان ذلك هو صورة المرآة ، حتى أن الصبي إذا رأى إنساناً في المرآة : ظن أن الإنسان في المرآة ، فكذلك القلب خال عن الصورة في نفسه ، وعن الهيئات ، وإنما هيئته : تبول معاني الهيئات والصور والحقائق ، فما يحله يكون كالمتحد به ، لا أنه متحد به تحقيقاً ، ومن لا يعرف الزجاج والخمر ، إذا رأى زجاجة فيها خمر لم يدرك تباينهما ، فتارة يقول : لا خمر ، وتارة يقول : لا زجاجة ، كما عبر عنه الشاعر حيث ، قال :

رق الزجاج وراقت الخمر ... فتشابها ، فتشاكل الأمر
فكأنما خمر ولا قدح ... وكأنما قدح ولا خمر[1]

وقول من قال منهم : «أنا الحق» فإما أن يكون معناه معنى قول الشاعر : ـ أنا من أهوىٰ ومن أهوىٰ أنا ـ وإما أن يكون قد غلط في ذلك كما غلطت النصارىٰ في ظنهم اتحاد اللاهوت بالناسوت .

وقول أبي يزيد ـ إن صح عنه ـ : «سبحاني ، ما أعظم شاني» . إما أن يكون ذلك جارياً على لسانه في معرض الحكاية عن الله تعالىٰ ، كما لو سمع وهو

(١) هما للحسن بن هانيء «أبو النواس» .

يقول : (لا إله إلاّ أنا فاعبدني) لكان يحمل على الحكاية[1] .

واما أن يكون قد شاهد كمال حظه من صفة القدس - على ما ذكرنا في الترقي بالمعرفة عن الموهومات والمحسوسات وبالهمة عن الحظوظ والشهوات - فأخبر عن قدس نفسه ، فقال : «سبحاني» ورأي عظم شأنه بالإضافة إلى شأن عموم الخلق ، فقال : «ما أعظم شأني» وهو مع ذلك يعلم أن قدسه وعظم شأنه بالإضافة إلى الخلق.

ولا نسبة له إلى قدس الرب تعالىٰ ، وعظم شأنه .

ويكون قد جرىٰ هذا اللفظ على لسانه في سكر وغلبة حال ، فإن الرجوع إلى الصحو ، واعتدال الحال يوجب حفظ اللسان عن الألفاظ الموهمة .

وحال السكر ربما لا يحتمل ذلك .

فإن جاوزت هذين التأويلين إلى الإتحاد ، فذلك محال قطعاً .

فلا تنظر إلى مناصب الرجال حتى تصدق بالمحال .

بل ينبغي أن تعرف الرجال بالحق ، لا الحق بالرجال .

وأما القسم الخامس : وهو الحلول ، فذلك يتصور بأن يُقال : «أن الرب حل في العبد ، أو العبد حل في الرب» : تعالىٰ رب الأرباب عن قول الظالمين .

وهذا - لو صح - لما أوجب الإتحاد ، ولا أن يتصف العبد بصفات الرب ، فإن صفات الحال(*) لا تصير صفة المحل ، بل تبقىٰ صفة الحال كما كان ، ووجه استحالة الحلول لا يفهم إلاّ بعد فهم معنىٰ الحلول ، فإن المعاني المفردة إذا لم تدرك بطريق التصور ، لم يمكن أن يعلم نفيها أو إثباتها من لا يدري معنى الحلول ، فمن أين يدري أن الحلول موجود أو محال ؟ .

فنقول : المفهوم من الحلول أمران :

أحدهما : النسبة التي بين الجسم وبين مكانه الذي يكون فيه ، وذلك لا

(١) بل قالها على سبيل التهكم بمن التف حوله ، لأنه دخل بلداً من البلاد ، فأخذ أهل هذا البلد يعظمونه ويلتفون حوله لا يبارحونه فكأنه أشتم منهم رائحة الأعظام الزائد له ، فقالها : على سبيل التهكم والزجر لهم عما يفعلون به .

(*) بتشديد اللام .

يكون إلّا بين جسمين :

فالبريء عن معنىٰ الجسمية يستحيل في حقه ذلك .

والثاني : النسبة التي بين العرض والجوهر ، فإن العرض يكون قوامه بالجوهر، فقد يعبر عنه بأنه حال فيه ، وذلك محال على كل ما قوامه بنفسه .

فدع عنك ذكر الرب تعالىٰ في هذا المعرض، [فإن كل ما قوامه بنفسه يستحيل أن يحل فيما قوامه بنفسه إلّا بطريق المجاورة الواقعة بين الأجسام](*) .

فلا يتصور الحلول بين عبدين ، فكيف يتصور بين العبد والرب تعالىٰ .

وإذا بطل الحلول والانتقال والاتحاد والاتصاف بأمثال صفات الله تعالىٰ ، على سبيل الحقيقة ، لم يبق لقولهم معنىٰ ، إلّا ما أشرنا إليه في التنبيهات ، وذلك يمنع من إطلاق القول بأن معاني أسماء الله تصير أوصافاً للعبد إلّا على نوع من التقييد ، خال عن الإيهام . وإلّا فمطلق هذا اللفظ موهم .

فإن قلت : فما معنى قوله : إن العبد مع الاتصاف بجميع ذلك سالك لا واصل ؟ فما معنى السلوك ؟ وما معنى الوصول ؟ .

فاعلم أن السلوك هو «تهذيب الأخلاق والأعمال والمعارف» ، وذلك اشتغال بعمارة الظاهر والباطن ، والعبد في ذلك مشغول بنفسه عن ربه ، إلّا أنه مشتغل بتصفية باطنه ليستعد للوصول ، وإنما الوصول هو : أن ينكشف له حلية الحق ، ويصير مستغرقاً به ، فإن نظر إلى معرفته فلا يعرف إلّا الله تعالىٰ ، وإن نظر إلى همته ، فلا همة له سواه ، فيكون كله مشغولاً بكله ، مشاهدة وهما ، لا يلتفت في ذلك إلى نفسه ، ليعم ظاهره بالعبادة وباطنه بتهذيب الأخلاق ، وكل ذلك طهارة ، وهي البداية .

وإنما النهاية أن ينسلخ من نفسه بالكلية ، ويتجرد له ، فيكون كأنه هو ، وذلك هو : الوصول .

فإن قلت : كلمات الصوفية تنبيء عن مشاهدات انفتحت لهم في طور الولاية ، والعقل يقصر عن درك الولاية ، وما ذكرتموه : تصرف ببضاعة العقل .

فاعلم : «أنه لا يجوز أن يظهر في طور الولاية ما يقضي العقل باستحالته .

(*) هكذا هذه العبارة .

نعم يجوز أن يظهر فيما ما يقصر العقل عنه ، بمعنىٰ أنه لا يدركه بمجرد العقل ، مثال أنه يجوز أن يكاشف الولي بأن فلاناً سيموت غداً ، ولا يدرك ببضاعة العقل ، بل يقصر العقل عنه ، ولا يجوز أن يكاشف بأن الله غداً سيخلق مثل نفسه ، فإن ذلك يحيله العقل ، لا أنه يقصر عنه .

وأبعد من ذلك أن يقول : «ان الله سيجعلني مثل نفسه» .

وأبعد منه أن يقول : ان الله سيصيرني نفسه ، أي أصير أنا هو ، لأن معناه اني حادث ، والله يجعلني قديماً ، ولست خالق السموات والأرضين ، والله يجعلني خالق السموات والأرضين .

وهذا معنىٰ قوله : «نظرت ، فإذا أنا هو» إذا لم يؤول[1] وحمل على ظاهره ، ومن صدق بمثل هذا المحال ، فقد انخلع عن غريزة العقل ، ولم يتميز عنده ما يعلم عما لا يعلم . فليصدق بأنه يجوز أن يكاشف ولي بأن الشريعة باطلة ، وانها إن كانت حقاً فقد يقلبها الله باطلاً ، وانه جعل جميع أقاويل الأنبياء كذباً .

وان من قال : يستحيل أن ينقلب الصدق كذباً ، فإنما يقول ببضاعة العقل .

فإن انقلاب الصدق كذباً : ليس أبعد من انقلاب الحادث قديماً ، والعبد رباً .

ومن لا يفرق بين ما أحاله العقل ، وبين ما لا يناله العقل ، فهو أخس من أن يخاطب ، فليترك وجهله ، ا هـ المراد» .

فانظر ـ رعاك الله ـ إلى هذا الكلام الواضح المعاني ، وليس فيه من الغموض إلاّ قوله «كأنه هو» فالمراد ـ والله أعلم ـ التعبير بها عن حالة السكر حباً في المعبود .

وأما قوله : «تلألأ فيه من حلية الحق» فأظن المقصود بها : الوجود ، وعبر

---

(١) وتأويله أن يكون : مرادي مراده .
يعني أحب ما يحب هو ، كما تقول لشخص : أنا وأنت شيء واحد ، لا فرق بيننا ، ولستما كذلك ، ولكنه من باب الكناية .
والله تعالى أعلم .

عنه بالحلية : ليفهم أنه وجود جائز ، محدث مغاير لوجود الحق تعالى الواجب القديم .

أما قوله قبل ذلك : «عني بها مثلها من حيث الاسم» فانظر لوصفه تعالى نبيه (ص) بقوله عنه : ﴿بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾[1] فخلع سبحانه عليه (ص) خلعة وصف اسمين من أسمائه تعالى ، فالمراد كما قال : المشاركة في عموم الصفات ، دون خواص المعاني ، وقد وجدنا له كلمة في «معراج السالكين» نثبتها هنا زيادة في الإيضاح .

قال الغزالي :

«فظاهر مذهبهم يشير إلى الحلول ، وقد أنشدوا في ذلك :

«رق الزجاج وراقت الخمر» البيتين .

قلنا : عين الحلول واعتقاده ، خطأ محض ، وسفاهة صرفة .

فإن قيل : قول الصوفية مشهور ، حتى قال أحدهم : «أنا الحق» وقال آخر : «سبحاني» وقال آخر : «ما في الجبة إلّا الله» .

قلنا : إذا قررنا إبطال الحلول أتينا على مذهبهم . فنقول حقيقة الحلول : انطباق جوهر على جوهر ، أو جسم على جسم ، أو عرض في جوهر ، وقد قدمنا بالبرهان الحق : أن العقول والنفوس قائمة بأنفسها ، لا تحمل شيئاً البتة ، ولا هي محمولة ، فأغنانا ذلك عن إعادته ، وهذا في رب العزة أعظم .

فإن قيل : فيرجع الكل إلى الإله ، وتكون العقول والنفوس لا يفارقها الباري تعالى إلّا بالفصل ، فانهم اجتمعوا في الجوهرية وحقيقة الحياة والقيام بالنفس .

قلنا : لا نثبت للباري تعالى ما أثبتناه للنفس ، فإنها لا قوام لها دونه ، وقد قام البرهان على حدوثها ، وذلك يبطل أن تكون هي هو ، فإن في ذلك لزوم أن يكون العالم كله آلهة ، وهو محال ، ويبطل أن يحل في النفوس أو ينطبع فيها إنطباع الخمر في اللبن ، كما زعمت النصارى في المسيح ، فإن ذلك من صفات الأجسام .

---

(١) آخر سورة التوبة، الآية : ١٢٨ .

فلم يبق إلاّ أن اللازم راجع إلى معنى الانفعال وإيجاده بالفعل ، أي وقوف الإشارات والحركات عليه ، فيكون هو المحرك القابض الباسط ، والنفوس معه كالحديد مع المغناطيس ـ على وجهة التمثيل ـ ولله المثل الأعلىٰ ، ونفي الوساطة على الطريق التي قدمناها .

ومن حقق من الصوفية ، وعلم وقوف الأشياء عليه ، وأن الأمور لا قوام لها دونه ، قال أحدهم : «ما في الجبة إلاّ الله تعالىٰ»[1] مبالغة في التوحيد[2] ، وقال آخر: «سبحاني»، فإنه رأى الياء مكان الإضافة، فان الفرق ضرب من الشرك، في قوله : «سبحان الله» فاجراء الأوصاف لا يعتد بها إلاّ لفصل ، فإن قولنا : «سبحان الكريم» نفي للبخل : وإذا قلنا : «سبحان الله» فمعناه نفي الشريك ، ولا يكون النفي إلاّ مع توهم الشريك ، فالموحدون منهم بلغ بهم التوحيد إلى أن رأوا التبري منه سوء أدب ، ولكن الكلام إذا وقع بالضرورة إليه ، والتجيء إلى النطق به : لا معنىٰ للهرب ، فقد وقعوا في «أشد» كما زعمت الفلاسفة : «أن الباري تعالىٰ لا يُقال له موجود ، فإن ذلك يؤدّي إلى دخوله مع الموجودات تحت الجنس ، وهذا نفي معنىٰ ، وهو سهل» ، اهـ .

وكل فاهم للتصوف الإسلامي ، ولأقوال صوفيته على غير كلمة الإمام الغزالي في «المقصد» فهو أحد أثنين :

إما مخدوع وإما متحكم .

وكل كلام لأهل «صوفة» غاير في ظاهره الشريعة ، فأما مؤول ، وإما مدسوس عليهم من الزنادقة ، وإما من صاحب حال في حال سكر[3] لم تسعفه الألفاظ ، ولسان العلم قاصر أيضاً كلسان التعبير ، لأنهم يتكلمون عمن قال عن نفسه سبحانه : ﴿لا يحيطون به علماً﴾ وقال عنه سيد البشر وأعلمهم به (ص) : «سبحانك ، لا أحصي ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك» فكم من سامع

---

(١) وفي النحو قولهم : «حذف ما يعلم جائز» ومعلوم أن الله تبارك وتعالى ليس في الجبة قطعاً وإنما فيها صنعته. ويكون التقدير «ما في الجبة إلاّ صنعة الله تبارك وتعالىٰ» ، والله تعالىٰ أعلم .

(٢) وهو ما يعبر عنه بمحق النفس ، وإثبات أن لا موجود إلاّ الله تعالىٰ .

(١) هو ما يعبر عنه بغلبة الحال ، والمغلوب في حالة غياب عن نفسه .

لهم في حالة سكرهم ، فوقع فيهم ، وكم من معتقد لهم أخذ كلامهم في سكرهم المؤول حقيقة ، فضل وأهلك نفسه الهلاك الأبدي ، إذ ألقى من يده ميزان الشريعة لقول غير معصوم ، فقال مقاله ، ولم يكن في حال كحاله . . ولا نطيل ، فاتل كلمة إمامنا الغزالي التي أحال فيها على كلمته السابقة في «المقصد الأسنى» ، وتنبه لقوله : (ولا يحاول معبر أن يعبر عنها ، إلاَّ أشتمل لفظه على خطأ صريح ، لا يمكنه الاحتراز عنه) .

قال الإمام الغزالي : في كتاب «المنقذ من الضلال» في فصل «القول في طريق الصوفية» .

وعلمت أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل ، وكان حاصل علمهم قطع عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالىٰ ، وتحليته بذكر الله .

وكان العلم أيسر عليَّ من العمل .

فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم ، مثل : «قوت القلوب» لأبي طالب المكي ، وكتب الحارث المحاسبي ، والمتفرقات المأثورة عن الجنيد ، والشبلي ، وأبي يزيد البسطامي ، وغير ذلك من كلام مشايخهم ، حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية ، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع ، وظهر لي أن أخص خواصهم ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم ، بل بالذوق والحال ، وتبدل الصفات ، فكم من الفرق بين أن يعلم : حد الصحة ، وحد الشبع ، وأسبابهما ، وشروطهما ، وبين أن يكون صحيحاً وشبعان» .

ثم قال : «فعلمت يقيناً أنهم أرباب أحوال ، لا أصحاب أقوال ، وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته ، ولم يبق إلاَّ ما لا سبيل إليه بالسماع والتعلم ، بل بالذوق والسلوك» .

إلى أن قال :

«ثم دخلت الشام ، وأقمت به قريباً من سنتين ، لا شغل لي إلاَّ العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة ، اشتغالاً بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب لذكر الله تعالىٰ ، كما كنت حصلته من علم الصوفية ، ثم جذبتني الهمم ودعوات الأطفال إلى الوطن ، فعاودته بعد أن كنت أبعد الخلق عن الرجوع إليه ،

وآثرت العزلة حرصاً على الخلوة وتصفية القلب للذكر ، وكانت حوادث الزمان ومهمات العيال وضرورات المعاش تغير في وجه المراد ، وتشوش صفوة الخلوة ، وكان لا يصفو الحال إلاّ في أوقات متفرقة ، لكني ـ مع ذلك ـ لا أقطع طمعي منها ، فتدفعني عنها العوائق وأعود إليها .

ودمت على ذلك مقدار عشر سنين ، وانكشف لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن احصاؤها واستقصاؤها .

والقدر الذي أذكره لينتفع به : اني علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالىٰ خاصة ، وأن سيرهم أحسن السير ، وطريقهم أصوب الطريق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق ، بل لو جمع عقل العقلاء ، وحكم الحكماء ، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ، ويبدلوه بما هو خير منه ، لم يجدوا إليه سبيلاً ، وأن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم ، مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به .

وبالجملة : فماذا يقول القائلون في طريقة طهارتها ، وهي أول شروطها : تطهير القلب بالكلية عما سوىٰ الله تعالىٰ .

ومفتاحها الجاري منها مجرى التحريم من الصلاة : استغراق القلب بالكلية بذكر الله ، وآخرها الفناء بالكلية في الله ، وهذا آخرها بالاضافة إلى ما يكاد يدخل تحت الاختيار والكسب من أوائلها ، وهي على التحقيق : أول الطريقة ، وما قبل ذلك كالدهليز للسالك إليه .

ومن أول الطريقة : تبتدىء المكاشفات والمشاهدات ، حتى أنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ، ويسمعون منهم أصواتاً ، ويقتبسون منهم فوائد ، ثم يترقىٰ الحال من مشاهدة الصور والأمثال ، إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق ، ولا يحاول معبر أن يعبر عنها إلاّ اشتمل لفظه على خطأ صريح ، لا يمكنه الاحتراز عنه .

وعلى الجملة : ينتهي الأمر إلى قرب : يكاد يتخيل منه طائفة : الحلول ، وطائفة الاتحاد ، وطائفة : الوصول ، وكل ذلك خطأ ، وقد بيّنا وجه الخطأ فيه في كتاب «المقصد الأسنىٰ» بل الذي لا بسته تلك الحالة ، لا ينبغي أن يزيد

على أن يقول :

وكان ما كان مما لست أذكره فظن خيراً، ولا تسأل عن الخبر» اهـ

ومن تطرق إليه الشك في قول الإمام الغزالي : فليتدبر قول المعصوم من الخطأ (صلوات الله وسلامه عليه): «يقول الله : من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدي وتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، فبي يسمع ، وبي يبصر ، وبي يبطش ، وإن سألني لأعطينه ، وإن استعاذ بي لأعيذنه ، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس المؤمن : يكره الموت ، وأنا أكره مساءته» رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ، ورواه أحمد ، والحكيم ، وأبو يعلى ، والطبراني ، وأبو نعيم ، وابن عساكر ، عن عائشة بألفاظ مختلفة ، وبزيادات ، منها : «وفؤاده الذي يعقل به» وفي رواية الطبراني في الكبير عن أبي أمامة : «ولسانه الذي ينطق به ، وقلبه الذي يعقل به» .

وفي رواية الطبراني في «الكبير» عن أبي أمامة «ولسانه الذي ينطق به ، وقلبه الذي يعقل به» .

ورواه أيضاً ابن السني عن ميمونة[1] بألفاظ مختلفة .

وقول الغزالي (رضي الله عنه) : «ينتهي الأمر إلى قرب يكاد يتخيل منه طائفة الحلول ، وطائفة الاتحاد ، وطائفة الوصول ، وكل ذلك خطأ» قاطع في العجز عن ادارك كنه ذات الإله جلّ وعلا ، وقد قال الصديق الأكبر (رضي الله عنه) : «غاية معرفته القصور عن وصفه» (ص ٤٣ زرقاني على المواهب ج ١) المعبر عنها : «العجز عن درك الإدراك أدراك»[2] .

أعني أن قول الإمام الغزالي قاطع عند كبراء الصوفية ، فلا التفات لمدع غير ذلك .

---

(١) أم المؤمنين (رضي الله عنها) .

(٢) مشهور أنه من كلام سيدنا أبي بكر (رضي الله عنه وأرضاه) .

قال الغزالي في «المضنون» الكبير : «وليس لله تعالىٰ مثل» ، كما قال : ﴿ليس كمثله شيء﴾ ولكن له مثال : وقول النبي (عليه الصلاة والسلام) : «إن الله تعالىٰ خلق آدم على صورته»[1] إشارة إلى هذا المثال ، فإنه لما كان تعالىٰ وتقدس موجوداً قائماً بنفسه ، حياً ، سميعاً ، بصيراً ، عالماً ، قادراً ، متكلماً ، فالإنسان كذلك ، ولو لم يكن الإنسان بهذه الأوصاف موصوفاً : لم يعرف الله تعالىٰ ، ولذلك قال النبي (عليه الصلاة والسلام) : «من عرف نفسه فقد عرف ربه» . فإن كل ما لم يجد الإنسان له من نفسه مثالاً : يعسر عليه التصديق به ، والإقرار .

وقد أوحىٰ الله تعالىٰ إلى بعض الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) : «أيها الإنسان أعرف نفسك تعرف ربك» ولذلك لا يحيط علم الإنسان بأخص وصف لله تعالىٰ ، لأنه ليس في المبدعات والمخلوقات مثال وأنموذج من ذلك الوصف الخاص ، وكذلك الاسم للوصف الخاص الذي له تعالىٰ ، لأن الإنسان إنما يسمي الشيء بعد معرفته إياه ، وإذا لم يكن للإنسان إليه طريق وأنموذج ، فلا علم له به ، ولا اسم له عنده ، ولا علامة ، فكيف يعرفه ، فلذلك «لا يعرف الله إلاّ الله» أعني أخص وصفه وكنه معرفته» .

فمن قال : إن الإنسان : حي ، عالم ، قادر ، سميع ، بصير ، متكلم ، والله تعالىٰ كذلك ، لا يكون هذا القائل مشبهاً ، فإن التشبيه إثبات المشاركة في الوصف الأخص .

ومن قال : السواد عرض موجود ، وهو لون ، والبياض عرض موجود ، وهو

---

(١) حديث صحيح ، وسببه أن النبي (ص) رأى رجلاً من اصحابه يضرب عبداً له على وجهه فنهاه عن ذلك ، وقال له : «ان الله خلق آدم على صورته» أي على صورة هذا الرجل .

فمن ضرب رجلاً على وجهه فكانما ضرب أباه آدم (ع) .

وإنما استعمله الصوفية (رضي الله عنهم) ، على اعتبار إطلاق الضمير ، لا على أن لله صورة خلق آدم عليها ، إذ لو أنهم قصدوا ذلك ، لما ساعدتهم لغة العرب التي نطق بها رسول الله (ص) ، ومعاذ الله أن يقصدوا شيئاً يمس العقيدة من قريب أو بعيد .

ويكون عندهم : «على صورته» التي أراد ، والهيئة التي قدرها سبحانه وتعالىٰ له .

وفي القاموس : الصورة : النوع ، والصفة . وقد كتب الشيخ محمد الشنقيطي (رحمه الله) فصلاً طيباً عن الصورة في كتابه «أستحالة المعية بالذات» . فطالعه تجد فيه متعة أي متعة .

لون ، لا يكون مشبهاً السواد بالبياض[1]» الخ انتهى المراد .

أما قوله في وصف الله تعالى قائماً بنفسه : فهو حق .

أما قوله : «إن الإنسان كذلك» ، فيقصد به الظاهر ، لا الحقيقة ، وإلاّ غاير قوله تعالى : ﴿أفمن هو قائم على كل نفس﴾ والمشهور من شرحه لاسمه القيوم ، قال : «لأن قوامه بذاته ، وقوام كل شيء به ، وليس ذلك إلاّ الله تعالى ، ومدخل العبد في هذا الوصف بقدر استغنائه عما سوى الله تعالى» اهـ .

وفي قول المصطفى (ص) في السجود ، من حديث فضل نصف شعبان الذي رواه البيهقي : «لا أحصي ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك» إقرار من البشرية ، حتى في أكمل صورها وأفضلها : بالعجز دون إيفاء الحق تعالى ما يستوجبه لعظمته جل جلاله .

وروى الحديث أيضاً مسلم .

وروى ابن النجار عن حضرة نبينا (ص) : «تفكروا في خلق الله ولا تفكروا

---

(١) لولا أمانة العلم لحذفنا هذا الكلام . لأن كتاب «المضمون به على غير أهله» موضوع برمته على الغزالي : لم يقل منه حرفاً واحداً . وحاشاه أن يقول .

قال في «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» جـ٢ ص ١٤٥١ ما نصه : «قال ابن السبكي في طبقاته : ذكر ابن الصلاح أنه منسوب إلى أبي حامد الغزالي» .

وقال : معاذ الله أن يكون له «وبين سبب كونه مختلفاً وموضوعاً عليه» .

والأمر كما قال :

وقد اشتمل على التصريح بقدم العالم ، ونفي علم القديم بالجزئيات ، ونفي الصفات ، وكل واحد من هذه يكفر الغزالي قائله هو وأهل السنة أجمعون ، فكيف يتصور أنه يقول ذلك» اهـ بحروفه .

من هذا نعرف أن هناك مؤامرات على علماء المسلمين ، تولى كبرها عصابات من لا خلاق لهم قديماً وحديثاً من اليهود والنصارى ومن تتلمذ لهم من المسلمين .

وقوله : «من عرف نفسه فقد عرف ربه» قال صاحب المقاصد الحسنة ص ٤١٩ : قال أبو المظفر السمعاني في الكلام على التحسين والتقبيح لعقلي من القواطع : أنه لا يعرف مرفوعاً ، وإنما يحكي عن يحيى بن معاذ الرازي ، يعني من قوله : وكذا قال النووي : أنه ليس بثابت .

وقيل : في تأويله : «من عرف نفسه بالحدوث : عرف ربه بالقدم ، ومن عرف نفسه بالفناء ، عرف ربه بالبقاء» . اهـ بحروفه .

في الله»(1) .

وروى عنه (ص) أبو الشيخ ابن حبان : «تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله»(2) .

ويكفي لبيان المقصود قوله تعالى : ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾(3) ، وقوله : ﴿ولا يحيطون به علماً﴾(4) جل جلاله : من قول الإمام الغزالي السابق «في المنقذ» : «درجات يضيق عنها نطاق النطق ، ولا يحاول معبر أن يعبر عنها إلاّ اشتمل لفظه على خطأ صريح ، لا يمكنه الاحتراز عنه» ظاهر أن تعبيرات الصوفية عن التوحيد ، يضيق عنها نطاق النطق ، فتراهم يعبرون بالإشارات ، ومن صرح منهم وقع في الخطأ الصريح ، حتى اتهموا كثيراً منهم بالكفر والضلال ، وهم برءاء، وقرأت كلمة منسوبة لأبي حيان الجياني صاحب البحر المحيط كما قال : «أن أصعب العلوم على الإطلاق علم التوحيد ، لأن الخطأ فيه يجر للشقاء الأبدي» .

وهذا الشيخ ابن تيمية ـ وكان من المتشددين على الصوفية المتهمين لكثير منهم ـ يقول في كتابه : «التحفة العراقية في الأعمال القلبية» وقد يقع لبعض المعطلين «هكذا الأصل» من أهل الفناء في المحبة : أنه يغيب بمحبوبة عن نفسه وحبه ، ويغيب بمذكوره عن ذكره ، وبمعروفه عن معرفته ، وبموجوده عن وجوده ، حتى لا يشهد إلاّ بمحبوبه ، فيظن ـ في زوال تمييزه ونقص عقله وسكره ـ أنه هو محبوبه ، كما قيل : أن محبوباً وقع في اليم فألقي المحب نفسه خلفه ، فقال : أنا وقعت ، فأنت ما الذي أوقعك ؟ فقال : غبت بك عني فظننت انك أنا ، فلا ريب أن هذا خطأ وضلال . لكن إن كان هذا لقوة المحبة والذكر ، من غير أن يحصل عن سبب محظور زال به عقله كان معذوراً في زواله ، فلا يكون مؤاخذاً بما يصدر منه من الكلام في هذه الحال التي زال فيها عقله بغير سبب محظور . كما قيل في عقلاء المجانين : انهم قوم آتاهم الله عقولاً

---

(1) ورواه كذلك أبو نعيم في الحلية .

(2) والطبراني في الأوسط ، وابن عدي ، والبيهقي في شعب الإيمان .

وروى أبو الشيخ قوله (ص) : «لا تفكروا في خلق الله ، ولا تفكروا في الله فتهلكوا» .

(3) سورة الزمر ؛ الآية : ٦٧ .

(4) سورة طه ؛ الآية : ١١٠ .

وأحوالاً ، فسلب عقولهم وأبقىٰ أحوالهم ، وأسقط ما فرض بما سلب ، وأما إذا كان السبب الذي به زوال العقل محظوراً ، لم يكن السكران معذوراً ، وإن كان لا يحكم بكفره ـ في أصح القولين ـ كما لا يقع طلاقه في أصح القولين ، وبكل حال ، فالفناء الذي يفضي بصاحبه إلى مثل هذا : حال ناقص ، وإن كان صاحبه غي مكلّف ، ولهذا لم يرد مثل هذا على الصحابة الذين هم أفضل الأمة ولا على نبينا محمد (ص) ، وإن كان لهؤلاء في صعق موسىٰ نوع تعلق ، وإنما حدث زوال العقل عند الواردات الإلهية ، على بعض التابعين ومن بعدهم . . . الخ» ا هـ المراد .

فيقر ابن تيمية بمعذرة أهل المحبة والذكر والفناء ، ويعترف بزوال العقل عند الواردات الإلهية ، وإن هذا جرى لبعض التابعين .

والمقصد من كل هذا : أن أهل المحبة المستهلكين لا يؤاخذون بظاهر كلامهم ، لأنه لا يعرف ـ على التحقيق ـ حقيقة حالهم إلّا الله تعالىٰ .

وقد اتهم الكثير منهم بالكفر والإلحاد والزندقة ، والقول بالحلول والاتحاد ، والقول بالوحدة المطلقة على وجهها الخطأ ، وهو أن وجود المخلوق عين وجود الخالق ، تعالىٰ الله سبحانه عن ذلك علواً كبيراً .

وقد سألت العارف الرباني ذا الكرامات الظاهرة السيد «محمد عبد الوهاب» الحصافي : شيخ السادة الحصافية الشاذلية (رضي الله عنه) ، المتوفى في ١٤ ربيع أول سنة ١٣٦٨ ـ ١٤ يناير سنة ١٩٤٩ عن القائلين بأن الله هو كل شيء ، أو هو هذا العالم ، أي بالوحدة فأجابني (رحمه الله تعالىٰ) بما معناه ، بـ «ان من كان مغلوباً فهو معذور .

أما من أخذ يقيم البراهين والأدلة على قوله الفاسد ، فهو كافر والعياذ بالله تعالىٰ» .

وفي رسالة المرحوم والده الولي السيد «حسنين» الحصافي الشاذلي (رضي الله عنه) (نور البصائر والأبصار) : «والشريعة هي الأحكام الشرعية ، والطريقة : هي العمل بتلك الأحكام ، مع قصد وجه الله . والحقيقة : هي ذكر القلب وحده الله ذاتاً وصفات وأفعالاً . فالشريعة بلا حقيقة عاطلة ، والطريقة والحقيقة بلا شريعة باطلتان ، فمن علم الأحكام الشرعية ولم يعمل بها فهو فاسق ، وكل

عمل غير موافق للشريعة فهو باطل ، ومن لم يستغرق في الله بكمال فنائه عن الأشياء ، حتى شعوره بنفسه ، واستباح محرماً من المحرمات ، أو اعتقد سقوط فرض من الفرائض ، مع التكليف ، فهو كافر ، وبهذا تعلم بطلان ما أدعاه بعض الهالكين كقوله : «إن الله هو هذا العالم» وقوله : «إن هذا الزمن زمن فترة» وقوله : «إن الطريقة غير العمل بالشريعة» مع استباحة المحرمات التي حرمها الله ورسوله ، وأجمع الأمة على تحريمها ، وتركه الفرائض : يتوصل بذلك إلى جمع الدنيا من الهالكين مثله ، وإلى أعلام الناس بأنه بلغ درجة مقام الوحدة ، فإن قوله : «إن الله هو هذا العالم» يفيد نفي المخلوقات ، مع أن الله أثبتها ، ويفيد أيضاً أن الله جسم وروح ، وجرم بلا روح ، وانه متعدد ، وانه يأكل ويشرب ويبول ويتغوط ويوصف بالصغر والكبر ، والسواد والبياض ، والتناكح والتوالد ، والنمو وعدمه ، والموت والحياة ، والقدرة والعجز ، والعلم والجهل ، وأنه قديم وحادث ، وأنه معذب ومنعم ، وأنه ظرف ومظروف .

ولا يخفي بطلان ذلك على كل ذي عقل» ا هـ المراد .

وهو : كلام واضح ، ليس بعده بيان ، فهؤلاء الضالون يكذبون القرآن العظيم ، ويصفون الله تعالىٰ بما يخالف قوله جلّ وعلا : ﴿ليس كمثله شيء ـ لا تدركه الأبصار﴾ وبما وصف به نفسه ، ووصفه به رسوله (ص) بوحيه ، وفيما سننقله عن السيد الرفاعي في ذمهم والتحذير منهم مقنع : «جاء في الكوكب البدري على استغفار سيدي مصطفىٰ البكري ـ للشيخ محمد حلاوة المرصفي : «المقالات الواردة من القطب الرفاعي» في ذم الشطح ، منها قوله : «الغلو والشطح وما شاكلهما زندقة بشكل تصوف ، والحق أبلج من هذا وهذا ، والله يتولىٰ الصالحين» . وقوله : «ما رأينا من عواقب أهل الغلو والشطح ، الا أنهم ضلوا وأضلوا» .

وما رأينا من عواقب المتشرع إلاّ السلامة .

وقوله : «لفظتان هما ثلمتان في الدين : القول بالوحدة ، والشطح المجاوز حد النعمة» .

وقوله : «إيّاك والشطح ، فإن حجاب الذنوب أولىٰ من الحجاب بالكفر» .

وقوله : «إن الناس اليوم تعلقوا بأهل الحرف والكيمياء والوحدة والشطح

والدعاوي العريضة ، فإيّاك ومقارنة مثل هؤلاء الناس ، فانهم يقودون من تبعهم إلى النار ، وغضب الجبار ، إذا رأيتهم حسبتهم سادات الدعاة إلى الله تعالى ، حسبك الله ، إذا رأيت أحداً منهم فقل : ـ يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ـ إن جاهلاً يأمرك بذكر الله وملازمته ، والكتاب والسنة : خير لك من هذه الطائفة كلها» انتهى .

وقول سيدي محيي الدين (رضي الله عنه) : «احذر أن تكون كما قال العاشق (أنا من أهوى ومن أهوى أنا) لأنك أنت أنت ، وهو هو .

هل من قال ذلك القول يقدر على أن يجعل الذات واحدة ، لا والله لا يقدر : لأنه جهل ، والجهل لا يستطاع ، فلا تغالط نفسك» اهـ المراد .

نقلنا كل هذه النصوص : ليتضح منها أن أهل التصوف أهل جد وحق ، وأن القليل منهم شاذ لعقبة من العقبات .

فمن أي الفريقين صاحب هذا الكتاب : «أعني الشيخ محيي الدين بن العربي ؟» .

من أكابر الطاعنين عليه : الشيخ أحمد بن عبد الحليم بن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ هـ (رحمه الله) ، قال في كتابه النبوات ص ٨١ : «والذين سلكوا خلف أبي حامد أو ضاهوه في السلوك كابن سبعين وابن عربي : صرحوا بحقيقة ما وصلوا إليه ، وهو أن الوجود واحد ، وعلموا أن أبا حامد لا يوافقهم على هذا ، فاستضعفوه ، ونسبوه إلى أنه مقيد بالشرع والعقل ، وأبو حامد بين علماء المسلمين وبين علماء الفلاسفة : علماء المسلمين يذمونه على ما شارك فيه الفلاسفة مما يخالف دين الإسلام ، والفلاسفة يعيبونه على ما بقي معه من الإسلام ، وعلى كونه لم ينسلخ منه بالكلية إلى قول الفلاسفة ، ولهذا كان الحفيد ابن رشد ينشد فيه :

يوماً يمان إذا ما جئت ذا يمن　　　وإن لقيت معدياً فعدناني

وابن عربي له أربع عقائد :

الأولى : عقيدة أبي المعالي وأتباعه، مجردة عن حجة .

والثانية : تلك العقيدة مبرهنة بحججها الكلامية .

والثالثة : عقيدة الفلاسفة : ابن سينا وأمثاله ، الذين يفرقون بين الواجب والممكن .

والرابعة : التحقيق الذي وصل إليه ، وهو أن الوجود واحد .

ثم قال : «فإنه لما انتشر الكلام في مذهب أهل الوحدة ، وكنت لما دخلت إلى مصر بسببهم ، ثم صرت في الإسكندرية ، جاءني من فضلائهم من يعرف حقيقة أمرهم ، وقال : إن كنت تشرح لنا كلام هؤلاء ، وتبيّن مقصودهم ثم تبطله : وإلاَّ فنحن لا نقبل منك كما لا نقبل من غيرك ، فإن هؤلاء لا يفهمون كلامهم .

فقلت : نعم أنا أشرح لك ما شئت من كلامهم مثل كتاب «اليد والإحاطة» لابن سبعين ، وغير ذلك .

فقالَ لي : لا ، ولكن «لوح الأصالة» فإن هذا يعرفون ، وهو في رؤوسهم .

فقلت له : هاته ، فلما أحضره شرحته له شرحاً بيناً ، حتى تبيّن له حقيقة الأمر ، وأن هؤلاء ينتهي أمرهم إلى الوجود المطلق .

فقال : هذا حق ، وذكر لي أنه تناظر اثنان ، متفلسف سبعيني ، ومتكلم على مذهب ابن التومرت .

فقال : ذاك : نحن شيخنا يقول بالوجود المطلق .

فقال الآخر : ونحن كذلك . . .» الخ .

وجاء في نفس الكتاب ص ١٧٢ : «والمقصود هنا الكلام على النبوة ، فهؤلاء المتفلسفة ما قدروا النبوة حق قدرها ، وقد ضل بهم طوائف من المتصوفة المدعين للتحقيق وغيرهم .

وابن عربي وابن سبعين ضلوا بهم ، فانهم اعتقدوا مذهبهم ، وتصوفوا عليه ، ولهذا يقول ابن عربي :

«إن الأولياء أفضل من الأنبياء ، وأن الأنبياء وسائر الأولياء يأخذون عن خاتم الأنبياء علم التوحيد ، وانه هو يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحي به إلى الرسول» .

فـإن الملك عنده هـو : الخيـال الـذي في النفس ، وهـو جبـريـل عنـدهم ، وذلـك الخيال تـابع للعقـل ، فالنبي عنـدهم يأخـذ عن هذا الخيـال مـا يسمعـه من الصـوت في نفسـه ، ولهـذا يقـولـون : أن مـوسىٰ كلم من سمـاء عقله ، والصـوت الـذي سمعـه كـان في نفســه ، لا في الخـارج ، ويـدعىٰ احـدهم أنـه أفضـــل من مـوسىٰ ، وكما ادّعىٰ ابن عـربي : انه أفضـل من محمد ، فـإنـه يـأخـذ عن العقـل الذي يأخـذ منه الخيـال ، والخيال عنـده هو الملك الـذي يأخـذ منه النبي (ص) ، فلهذا قال : فإنه يأخذ من المعدن الذي يأخذ منـه الملك الذي يـوحىٰ به إلى النبي (ص) .

فإن عرفت هذا فقد حصل لك العلم النافع .

ويبسط الكلام على هؤلاء له مواضع أُخره[1] . انتهىٰ المراد .

ولعـل الشيخ ابن تيميـة أطلع على الكتب المـدسـوسـة على الشيـخ محيي الـدين بن عربي كمـا سيأتي بيـانه ، وإن كـان هـو نفسـه لم يسلم من المـطاعن من علماء عصره .

جـاء في الجزء الأول من رحلة ابن بـطوطة ص ٥٧ المـطبعـة االأزهرية طبعة أولىٰ : «حكاية : وكان بدمشق من كبـار الفقهاء الحنـابلة تقي الدين بن تيميـة كبير الشام ، يتكلم في الفنون ، إلاّ أن في عقله شيئاً ، وكان أهـل دمشق يعظمـونه أشـد التعظيم ، ويعظهـم على المنبـر ، وتكلم مرة بـأمر أنكـره الفقهاء ورفعـوه إلى الملك النـاصر ، فـأمر بـاشخاصـه إلى القاهـرة ، وجمـع القضـاة والفقهـاء بمجلس الملك الناصر ، وتكلم شـرف الدين الـزواوي المالكي ، وقـال : ان هـذا الـرجل قـال كذا وكـذا ، وعدد مـا أنكر على ابن تيميـة ، وأحضر العقـود بذلـك ووضعهـا بين يـدي قاضي القضاة .

وقـال قاضي القضـاة لابن تيمية : مـا تقـول ؟ قـال : لا إلـه إلاّ الله ، فـأعـاد عليه ، فأجاب بمثل قوله ، فـأمر الملك النـاصر بسجنـه ، فـسجن أعوامـاً ، وصنف في السجن كتـابـاً في تفسيـر القـرآن سمـاه بـ «البحـر المحيط» في نحـــو أربعين مجلداً ، ثم أن أُمـه تعرضت للملك النـاصر وشكت إليـه ، فأمـر بإطـلاقه ، إلى أن وقع منه مثل ذلك ثانية ، وكنت إذ ذاك بـدمشق ، فحضرتـه يوم الجمعـة ، وهو يعظ

(١) إلى هنا انتهىٰ كلام ابن تيمية (رحمه الله تعالىٰ) .

الناس على منبر الجامع ، ويذكرهم ، فكان من جملة كلامه أن قال : «إن الله ينزل إلى سماء الدنيا كنزولي هذا ، ونزل درجة من درج المنبر» فعارضه فقيه مالكي يعرف بابن الزهراء ، وأنكر ما تكلّم به ، فقامت العامة إلى هذا الفقيه وضربوه بالأيدي والنعال ضرباً كثيراً ، حتى سقطت عمامته ، وظهر على رأسه شاشية حرير ، فأنكروا عليه لباسها ، واحتملوه إلى دار عز الدين بن مسلم قاضي الحنابلة ، فأمر بسجنه وعزره بعد ذلك ، فأنكر فقهاء المالكية والشافعية ما كان من تعزيره ، ورفعوا الأمر إلى ملك الأمراء سيف الدين تنكيز ، وكان من خيار الأمراء وصلحائهم ، فكتب إلى الملك الناصر بذلك ، وكتب عقداً شرعياً على ابن تيمية بأمور منكرة ، منها : أن المطلق بالثلاث في كلمة واحدة لا تلزمه إلاّ طلقة واحدة ، ومنها المسافر الذي ينوي بسفره زيارة القبر الشريف ـ زاده الله طيباً ـ لا يقصر الصلاة ، وسوىٰ ذلك مما يشبهه وبعث العقد إلى الملك الناصر ، فأمر بسجن ابن تيمية بالقلعة ، فسجن بها حتى مات في السجن» . ا هـ المراد .

ونبدأ الآن إن شاء الله تعالىٰ في ذكر أقوال من دافع عن الشيخ محيي الدين بن العربي وقد نقتصر على ما قاله الشيخ عبد الوهاب الشعراني (رحمه الله تعالىٰ) في كتابه «لطائف المنن ج ٢ ص ٢٦» : ومما من الله تبارك وتعالىٰ به على عدم تمكيني أحداً من أصحابي من التصدر للرد على أحد من الفرق الإسلامية ، إلاّ أن خالف كلامه صريح السنة المحمدية ، أو قواعد علمائها فمثل هذا يجب الرد عليه وذلك دليل على عدم كماله ، لأنه لو كان كاملاً لغار على ظاهر الشريعة ، لكون الشارع (ص) قد أمنه على شريعته من بعده .

وقد نقل الشيخ محيي الدين بن العربي في الفتوحات المكية إجماع المحققين على أن : «من شرط الكامل أن لا يكون عنده شطح عن ظاهر الشريعة أبداً ، بل يرىٰ أن من الواجب عليه أن يحق الحق ويبطل الباطل ، ويعمل على الخروج من خلاف العلماء ما أمكن» ا هـ .

وهذا لفظه بحروفه ، ومن تأمله وفهمه عرف أن جميع المواضع التي فيها شطح في كتبه مدسوسة عليه ، لا سيما كتاب الفتوحات المكية ، فإنه وضعه حال كماله بيقين ، وقد فرغ منه قبل موته بنحو ثلاث سنين ، وبقرينة ما قاله في الفتوحات المكية في مواضع كثيرة من : «أن الشطح كله رعونة نفس ، لا يصدر قط من محقق» وبقرينة قوله أيضاً في مواضع : «من أراد أن لا يضل فلا يرم

ميزان الشريعة من يده طرفة عين ، بل يستصحبها ليلاً ونهاراً ، عند كل قول وفعل واعتقاد» ا هـ .

وفي ص ٢٧ : «وقد أجمع أهل الحق على وجوب تأويل أحاديث الصفات كحديث «ينزل ربنا إلى سماء الدنيا»[1] وخالف في ذلك الكرامية : المجسمة ، والحشوية ، المشبهة ، فمنعوا تأويلها ، وحملوها على الوجه المستحيل في حقه تعالىٰ من التشبيه والتكييف ، حتى أن بعضهم كان على المنبر فنزل درجاً منه ، وقال للناس : «ينزل ربكم عن كرسيه الى سماء الدنيا كنزولي عن منبري هذا» ، وهذا جهل ليس فوقه جهل ، وكل هؤلاء محجوجون بالكتاب والسنة ودلائل العقول ، وإذا تعددت وجوه الحمل لآيات الصفات وجب الأخذ بالوجه الراجح عند الشيخ أبي الحسن الأشعري ، لقوله تعالى : ﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾[2] ولقوله تعالىٰ : ﴿فبشر عباد* الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه﴾[3] وذهب سفيان الثوري والأوزاعي وغيرهما إلى أنه يطرح التشبيه والتكييف ، ويقف عند تعين وجه من وجوه التأويل» .

وفي ص ٢٨ : «قال الإمام العلامة عمر بن محمد الأشبيلي الأشعري (رضي الله عنه) في كتابه المسمىٰ بـ «لحن العوام» : «وليحذر من العمل بمواضع من كتاب الأحياء للغزالي» ، ومن كتاب «النفخ والتسوية» له ، وغير ذلك من كتب الفقه ، فإنها إما مدسوسة عليه ، أو وضعها أوائل أمره ، ثم رجع عنها ، كما ذكره في كتابه «المنقذ من الضلال» ، إلى أن قال ص ٢٩ : «وليحذر أيضاً من مطالعة كتب الشيخ محيي الدين بن العربي (رضي الله عنه) ، لعلو مراقيها ، ولما فيها من الكلام المدسوس على الشيخ ، لا سيما : «الفصوص» و«الفتوحات المكية» فقد أخبرني الشيخ أبو طاهر ، عن شيخه ، عن الشيخ بدر الدين بن جماعة ، أنه كان يقول : جميع ما في كتب الشيخ محيي الدين من الأمور المخالفة لكلام العلماء ، فهو مدسوس عليه . وكذلك كان يقول الشيخ مجد الدين صاحب «القاموس» في اللغة .

---

(١) «حكى ابن فورك أن بعض المشايخ ضبط الحديث بضم أوله على حذف المفعول» كذا في «استحالة المعية بالذات» للعلامة الشنقيطي (رحمه الله) ص ٣٠٢ . وفيه بحث كبير فاقرأه لتستفيد .

(٢) سورة الحشر ؛ الآية : ٢ .

(٣) سورة الزمر ؛ الآيتان : ١٧ ـ ١٨ .

قلت : «وقد اختصرت الفتوحات المكية ، وحذفت منها كل ما يخالف ظاهر الشريعة ، فلما أخبرت بأنهم دسوا في كتب الشيخ ما يوهم الحلول والاتحاد ، ورد على الشيخ شمس الدين المدني بنسخة الفتوحات التي قابلها على خط الشيخ بقونية ، فلم أجد فيها شيئاً من ذلك الذي حذفته ، ففرحت بذلك غاية الفرح ، فالحمد لله على ذلك» اهـ .

وجاء في كتاب «اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر» للشيخ عبد الوهاب الشعراني ، وبهامشه كتابه «الكبريت الأحمر» في بيان علوم الشيخ الأكبر ، طبعة «شقرون» الأولى : الفصل الأول ج ١ ص ٦ وما بعدها في بيان نبذة من أحوال الشيخ محيي الدين (رضي الله عنه) : «كان (رضي الله عنه) أولاً من الموقعين عند بعض ملوك المغرب ، ثم انه طرقه طارق من الله عزّ وجلّ ، فخرج في البراري على وجهه ، إلى أن نزل في قبر ، فمكث فيه مدة ، ثم خرج من القبر يتكلم بهذه العلوم التي نقلت عنه ، ولم يزل سائحاً في الأرض ، يقيم في كل بلد بحسب الأذن ، ثم يرحل منها ، ويخلف ما ألفه من الكتب فيها ، وكان آخر إقامته بالشام ، وبها مات سنة ثمان وثلاثين وستمائة (رضي الله عنه) .

وكان (رضي الله عنه) متقيداً بالكتاب والسنة ، ويقول : «كل من رمى ميزان الشريعة من يده لحظة هلك» ، وسيأتي قوله : «وكل ما خطر ببالك فالله تعالىٰ بخلاف ذلك» ، وهذا اعتقاد الجماعة إلى قيام الساعة ، وجميع ما لم يفهمه الناس من كلامه ، إنما هو لعلو مراقيه ، وجميع ما عارض من كلامه ظاهر الشريعة وما عليه الجمهور ، فهو مدسوس عليه كما أخبرني بذلك سيدي الشيخ أبو الطاهر المغربي ، نزيل مكة المشرفة ، ثم أخرج لي نسخة الفتوحات التي قابلها على نسخة الشيخ التي بخطه في مدينة قونية ، فلم أر فيهاشيئاً مما كنت توقفت فيه وحذفته حين اختصرت الفتوحات .

وقد دس الزنادقة تحت وسادة الإمام أحمد بن حنبل في مرض موته عقائد زائغة ، ولولا أن أصحابه يعلمون منه صحة الاعتقاد لافتتنوا بما وجدوه تحت وسادته .

ثم قال : وكذلك دسوا على الإمام الغزالي عدة مسائل في كتاب الإحياء ، وظفر القاضي عياض بنسخة من تلك النسخ فأمر بإحراقها ، وكذلك دسوا علي أنا في كتابي المسمىٰ بـ «البحر المورود» جملة من العقائد الزائغة ، وأشاعوا تلك

العقائد في مصر ومكة نحو ثلاث سنين ، وأنا بريء منها ، كما بينت ذلك في خطبة الكتاب لما غيرتها ، وكان العلماء كتبوا عليه وأجازوه ، فما سكنت الفتنة حتى أرسلت إليهم النسخة التي عليها خطوطهم .

إذا علمت ذلك فيحتمل : أن الحسدة دسوا على الشيخ في كتبه كما دسوا في كتبي أنا ، فإنه أمر قد شاهدته عن أهل عصري في حقي ، الله يغفر لنا ولهم آمين .

وأما من أثنى على الشيخ من العلماء ومدح مؤلفاته ، فقد كان الشيخ مجد الدين الفيروز آبادي صاحب كتاب «القاموس» في اللغة يقول : «لم يبلغنا عن أحد من القوم أنه بلغ في علم الشريعة والحقيقة ما بلغ الشيخ محيي الدين أبداً» وكان يعتقده غاية الاعتقاد ، وينكر على من أنكر ، ويقول : «لم يزل الناس منكبين على الاعتقاد في الشيخ ، وعلى كتابة مؤلفاته بحل الذهب في حياته وبعد وفاته ، إلى أن أراد الله ما أراد من انتصاب شخص من اليمن اسمه «جمال الدين بن الخياط» فكتب مسائل في درج ، وأرسلها إلى العلماء ببلاد الإسلام ، وقال : هذه عقائد الشيخ محيي الدين بن العربي ، وذكر فيها عقائد زائغة ، ومسائل خارقة لاجماع المسلمين ، فكتب العلماء على ذلك بحسب السؤال ، وشنعوا على من يعتقد ذلك من غير تثبت ، والشيخ عن ذلك كله بمعزل . . .» .

قال : «والذي أقوله وأتحققه وأدين الله تعالى به ، ان الشيخ محيي الدين كان شيخ الطريقة حالاً وعلماً ، وإمام التحقيق حقيقة ورسماً ، ومحيي علوم العارفين فعلاً واسماً ، إذا تغلغل فكر المرء في طرف من مجده غرقت فيه خواطره ، لأنه بحر لا تكدره الدلاء ، وسحاب لا يتقاصى عنه الأنواء ، كانت دعواته تخرق السبع الطباق ، وتغترف بركاته فتملأ الآفاق ، وهو يقيناً فوق ما وصفته ، وناطق بما كتبته ، وغالب ظني انني ما أنصفته :

وما علي إذا ما قلت معتقدي	دع الجهول يظن الجهل عدوانا
والله ، والله ، والله العظيم ومن	أقامه حجة للدين برهانا
إن الذي قلت بعض من مناقبه	ما زدت ، إلاّ لعلي زدت نقصانا

قال : «وأما كتبه (رضي الله عنه) ، فهي البحار الزواخر ، التي ما وضع الواضعون مثلها .

ومن خصائصها : ما واظب أحد على مطالعتها إلاّ وتصدر لحل المشكلات في الدين ، ومعضلات مسائله ، وهذا الشأن لا يوجد في كتب غيره أبداً» .

قال : «وأما قول بعض المنكرين : ان كتب الشيخ لا تحل قراءتها ولا اقراؤها ، فكفر» .

قال : «وقد قدّموا لي مرة سؤالاً صورته : ما تقول في الكتب المنسوبة إلى الشيخ محيي الدين بن العربي ، كالفصوص والفتوحات ، هل يحل قراءتها واقراؤها ؟ وهل هي من الكتب المسموعة المقروءة أم لا ؟» .

فأجبت : «نعم هي من الكتب المسموعة المقروءة ، وقد قرأها عليه الحافظ البرزلي وغيره ، ورأيت اجازته بخط الشيخ محيي الدين على حواشي الفتوحات المكية بمدينة قونية ، وكتابة طبقة بعد طبقة من العلماء والمحدِّثين ، فمطالعة كتب الشيخ : قربة إلى الله تعالىٰ ، ومن قال غير ذلك فهو جاهل ، زائغ عن طريق الحق ، فلقد كان الشيخ والله في زمنه صاحب الولاية العظمىٰ ، والصديقية الكبرىٰ - فيما نعتقد وندين الله تعالىٰ به - خلاف ما عليه جماعة ممن مقتهم الله تعالىٰ ، فحرموا فوائده ، ووقعوا في عرضه بهتاناً وزوراً ، وحاشا جنابه الكريم أن يخالف كلام نبيه» .

وقد رأيت اجازة بخط الشيخ : كتبها للملك الظاهر بيبرس صاحب حلب «في نفح الطيب» : «المجاز هو المظفر غازي بن الملك العادل المتوفىٰ سنة ٦٤٥» ورأيت في آخرها وأجزت له أيضاً أن يروي عني جميع مؤلفاتي ، ومن جملتها : كذا وكذا ، حتى عد نيفاً وأربعمائة مؤلف منها تفسيره الكبير في خمسة وتسعين مجلداً وصل فيه إلى قوله تعالى : ﴿**وعلمناه من لدنا علماً**﴾[1] فاصطفاه الله لحضرته .

ومنها : «تفسيره الصغير» في ثمانية أسفار على طريقة المحققين من المفسرين .

ومنها كتاب «الرياض الفردوسية في بيان الأحاديث القدسية ، فهل يحل لمسلم أن يقول : لا يجوز مطالعة كتب الشيخ محيي الدين مطلقاً ، ما ذاك إلاّ كفر(*) وتعصب وعناد» .

---

(١) سورة الكهف ؛ الآية : ٦٥ .

(*) أي ستر ، وليس المقصود : الكفر المعروف . راجع القاموس .

وممن أثنىٰ عليه أيضاً الشيخ كمال الدين الزملكاني (رحمه الله تعالىٰ) ، وكان من أجل علماء الشام ، وكذلك الشيخ قطب الدين الحموي .

وقيل له لما رجع من الشام إلى بلاده : كيف وجدت الشيخ محيي الدين ؟ .

فقال : «وجدته في العلم والزهد والمعارف بحراً زاخراً لا ساحل له» .

وممن أثنىٰ عليه الشيخ صلاح الدين الصفادي ، في «تاريخ علماء مصر» وقال : «من أراد أن ينظر إلى كلام أهل العلوم الدنية ، فلينظر في كتب الشيخ محيي الدين بن العربي (رحمه الله)» .

وسئل الحافظ أبو عبد الله الذهبي عن قول الشيخ محيي الدين في كتابه «الفصوص» : «انه ما صنعه إلّا بإذن من الحضرة النبوية» ، فقال الحافظ : «ما أظن أن مثل هذا الشيخ محيي الدين يكذب أصلاً» ، مع أن الحافظ الذهبي كان من أشد المنكرين على الشيخ وعلى طائفته الصوفية هو وابن تيمية .

وممن أثنىٰ عليه أيضاً الشيخ قطب الدين الشيرازي ، وكان يقول : «ان الشيخ محيي الدين كان كاملاً في العلوم الشرعية والحقيقية ، ولا يقدح فيه إلّا من لم يفهم ولم يؤمن به» .

وكان الشيخ مؤيد الدين الخجندي يقول : «ما سمعنا بأحد من أهل الطريق أطلع على ما أطلع عليه الشيخ محيي الدين» وكذلك كان يقول الشيخ شهاب الدين السهروردي ، والشيخ كمال الدين الكاشي ، وقال فيه : «انه الكامل المحقق صاحب الكمالات والكرامات» مع أن هؤلاء الأشياخ كانوا من أشد الناس إنكاراً على من يخالف ظاهر الشريعة .

وممن أثنىٰ عليه الشيخ فخر الدين الرازي ، وقال : «كان الشيخ محيي الدين ولياً عظيماً» .

وسئل الإمام محيي الدين النووي عن الشيخ محيي الدين بن العربي ، قال : «تلك أمة قد خلت ، ولكن الذي عندنا أنه يحرم علىٰ كل عاقل أن يسيء الظن بأحد من أولياء الله عزّ وجلّ ، ويجب عليه أن يؤول أقوالهم وأفعالهم ما دام لم يلحق بدرجتهم ، ولا يعجز عن ذلك إلّا قليل التوفيق» .

قـال في شرح المهـذب «ثم إذا أول فليؤول كـلامهم إلى سبعين وجهـاً ، ولا نقبل عنه تأويلا واحداً : ما ذاك إلّا تعنت» ا هـ .

قلت : وقـد صنف الشيخ سـراج الدين المخـزومي كتابـاً في الرد عن الشيـخ محيي الـدين ، وقال : «كيف يسوغ لأحد من أمثـالنا الإنكـار على ما لم يفهمـه من كلامه في الفتوحات وغيرها ؟ وقد وقف على ما فيهـا نحو من ألف عـالم ، وتلقوهـا بالقبول» ، قال وقد شرح كتابه الفصوص جمـاعة من الأعـلام : «الشافعية وغيرهـم ، منهم الشيخ بدر الدين بن جماعة» ا هـ المراد باختصار كلام كثير .

وجـاء في الفصـل الثـاني من الكتـاب ج ١ في تـأويـل كلمـات أضيفت إلى الشيـخ محيي الدين ص ١٣ : «ومن ذلـك دعوىٰ المنكـر أن الشيخ يقـول : «الولي أفضل من الرسول» .

والجواب : أن الشيخ لم يقل ذلك .

وإنما قال : «اختلف الناس في رسالـة النبي وولايته ، أيهمـا أفضل ؟ والـذي أقول به : أن ولايتـه أفضل : لشـرف المتعلق ودوامها في الـدنيا والآخـرة ، بخلاف الرسالة ، فانها تتعلق بالخلق وتنقضي بإنقضاء التكليف» انتهىٰ .

ووافقه على ذلك الشيخ عزّ الدين بن عبد السـلام ، فالكـلام في رسالـة النبي مع ولايته ، لا في رسـالته ونبـوته مـع ولاية غيـره ، فافهم . . . ا هـ المـراد ، وجاء في ج ٢ ص ٧٢ في المبحث الثـاني والأربعين ، في بيـان أن الـولايـة وإن جلت مـرتبتها وعـظمت فهي آخـذة عن النبـوة شهـوداً ووجـوداً . «واعلم أن من جملة مـا أشيع عن الشيخ محيي الـدين ، أنه يقـول : «مقام الـولاية أتم من مقـام الرسـالة ، على الإطلاق» والشيخ (رضي الله عنه) بريء من ذلك .

وقال : أي الشيخ محيي الدين في شرحـه «لترجمـان الأشواق» إعلم أن مقـام النبي ممنوع لنا دخوله ، وغاية معرفتنا بـه من طريق الارث : «النـظر إليه ، كمـا ينظر من هـو في أسفل الجنـة إلى من هو في أعلىٰ عليين ، وكمـا ينظر أهـل الأرض إلى كواكب السماء» .

وقـال في الباب الثـاني والستين وأربعمائـة من الفتوحـات : «إعلم أنه لا ذوق لنـا في مقام النبـوة لنتكلم عليه ، وإنمـا نتكلم على ذلك بقـدر ما أعـطينا من مقـام

الارث فقط ، لأنه لا يصح لأحد منا دخول مقام النبوة ، وإنما نراه كالنجوم على الماء» .

وقال في الباب السابع والستين وثلثمائة : «لقد أعطيت من مقام العبودية التي أختص بها رسول الله (ص) مقدار الشعرة الواحدة من جلد الثور ، فما استطعت القيام به» اهـ .

فهذه نصوص الشيخ محيي الدين (رحمه الله) : تكذب من افترى عليه انه يقول الولاية أعظم من النبوة ، والله تعالى أعلم اهـ المراد .

فالظاهر ان الكلام الذي حكاه الشيخ ابن تيمية عنه سابقاً مدسوس على الشيخ في نسخة فاسدة ، فلذلك ساء اعتقاد ابن تيمية فيه ، والله أعلم .

تنبيهات على بعض متشابهات

الأول : في معنى «وحدة الوجود» الحقيقي[1] :

جَاء في شرح الحبر لكامل الشيخ أحمد الدردير على منظومته «الخريدة» في التوحيد : ـ السابعة ، وهي أعظم النفوس قدراً ، وأكملها فخراً ، ومع ذلك لا ينقطع ترقيها أبداً لأن الكامل يقبل الكمال ، فلم تزل تترقىٰ حتى تشهد الحق تعالىٰ قبل الأكوان ، ومشاهدته تعالىٰ قبل كل شيء هو المسمىٰ عندهم بالمعانية ، وهذا هو عين اليقين ، بعد أن حازت علم اليقين ، الذي هو معرفته تعالىٰ بالبراهين ، ثم حق اليقين ، وهو مشاهدته تعالىٰ في كل شيء من غير حلول ولا اتحاد ، ولا إتصال ولا إنفصال ، كالمرآة ترىٰ فيها وجهك من غير حلول الوجه فيها ، ولا اتحاد ، وهذا مشهد ذوقي ، لا يدركه إلاّ أهله ، وصاحب هذا المقام لا يفتر عن العبادة ، لأنها صارت طبعه ، اما باللسان وإما بالجنان ، وإما بالأركان ، فحركاته حسنات ، وأنفاسه عبادات . . . » الخ .

تنبيه ـ أعزك الله ـ إلى قوله لا يفتر عن العبادة ، لتعرف المحق من المبطل .

وفي كتاب «الحديقة الندية شرح الطريقة المحمدية» للشيخ عبد الغني النابلسي ص ١٣ ج ١ : «وذكر الشيخ عبد الرؤوف المناوي في شرح الجامع

---

(١) الضمير راجع إلى لفظ «معنىً» .

الصغير في قوله (عليه الصلاة) : قال موسىٰ : «يا رب كيف شكرك آدم . . .» الحديث .

قال :«ومن نظر بعين التوحيد المحض عرف أنه الشاكر وأنه المشكور ، وأنه المحب وأنه المحبوب ، وهذا نظر من عرف أنه ليس في الوجوه غيره ، وان ﴿كل شيء هالك إلّا وجهه﴾ لأن الغير ، هو : الذي يتصور أن يكون له بنفسه قوام ، وهذا محال أن يوجد ، إذ الوجود المحقق هو هذا القائم بنفسه ، وما ليس له بنفسه قوام ، فليس له بنفسه وجود ، بل هو قائم بغيره ، فهو موجود بغيره ، فإن اعتبر من حيث ذاته : لم يكن له وجود البتة ، وإنما الموجود هو القائم بنفسه ، ومن كان مع قيامه بنفسه : يقوم بوجوده وجود غيره ، فهو قيوم ، ولا يتصور أن يكون القيوم إلّا واحداً ، فليس في الوجود غي الحي القيوم الواحد ، فالكل منه مصدره ، وإليه مرجعه ، ويعبر الصوفية عن هذا بـ «فناء النفس» أي فني عن نفسه ، وعن غير الله ، فلا يرىٰ إلّا الله ، فمن لا يفهم هذا ينكر عليهم ويسخرمنهم فيسخرون منه هذا كله كلام الغزالي (رحمه الله تعالىٰ)» . ا هـ .

وهذا المعنى هو المراد بـ «وحدة الوجود» و بـ «الوحدة المطلقة» وغير ذلك من العبارات التي يذكر العارفون من أهل التحقيق ، وليس مرادهم المعنىٰ الفاسد الذي عند أهل الزندقة والإلحاد ، وقد أنكرته علماء الكلام ، وقد كشفت عن ذلك في رسالة سميتها «إيضاح المقصود من معنىٰ وحدة الوجود . . .

وفي ص ١١٨ منه : قال سيد الطائفة الصوفية الجنيد : «الطريق كلها مسدودة إلّا على من أقتفىٰ أثر الرسول (ص)» .

إلى أن قال : «فإن جميع العقائد الباطلة واقعة من معتقديها على مظاهر تجليات الحق تعالىٰ من حيث حضرات أفعاله سبحانه ، وكفر أهلها باعتبار دعواهم أن بعض مظاهر تجليات تلك الحضرات الأفعالية هي ذات الحق سبحانه ، على ما هي عليه في الغيب المطلق ، وهو خطأ محض ، وجهل وكفر .

وهذا المعنىٰ هو الذي سدت به تلك الطرق كلها ، وما انفتحت إلّا للمحمديين من ورثة الأولياء ، فأخذوا منها الألذ والأطيب ، وهو : شهود تجليات حضرات الأفعال الإلهية ، وتركوا ما أنسدت به هذه الطرق من دعاوي ما فوق ذلك من تجليات الذات الإلهية المطلقة ، مع بقاء شهود آثار أفعالها الكونية . . .» الخ ا هـ .

قال الغزالي في مشكاة الأنوار : «والوجود بنفسه ايضاً ينقسم الى : ماله الوجود من ذاته ، وإلى ماله الوجود من غيره .

وماله الوجود من غيره ، فوجوده مستعار ، لا قوام له بنفسه ، بل إذا اعتبرت ذاته من حيث ذاته ، فهو عدم محض ، وإنما وجوده من حيث نسبته إلى غيره ، وليس ذلك بوجود حقيقي ، كما عرفت في مثال إستعارة الثوب والغنىٰ ، فالموجود الحق ، هو : الله تعالىٰ ، كما أن النور الحق هو : الله تعالىٰ» .

حقيقة الحقائق

من ههنا يترقى العارفون من حضيض المجاز إلى ذروة الحقيقة ، واستكملوا معراجهم ، فرأوا بالمشاهدة العيانية : إن ليس في الوجود إلّا الله ، وإن ﴿كل شيء هالك إلّا وجهه﴾ لا أنه يصير هالكاً في وقت من الأوقات ، بل هو هالك أزلاً وأبداً : إذ لا يتصور إلّا كذلك ، فإن كل شيء سواه إذا اعتبرت ذاته من حيث ذاته ، فهو عدم محض ، وإذا اعتبر من الوجه الذي يسري إليه الوجود من الأول الحق ، رؤى موجوداً لا في ذاته ، بل من الوجه الذي يلي موجده ، فيكون الموجود وجه الله فقط :

ولكل شيء وجهان : «وجه الى نفسه ، ووجه إلى ربه ، فهو باعتبار وجه نفسه عدم ، وباعتبار وجه الله : وجود ، فإذن : لا موجود إلّا الله ووجهه ، فإذن كل شيء هالك إلّا وجهه ، أزلاً وأبداً ، ولم يفتقر هؤلاء إلى قيام القيامة ليستمعوا نداء الباري ﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾ بل هذا النداء لا يفارق سمعهم أبداً» .

ثم قال : «الله : أكبر من أن يدرك غيره كنه كبريائه : نبياً كان أو ملكاً ، بل لا يعرف كنه معرفته إلّا هو ، إذ كل معروف داخل تحت سلطان ، العارف واستيلائه ، وذلك ينافي الجلال والكبرياء» .

إشارة

العارفون بعد العروج إلى سماء الحقيقة : اتفقوا على أنهم لم يروا في

الوجود إلَّا الواحد الحق ، لكن : منهم من كان له هذه الحالة عرفاناً علمياً ، ومنهم من صار له ذوقاً وحالاً ، وانتفت عنهم الكثرة بالكلية ، واستغرقوا بالفرادنية المحضة ، واستهوت فيها عقولهم ، فصاروا كالمبهوتين فيه ، ولم يبق فيهم متسع لذكر غير الله ، ولا لذكر أنفسهم أيضاً ، فلم يبق عندهم إلَّا الله ، فسكروا سكراً وقع دونه سلطان عقولهم ، فقال بعضهم : «أنا الحق» وقال الآخر : «سبحاني ما أعظم شأني» وقال الآخر : «ما في الجبة إلَّا الله» .

وكلام العشاق في حال السكر : يطوي ولا يحكي .

فلما خف عنهم سكرهم ، وردوا إلى سلطان العقل ، الذي هو ميزان الله في أرضه ، عرفوا أن ذلك لم يكن حقيقة الاتحاد ، بل يشبه الإتحاد ، مثل قول العاشق في حال فرط العشق .

أنا من أهوى ومن أهوى أنا   نحن روحان حللنا بدنا[1]

فلا يبعد أن يفجأ الإنسان مرآة فينظر فيها ، ولم ير المرآة قط ، فيظن أن الصورة التي رآها في المرآة هي صورة المرآة متحدة بها .

ثم قال : وهذه الحالة إذا غلبت سميت بالإضافة إلى صاحب الحال «فناء» بل «فناء الفناء» لأنه فني عن نفسه ، وفني عن فنائه ، فإنه ليس يشعر بنفسه في تلك الحال ، ولا بعدم شعوره بنفسه ، ولو شعر بعدم شعوره بنفسه لكان قد شعر بنفسه .

وتسمى هذه الحال بالإضافة إلى المستغرق فيها بلسان المجاز «إتحاداً» وبلسان الحقيقة «توحيداً» . اهـ المراد .

ومن استبعد كلمة الغزالي هذه ، فليتدبر قوله (ص) : «أصدق كلمة قالها الشاعر ، كلمة لبيد : «ألا كل شيء ما خلا الله باطل» رواه البخاري ، ومسلم في الصحيح ، وغيرهما(*) .

وهذه مقامات من وصلها أفراد .

---

(١) سيشرحها الشيخ بعد قليل شرحاً طيباً .

(*) ورواه ابن ماجة .

واحب أن أسجل رأياً لي ، وهو : «أن من تجرد لمعرفة الحق والتقرب اليه ، ربما تجلى لـه حظه من خلافته ﴿اني جاعل في الأرض خليفة﴾ ﴿جعلكم خلائف الأرض﴾ فظن من لم يكمل : أنه وصل الغاية ، وربما ضل من لم يعرف قدر نفسه .

ومن ههنا ـ والله أعلم ـ ضلال القائلين بالإتحاد ، أو بالحلول ، ورحم الله من عرف قدر نفسه» .

الثاني : قوله ص ٥ : «ظهر بمعيته في باطن وترتيته ، فنشأت أعداد مصنوعاته . . .» الخ ما قال من كلمات الصوفية التي تحتاج لتوضيح بعض نصوصهم .

في اليواقيت : «المبحث العاشر» : قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي (رضي الله تعالىٰ عنه) : «قد محق الحق تعالىٰ جميع الأغيار ، بقوله : ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن﴾ .

فقيل له : فأين الخلق ؟ فقال : موجودون ، ولكن حكمهم مع الحق تعالىٰ كالأنابيب التي في كوة الشمس ، تراها صاعدة هابطة ، فإذا قبضت عليها لا تراها ، فهي موجودة في الشهود ، مفقودة في الوجود» ا هـ .

وفي المبحث السادس منه : قال الشيخ ، أي ـ محيي الدين بن العربي ـ في عقيدته الصغرى : «تعالىٰ الحق، تعالىٰ : أن تحله الحوادث أو يحلها» .

وقال في عقيدته الوسطىٰ : «أعلم أن الله تعالىٰ واحد بإجماع ، ومقام الواحد يتعالىٰ أن يحل فيه شيء ، أو يحل هو في شيء ، أو يتحد بشيء» .

وقال في الباب الثالث من الفتوحات : «أعلم أنه ليس في أحد من الله شيء ، ولا يجوز ذلك عليه بوجه من الوجوه» .

وقال في باب الأسرار : «لا يجوز لعارف أن يقول : أنا الله ، ولو بلغ أقصىٰ درجات القرب ، وحاشا العارف من هذا القول حاشاه ، إنما يقول أنا العبد الذليل في المسير والمقيل» .

فإن قيل : فما معنىٰ حديث «فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ورجله التي يمشي بها ، ويده التي يبطش بها» ، فإن

جماعة كثيرة فهموا منه وجود اتحاد الحق تعالىٰ بالعبد ، وحدوثه فيه ؟ .

فالجواب : أن معنى «كنت سمعه» الخ : «إن ذلك الكون الشهودي مرتب على ذلك الشرط ، الذي هو حصول المحبة ، فمن حيث الترتيب الشهودي : جاء الحدوث المشار إليه بقوله «كنت سمعه» لا من حيث التقرير الوجودي» قاله الأستاذ سيدي علي بن وفا (رحمه الله) .

وقال الشيخ محي الدين : «في الباب الثامن والستين» في الكلام على الأذان : «المراد بكنت سمعه وبصره» إلى آخره : انكشاف الأمر لمن تقرب إليه تعالىٰ بالنوافل ، لا أنه لم يكن الحق تعالىٰ سمعه قبل التقرب ثم كان الآن ، تعالىٰ الله عزَّ وجلَّ عن ذلك ، وعن العوارض الطارئة» .

قال : «وهذه من أعز لمسائل الإلهية» ا هـ .

وقال في باب الأسرار : «من قال بالحلول فهو معلوم ، فإن القول بالحلول مرض لا يزول ، ومن فصل بينك وبينه : فقد أثبت عينك وعينه ، ألا ترىٰ قوله : «كنت سمعه الذي يسمع به» فأثبتك بإعادة الضمير إليك ، ليدلك عليك ، وما قال بالإتحاد إلَّا أهل الإلحاد ، كما أن القائل بالحلول من أهل الجهل والفضول ، فإنه أثبت حالاً ومحلاً ، فمن فصل نفسه عن الحق فنعم ما فعل ، ومن وصل فكأنه شهد على نفسه بأنه كان مفصولاً حتى أتصل ، والشيء الواحد لا يصل نفسه ، وما ثم إلَّا ذاته ومصنوعاته» ا هـ .

وقال في باب الأسرار أيضاً : «الحادث لا يخلو عن الحوادث ، لو حل بالحادث القديم : لصح قول أهل التجسيم ، فالقديم لا يحل ولا يكون محلاً ، ومن ادّعىٰ الوصل ، فهو في عين الفصل» ا هـ .

وقال في هذا الباب أيضاً : «أنت أنت ، وهو هو ، فإيّاك أن تقول كما قال العاشق : «أنا أهوىٰ ومن أهوىٰ أنا» . فهل قدر هذا أن يرد العين واحدة ؟ لا ، والله ما استطاع ، فإنه جهل ، والجهل لا يتعقل حقاً ، ولا بد لكل أحد من غطاء ينكشف عند لقاء الله» .

وقال فيه أيضاً : «أعلم أن العاشق إذا قال «أنا من أهوىٰ ومن أهوىٰ أنا» فإن ذلك كلام بلسان العشق والمحبة ، لا بلسان العلم والتحقيق ، ولذلك يرجع أحدهم عن هذا القول إذا صحا من سكرته» ا هـ .

وقال في اليواقيت ، في المحبث الأول : وقال الشيخ أيضاً في الباب الحادي والثلاثين ومائة من الفتوحات المكية : «وإنما لم يكفر من قال ان الله تعالىٰ ثالث اثنين ، أو رابع ثلاثة ، لأنه[1] لم يجعله من جنس الممكنات ، بخلاف من قال : إن الله ثالث ثلاثة ، أو رابع أربعة ، أو خامس خمسة[2] ، ونحو ذلك ، فإنه يكفر ، فتأمل ، فإن الله تعالىٰ واحد أبداً لكل كثرة وجماعة ، ولا يدخل معها في الجنس ، لأنه إذا جعلناه رابع ثلاثة ، فهو واحد منفرد ، أو خامس أربعة ، فهو واحد منفرد ، وهكذا بالغ ما بلغ» .

قال : «وليس عندنا في العلم الإلهي أغمض من هذه المسئلة ، لأن الكثرة حاكمة في عين وجود الواحد بحكم المعية ، ولا وجود لها فيه ، إذ لا حلول ولا إتحاد» انتهىٰ .

وقال في الباب «التاسع والسبعين وثلاثمائة» من الفتوحات أيضاً في قوله تعالىٰ : ﴿ما يكون من نجوىٰ ثلاثة إلاّ هو رابعهم ولا خمسة إلاّ هو سادسهم﴾ الآية : «اعلم أن الله تعالىٰ مع الخلق أينما كانوا ، سواء كان عندهم شفعاً أو وتراً ، لكن لا يكون الله تعالىٰ واحداً من شفعيتهم ، ولا واحداً من وتريتهم ، إذ صفته التي ظهرت للمشاهد : لا يمكن أن تقف في المرتبة العددية التي وقف فيها الخلق أبداً ، فمتىٰ انتقلوا إلى المرتبة التي كان فيها صفة الحق تعالىٰ ، انتقلت صفة الحق تعالىٰ إلى المرتبة التي تليها قبل انتقالهم» قال : «وهذا تنزيه عظيم لا يصح للخلق فيه مشاركة مع الحق تعالىٰ أبداً» ا هـ المراد .

وإقرأ مضرب الأمثال بالواحد في العدد ، ليتبين بعض المراد ، وهذا بلا شك من المواضع التي يقع المعبر عنها في الخطأ ، كما قال الغزالي في كلمته ، فيظن به أو يعتقد على غير وجهه ﴿وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر﴾ .

ويحسن هنا ذكر كلمة المقري في نفح الطيب ج ١ ص ٥٧١ .

«ومن كلام ابن عربي :

يا من يراني ولا أراه كم ذا أراه ولا يراني

---

(١) قال الله تعالىٰ في سورة المجادلة ؛ الآية : ٧ ﴿ما يكون من نجوىٰ ثلاثة إلاّ هو رابعهم ولا خمسة إلاّ هو سادسهم﴾ .

(٢) لأنه جعله ، من جنسهم ، ولذلك ﴿كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة﴾ .

وقد سأله بعض اخوانه لما سمع هذا البيت ، كيف تقول : أنه لا يراك وأنت تعلم أنه يراك ، فقال :

يا من يراني مجرماً ولا أراه آخذا
كم ذا أراه منعماً ولا يراني لائذا

قال المقري : «من هذا وشبهه ، نعلم أن كلام الشيخ (رحمه الله) مؤول ، وأنه لا يقصد ظاهره ، وإنما له محامل تليق به» .

ثم قال : «فأحسن به الظن ولا تنتقد ، بل اعتقد ، وللناس في هذا المعنىٰ كلام كثير ، والتسليم أسلم ، والله سبحانه وتعالىٰ بكلام أوليائه أعلم» .

الثالث : قال الإمام الغزالي في «فصل التفرقة» : «الكفر هو تكذيب الرسول (عليه الصلاة والسلام) في شيء مما جاء به ، والإيمان تصديقه في جميع ما جاء به» .

إلى أن قال : «اعلم أن الذي ذكرناه مع ظهوره تحته غور ، بل تحته كل الغور ، لأن كل فرقة تكفر مخالفها وتنسبه إلى تكذيب الرسول (عليه الصلاة والسلام) .

فالحنبلي[١] يكفر الأشعري زاعماً أنه كذب الرسول في إثبات الفوق لله تعالىٰ ، وفي الإستواء على العرش .

والأشعري يكفره : زاعماً أنه مشبه وكذب الرسول في أنه ﴿ليس كمثله شيء﴾ .

والأشعري يكفر المعتزلي زاعماً أنه كذب الرسول في جواز رؤية الله تعالىٰ : وفي إثبات العلم والقدرة والصفات له .

والمعتزلي يكفر الأشعري : زاعماً ان إثبات الصفات تكفير للقدماء وتكذيب للرسول في التوحيد .

ولا ينجيك من هذه الورطة إلاَّ أن تعرف حد التكذيب والتصديق وحقيقتهما فيه ، فيكشف لك غلو هذه الفرق ، وأسرافها في تكفير بعضها بعضاً» .

---

(١) هذا من بعض الحنابلة ، لا كلهم .

فأقول : «التصديق إنما يتطرق إلى الخبر ، بل إلى المخبر ، وحقيقته : الاعتراف بوجود ما أخبر الرسول (ص) عن وجوده ، إلاَّ أن للوجود خمس مراتب ، ولأجل الغفلة عنها نسبت كل فرقة مخالفها إلى التكذيب .

فإن الوجود : ذاتي ، وحسي ، وخيالي ، وعقلي ، وشبهي فمن اعترف بوجود ما أخبر الرسول (عليه الصلاة والسلام) عن وجوده بوجه من هذه الوجوه ، فليس بمكذب على الإطلاق» اهـ .

الرابع : وقال الشيخ محيي الدين في الجزء الخامس من كتابه «مراتب الحروف» : «فاعلم أيها الحميم ، والصفي الكريم : ان المحقق العارف بما تقتضيه الحضرة الإلهية من التقديس والتنزيه ، ونفي المماثلة والتشبيه ، لا يحجبه ما نطقت به الآيات والأخبار في حق الحق تعالى من أدوات التقييد بالزمان والجهة والمكان ، كقوله (عليه الصلاة والسلام) للسوداء «أين الله ؟» فأشارت إلى السماء ، فأثبت لها الإيمان» .

فسأل (ص) بالظرفية عما لا يجوز عليه المكان في النظر العقلي ، والرسول أعلم بالله ، والله أعلم بنفسه .

وقال في الظاهر **﴿أأمنتم من في السماء﴾** بالفاء **﴿وكان الله بكل شيء عليماً﴾ ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ ﴿وهو معكم أين ما كنتم﴾ ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلاَّ هو رابعهم﴾** ، «وكان الله ولا شيء معه ، وهو الآن على ما عليه كان» و «يفرح بتوبة عبده» ، و «يعجب من الشاب الذي ليس له صبوة» وما أشبه ذلك من الأدوات اللفظية ، وقد تقرر بالبرهان العقلي : خلقه الزمان والأمكنة والجهات والألفاظ والحروف والأدوات والمتكلم بها والمخاطبين من المحدثات ، كل ذلك خلق الله تعالى ، فيعرف المحقق أنها مصروفة إلى غير الوجه الذي يعطيه التشبيه والتمثيل ، وأن الحقيقة لا تقبل ذلك أصلاً .

ولكن تتفاضل العلماء السالمة عقائدهم من التجسيم ، فإن المشبهة والمجسمة ـ أرشدهم الله ـ قد يطلق عليهم علماء من حيث علمهم بأمور غير هذه .

فتفاضل العلماء في هذا : الصرف عن هذا الوجه الذي لا يليق بالحق تعالى .

وطائفة لم تشبه ولم تجسم ، وصرفت ذلك الذي ورد في كلام الله ورسوله إليه تعالىٰ ، ولم تدخل لها قدماً في باب التأويل ، وقنعت بمجرد الإيمان بما يعلمه الله في هذه الألفاظ والحروف من غير تأويل ولا صرف إلى وجه من وجوه التنزيه ، بل قالت : لا أدري جملة واحدة ، ولكني أحيل(*) بقاءه على وجه التشبيه ، لقوله تعالىٰ : ﴿ليس كمثله شيء﴾ لا لما يعطيه النظر العقلي .

وعلى هذا العقد : فضلاء المحدثين من أهل الظاهر ، السالمة عقائدهم من التشبيه والتعطيل .

وطائفة أُخرىٰ من المنزهة : عدلت بهذه الكلمات على الوجه الذي لا يليق بالله تعالىٰ في النظر العقلي إلى وجه ما من وجوه التنزيه ، على التعيين مما يجوز في النظر العقلي أن يتصف به الحق تعالىٰ ، بل هو متصف به ولا بد .

وما يبقىٰ النظر إلاَّ أن في هذا(**) النظر ، هو : المراد بها ذلك الوجه أم لا ؟ ولا يقدح ذلك التأويل في الألوهية ، وربما عدلوا بها إلى وجهين ، وثلاثة ، وأكثر ، على حسب ما تعطيه الكلمة في موضع اللسان ، ولكن من الوجوه المنزهة لا غير ، فإذا لم يعرفوا لذلك الخبر أو الآية عند التأويل في اللسان إلاَّ وجهاً واحداً ، قصروا الخبر على ذلك الوجه التنزيه ، وقالوا «هذا ليس إلاَّ : في علمنا وفهمنا» ، وإذا وجدوا له مصرفين فصاعداً : صرفوا الخبر أو الآية إلى تلك المصارف .

وقالت طائفة من هؤلاء : يحتمل أن يريد كذا ، ويحتمل أن يريد كذا ، ويقدر وجوه التنزيه .

ثم تقول ـ والله أعلم ـ أي ذلك أراده ؟ .

وطائفة أُخرىٰ تقول عندها في وجه ما من تلك الوجوه النزيهة بقرينة ما قطعت لتلك القرينة بذلك الوجه على الخبر وقصرته عليه ، ولم تعرض على باقي الوجوه في ذلك الخبر ، وإن كانت كلها تقتضي التنزيه ، وتنفي التعطيل والتشبيه . .

(*) يعني أقول : انه محال .

(**) في المطبوعة : «هذه» .

وطـائفة : من المنـزهة ـ وهي العـالية ، وهم أصحـابنا ـ : فـرغوا قلوبهم من الفكر والنظر وأخلوها ، إذا كان المتقدمون من الطوائف المتقدمة المتأولـة أهل فكـر ونظر وبحث .

قـامت هذه الـطائفة المبـاركة المـوفقة ـ والكـل مـوفقـون بحمـد الله تعـالىٰ ـ وقالت : حصل في نفوسنا تعـظيم الحق جلّ جـلاله ، بحيث لا نقـدر أن نصل إلى معرفة مـا جاءنـا من عنده بـدقيق فكر ونـظر ، فأشبهت في هـذا العقد : المحـدثين السالمة عقائدهم ، حيث لم ينظروا ولا أولوا ، ولا صرفوا ، بل قالـوا : ما فهمنـا ، فقال أصحابنا بقولهم ، ثم انتقلوا عن مـرتبة هؤلاء بـأن قالـوا : لنا أن نسلك طـريقاً أخرى في فهم هذه الكلمات ، وذلك بأن نفرغ قلوبنـا من النظر الفكـري ، ونجلس مع الحق تعالىٰ بـالذكـر على بساط الأدب والمـراقبة والحضـور ، والتهيؤ لقبول مـا يـرد علينـا منـه تعـالىٰ ، حتى يكـون الحق تعـالىٰ يتـولىٰ تعليمنـا على الكشف والتحقيق ، لمـا سمعته يقـول : ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾ ويقـول : ﴿إن تتقوا الله يجعـل لكم فرقـاناً﴾ ﴿وقل رب زدني علماً﴾ ﴿وعلمنـاه من لـدنـا علمـاً﴾ فعنـدمـا تـوجهت قلوبهم وهمتهم إلى الله تعالىٰ ، ولجـأت إليه ، وألقت عنهـا مـا استمسـك بـه الغير ، من دعـوىٰ البحث والنظر ، ونتـائج العقـول ، كـانت عقـولهم سليمـة ، وقلوبهم مـطهرة فـارغة(*) ، فعنـدمـا كـان منهم هـذا الاستعـداد ، تجلىٰ لهم الحق عياناً ، فأطلعتهم تلك المشاهدة على معاني هـذه الأخبار والكلمـات دفعة واحـدة ، وهـذا ضرب من ضـروب المكـاشفـة ، فـانهم إذا عـاينـوا بعيـون القلب من نـزهـه العلمـاء المتقـدم ذكـرهم بـالإدراك الفكـري ، لم يصح لهم عنـد أهـل الكشف والمعـاينـة أن يجهلوا خبراً من هـذه الأخبـار التي تـوهم ، ولا يبقـوا ذلـك الخبـر منسحبـاً على ما فيـه من الاحتمالات النـزيهة من غير تعيين ، بل يعـرفـون الكلمـة والمعنىٰ النـزيه ، الـذي سيقت له ، فيقصـروها على مـا أريدت لـه ، وإن جـاء في خبـر آخر ذلـك اللفظ عينه ، فله وجـه آخر من تلك الـوجوه المقـدسة معين : عنـد أهل المشاهدة .

هذا حال طائفة منا .

طائفة أُخـرىٰ ـ منا أيضـاً ـ ليس لهم هذا التجلي ، ولكن لهم الإلقـاء والإلهام والخـطاب والكتابـة ، وهم معصومـون فيما يلقى إليهم بعـلامة عنـدهم ، لا يعرفهـا

(*) من الذي ذكره كله .

سواهم ، متحيرون بما خوطبوا به . وبما ألهموا به ، وبما ألقي إليهم أو كتب .

فقد تقرر عند جميع المحققين الذين سلموا الخبر لقائله ، ولم ينظروا ، ولا شبهوا ، ولا عطلوا ، والمحققين الذين بحثوا واجتهدوا على طبقاتهم أيضاً ، والمحققين الذين خوطبوا وألهموا : أن الحق تعالىٰ لا تدخل عليه تلك الأدوات المقيدة بالتحديد والتشبيه ، على حد ما تفعله في المحدثات ، ولكن تدخل عليه بما فيها من معنىٰ التنزيه والتقديس .

وبقي التجسيم والتشبيه على طبقات العلماء والمحققين ، في ذلك لما فيه ، وتقتضيه ذاته من التنزيه ونفي التعطيل والتشبيه .

وإذا تقرر هذا ، فقد تبيّن أنها أدوات التوصيل إلى افهام المخاطبين ، وكل عالم على حسب فهمه فيها وقوة تقريره وبصيرته .

فعقيدة التكليف هينة الخطب ، نظر العالم عليها(*) ولو بقيت الشبهة مع ما فطرت عليه ، ما كفرت ولا جسمت ، وإن كان ما أرادوا التجسيم ، وإنما قصدوا إثبات الوجود ، لكن لقصور افهامهم ما ثبت لهم إلاّ بهذا التحيل ، فلهم النجاة .

وإذ قد ثبت هذا عند المحققين - مع تفاضل رتبهم في درج التحقيق - فلنقل : أن الحقائق أعطت - لمن وقف عليها - أن لا يتقيد وجود الحق مع وجود العالم بقبلية ولا معية ، ولا بعدية زمانية ، فإن التقدم الزماني والمكاني في حق الله تعالىٰ ترمي به الحقائق في وجه القائل به على التحديد .

إن قال به من باب التوصل ، كما قال الرسول ونطق به الكتاب ، إذ ليس كل أحد يقوى على كشف هذه الحقائق ، فلم يبق لنا إلاّ أن نقول : إلاّ أن الحق موجود بذاته لذاته ، مطلق الوجود ، غير مقيد بغيره ، ولا معلول عن شيء ، ولا علة لشيء ، بل هو خالق المعلولات والعلل ، والملك القدوس الذي لم يزل ، وان العالم موجود بالله تعالىٰ ، لا بنفسه ولا لنفسه ، مقيد الوجود بوجود الحق في ذاته ، فلا يصح وجود العالم البتة إلاّ بوجود الحق ، وإذا انتفى الزمان عن وجود الحق ، وعن وجود مبدأ العالم ، فقد وجد العالم في غير زمان ، فلا نقول من جهة ما هو الأمر عليه : إن الله موجود قبل العالم ، وإذ قد ثبت ان القبل من صيغ الزمان ، ولا زمان ، ولا ان العالم موجود بعد وجود الحق ، فإن الحق هو الذي

(*) يعني : هي محط نظره .

أوجده ، وهو فاعله ومخترعه ، ولم يكن شيئاً .

ولكن كما قلنا «الحق موجود بذاته ، والعالم موجود به» .

فإن سأل ذو وهم : «متى كان وجود العالم ، من وجود الحق ؟ قلنا : متى سؤال زماني ، والزمان من عالم النسب ، وهو مخلوق لله تعالىٰ ، لأن عالم النسب له خلق التقدير ، لا خلق الإيجاد ، فهذا سؤال باطل ، فانظر كيف تسأل .

فإيّاك أن يحجبك أدوات التوصيل عن تحقيق هذه المعاني في نفسك وتحصيلها ، فلم يبق إلاّ وجود صرف خالص ، لا عن عدم ، وهو وجود الحق تعالىٰ» ، و : «وجود عن عدم ، وهو غير وجود الموجود لنفسه» وهو وجود العالم ، ولا بينية بين الموجودين ، ولا إمداد إلى التوهم المقدر الذي يحيله[1] العلم ، ولا يبقىٰ منه شيئاً ، ولكن وجود مطلق ومقيد ، وجود منفعل : «هكذا أعطت الحقائق ، والسلام» اهـ المراد ، نقلناه بأكمله ، لأنه - فيما نعلم - غير مطبوع ، وقد تعمدنا الإطالة في إيراد النصوص ، وقصر التعليق عليها ، لأنها واضحة في نفسها ، واختصارها يخل بها ، والمقصود : تبيين مرامهم وتحسين الظن بهم .

وفي كلمة الغزالي الأخيرة : (إن للوجود خمس مراتب ، من اعترف بوجه من الوجوه الخمسة فليس بمكذب) .

وكلمة ابن عربي بعد ذكر الطوائف ، قال : «وكلهم موفقون بحمد الله» تبيين سعة أفقهم (رحمهم الله تعالىٰ) .

بقي أن نذكر كلمة الشيخ محي الدين في كتابه «مراتب الحروف» عن الحديث ، حتى لا يشتبه أحد في مقصده .

قال : «والله سبحانه لم يزل في أزله بذاته وصفاته وأسمائه ، لم تتجدد عليه حال ، ولا يثبت له وصف - من خلق العالم[2] - لم يكن قبل ذلك عليه ، بل هو الآن على ما عليه كان قبل وجود الكون ، كما وصفه (ص) حين قال : «كان الله

---

(١) يعني يقول العلم : انه مستحيل ، والله تعالىٰ أعلم .

(٢) هكذا هي والمقصود أنه تعالىٰ : لا تتجدد عليه الصفات بتجدد الأحوال في المخلوقين .

ولا شيء معه» وزيد في قوله[1] : «وهو الآن على ما عليه كان» فاندرج في الحديث ما لم يقله (ص) ، ومقصودهم : «أن الصفة التي وجبت له قبل وجود العالم» هو عليها والعالم موجود ، اهـ المراد .

فإن البعض جعل الجملة التي زيدت في الحديث لتبيين المعنى ، زادها زنادقة[*] .

الخامس : ويحسن هنا ذكر مسألة الزمان والمكان ، فإننا اختصرنا الكلام عنها في حديث «النزول كل ليلة إلى سماء الدنيا» هامش ص ٧٦ والتعليق عليه ، وهامش ص ٨١[*] وما بعدها ، فإن من البديهيات في علم الفلك أن الوقت يحدث ويتغير بحركة الأرض حول نفسها ، قال تعالى : **﴿يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل﴾ ﴿جعل الليل والنهار خلفة﴾** .

والليل بطرفيه : يشمل نصف الكرة الأرضية سرمداً ، وكذلك النهار إلى يوم القيامة ، وبدوران الأرض حول نفسها ، وبرهانه المشهور من القرآن **﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب﴾**[2] و **﴿يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً﴾**[3] ، يحدث تخالف الليل والنهار وتعاقبهما ، فثلث الليل لا يكون في كل الأقطار في وقت واحد ، اللّهم إلاّ في المواضع التي على خط الزوال الواحد، فإن وقتها يكون واحداً ، وهي قليلة بالنسبة لحجم الكرة الأرضية ، وذلك لأنه ينتقل من بلد لبلد بدوران الأرض حول نفسها ، فلا تخلو ساعة من الأربع والعشرين ساعة من أنها توصف بأنها ثلث الليل في بقعة ما من الأرض (دع عنك الدائرتين القطبيتين ، وفيهما يمكث النهار ستة أشهر تقريباً ، وكذلك الليل ، فهل لهما نزول آخر ؟) فثلث الليل : لا ينقضي أبداً ، بل هو سرمدي ليوم القيامة ، لا ينقضي من مكان إلاّ ليحل في مكان ، وكذلك كل ساعة من ساعات الليل والنهار ، فإذا أخذنا بظاهر الحديث «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء

---

(١) يعني في قول المصطفى (ص) ، وهو ما يعبر عنه المحدثون بـ «المدرج» لتفسير الحديث وإيضاحه .

(*) هذا في الطبعة الأولى ، عند قول الشيخ محي الدين (رحمه الله تعالى) : «تبصرة» إذا سمعت بنزول ربنا كل ليلة الحديث.

(٢) سورة النمل ؛ الآية : ٨٨ .

(٣) سورة الأعراف ؛ الآية : ٥٤ .

الدنيا حين يبقىٰ ثلث الليل الآخر» وقيدنا الله بالزمان ، لاستمر الوقت الذي يوصف فيه سبحانه بالنزول ، ولم يبق ثمة وقت يوصف فيه بالصعود ، كنص الحديث هامش ص ٨٢(*) .

«فإذا طلع الفجر صعد إلى العرش» أو «ثم يعلو إلى السماء العليا» وبالعكس ، فلذلك تحتم التأويل ، لأنه سبحانه لا ينقسم ، ولو كنا أخذنا بالظاهر كنا كالقائلين بأنه «هو العالم» من حيث لا نشعر ، وكما قال العيني في شرحه لهذا الحديث «ليس في هذا الباب وأمثاله إلاّ التسليم والتفويض إلى ما أراد الله من ذلك ، فإن الأخذ بظاهره يؤدّي إلى التجسيم ، وتأويله يؤدّي إلى التعطيل ، والسلامة في السكوت والتفويض» .

وأظنه بالغ في أن التأويل يؤدّي للتعطيل ، إذ أن الشيخ الشعراني في لطائف المنن ج ٢ ص ٢٧ وص ٤١ من هذه المقدمة نقل إجماع أهل الحق على وجوب تأويل أحاديث الصفات ، كحديث النزول هذا ، والحقيقة ان الله تعالىٰ لا يجري عليه زمان ولا يتقيد بمكان ، كيف وهو خالقهما جلّ جلاله ، وما الزمان إلاّ حركة المادة بكل صورها وأعراضها ، ولو كانت تفكراً يجريه العقل ، فما هو إلاّ حروف أو معان تتتالى وتتداعىٰ ، فإذا وقفت المادة عن الحركة : انقطع الزمان واندثر .

أما زمان لا يتناهى فهذا حكم ذهني خيالي ، لا وجود له في الخارج .

قال ابن رشد في «فصل المقال» «الزمان عندهم - أي المتكلمين - شيء مقارن للحركات والأجسام» اهـ المراد .

أما المكان فهو وجود المادة ، فإذا أندثرت ، فلا مكان .

قال الغزالي في «معراج السالكين» : قد تبرهن في العلم الطبيعي : «انه لا يجوز أن يكون عالم خارج الكرة التاسعة ، وأن لا خلاء البتة» .

وستأتي كلمة ابن رشد في الجهة .

وقال الشيخ محي الدين في كلمته السابقة في مراتب الحروف : «قد تقرر بالبرهان العقلي خلقة الأمكنة والأزمنة والجهات» .

(*) من الطبعة السابقة .

وقال غير ذلك : أنظرها .

وقال الإمام أبو المعين النسفي في «بحر الكلام» في تقرير عقيدته في الله تعالىٰ : «لم يزل كائناً قبل أن يخلق المكان ، وقبل أن يخلق الوقت والزمان ، ثم انه خلق الوقت والعرش واستوىٰ على العرش ، وهو مستغن عن العرش ، وليس العرش له بمستقر ، ولا بمكان ، بل هو ممسك العرش والمكان ، وهو أعظم من أن يسعه المكان ، وهو فوق كل مكان . . .» الخ .

وروي عن سيدنا الإمام علي (كرم الله وجهه) أنه سئل : «أين كان ربنا قبل أن خلق العرش ؟ فقال (رضي الله عنه) : أين السائل عن المكان ؟ . : كان الله ولا مكان ولا زمان ، وهو الآن كما كان» ا هـ .

ونقل عنه في بعض خطبه في وصف الله تعالىٰ : «ما أختلف عليه دهر فيختلف منه الحال ، ولا كان في مكان فيجوز عليه الإنتقال» والنصوص كثيرة ، وكتب الكلام مشحونة بتنزيهه تعالىٰ عن الزمان والمكان ، ويكفي التمعن في اسمه تعالىٰ : الأول ، والآخر ، والمبديء والخالق .

ومما يبرهن ذلك من الكتاب ، فضلاً عن الأسماء الحسنىٰ قوله تعالىٰ : **﴿الله خالق كل شيء﴾**[1] **﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾**[2] **﴿وما أمرنا إلاّ واحدة كلمح بالبصر﴾**[3]**﴿أو لا يذكر الإنسان انا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً﴾**[4] وغير ذلك من الآيات الكريمة .

وفي لفظ حديث ابن عمر : رأيت رسول الله (ص) على المنبر وهو يقول : «يأخذ الجبار سمواته وأرضه ، وقبض بيده وجعل يقبضها ويبسطها ، ويقول : أنا الرحمن ، أنا الملك ، أنا السلام ، أنا المؤمن ، أنا المهيمن ، أنا العزيز ، أنا الجبار ، أنا المتكبر ، أنا الذي بدأت الدنيا ولم تكن شيئاً ، أنا الذي أعدتها أين المتكبرون ؟ أين الجبارون ؟» .

والحديث مروى في الصحيح ، والمسانيد وغيرهما بألفاظ يصدق بعضها بعضاً .

---

(١) سورة الزمر ؛ الآية : ٦٢ .

(٢ ، ٣) سورة القمر ؛ الآيات : ٤٩ ، ٥٠ .

(٤) سورة مريم ؛ الآية : ٦٧ .

وثبت في صحيح البخاري ، عن عمران بن حصين ، عن النبي (ص) أنه قال : «كان الله ولم يكن شيء غيره ، وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء ، وخلق السموات والأرض» .

وفي رواية له : «كان الله ولم يكن شيء قبله ، وكان عرشه على الماء ، ثم خلق السموات والأرض ، وكتب في الذكر كل شيء» .

وفي رواية لغيره صحيحة : «كان الله ولم يكن شيء معه ، وكان عرشه على الماء ، ثم كتب في الذكر كل شيء» .

ولرب قائل يقول فما بال قوله تعالىٰ : **﴿إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوىٰ على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾**[1]، وقوله: **﴿يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون﴾**[2] .

وفي صحيح مسلم ، عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي (ص) أنه قال : «ان الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء» .

وقوله (ص) في خطبة الوداع «إن الزمان استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض» وغير ذلك .

فنقول : ان الله تعالىٰ يقول : **﴿ألا له الخلق والأمر﴾** ثم يقول : **﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾ ﴿وما أمرنا إلاّ واحدة كلمح بالبصر﴾ ﴿كلمح البصر أو هو أقرب﴾** فما كان من شأنه سبحانه وأمره فلا قيد له من زمن وإن قل ، لأنه نفي عنه الزمن بقوله : **﴿كلمح البصر أو هو أقرب﴾** .

أما ما كان من شأن خلقه فهو مقيد بالزمن ، والله تعالىٰ أعلم .

السادس : كلمة ابن رشد في كتابه «الكشف عن مناهج الأدلة» فإنها تعين على فهم المراد : قال في ص ٦٧ : والشبهة التي قادت نفاة الجهة إلى نفيها

---

(١) سورة الأعراف ؛ الآية : ٥٤ .

(٢) سورة السجدة ؛ الآية : ٥ .

هي انهم اعتقدوا ان إثبات الجهة يوجب إثبات المكان ، وإثبات المكان يوجب إثبات الجسمية .

ونحن نقول : «ان هذا كله غير لازم ، فإن الجهة غير المكان ، وذلك أن الجهة هي إما سطوح الجسم نفسه المحيطة به ، وهي ستة . وبهذا نقول : ان للحيوان فوق وأسفل ويميناً وشمالاً وأمام وخلف ، وأما سطوح جسم آخر محيط بالجسم ذي الجهات الست .

فأما الجهات التي هي سطوح الجسم نفسه ، فليست بمكان للجسم نفسه أصلاً . وأما سطوح الأجسام المحيطة به ، فهي له مكان ، مثل سطوح الهواء المحيطة بالإنسان ، وسطوح الفلك المحيطة بسطوح الهواء ، هي أيضاً مكان للهواء ، وهكذا الأفلاك بعضها محيطة ببعض ومكان له . وأما سطح الفلك الخارج فقد تبرهن أنه ليس خارجه جسم ، لأنه لو كان كذلك لوجب أن يكون خارج ذلك الجسم جسم آخر ، ويمر الأمر إلى غير نهاية ، فإذا سطح آخر أجسام العالم ليس مكاناً أصلاً ، إذ ليس يمكن أن يوجد فيه جسم ، لأن كل ما هو مكان يمكن أن يوجد فيه جسم ، فإذن ان قام البرهان على وجود موجود في هذه الجهة ، فواجب أن يكون غير جسم ، فالذي يمتنع وجوده هنالك هو عكس ما ظنه ، وهو موجود ، هو جسم ، لا موجود ، ليس بجسم . وليس لهم أن يقولوا ان خارج العالم خلاء ، وذلك أن الخلاء قد تبيّن في العلوم النظرية امتناعه ، لأن ما يدل عليه اسم الخلاء ليس هو شيء أكثر من أبعاد ليس فيها جسم ، أعني طولاً وعرضاً وعمقاً ، لأنه إن رفعت الأبعاد عنه عاد عدماً ، وان أنزل الخلاء موجوداً : لزم أن تكون أعراض موجودة في غير جسم ، وذلك أن الأبعاد هي أعراض من باب الكمية ولا بد ، ولكنه قيل في الآراء السالفة القديمة ، والشرائع الغابرة : أن ذلك الموضع هو مسكن الروحانيين ، يريدون الله والملائكة . وذلك أن ذلك الموضع ليس هو بمكان ، ولا يحويه زمان . . .» الخ . وبه يتضح نفي الزمان والمكان .

السابع : الحديث : «البيت المقدس أرض المحشر والمنشر» رواه ابن ماجه ، لعله المقصود بما جاء في ص ٤٢(*) من هذه الرسالة ، ومن المعلوم أن

(*) هذا في المطبوعة التي راجعنا عليها ، وأما في هذه ، فالتمسها عن قوله «إشارة» قوله تعالى : ﴿اخلع نعليك﴾ .

بعثة الخلائق وحشرهم يكون من الأرض المقدسة» الخ .

الثامن : أما كرية الأرض ، فمن بعض براهينها من الكتاب قوله تعالىٰ : **﴿يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل﴾** ومن السنة قوله (ص) في الحديث المروى في الصحيح والمسانيد وغيرهما بألفاظ يصدق بعضها بعضاً ، وفي بعض ألفاظه ، قال : «قرأ على المنبر **﴿والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة﴾** الآية قال : مطوية في كفه يرمي بها كما يرمي الغلام بالكرة» وفي لفظ «يأخذ الجبار سمواته وأرضه بيده ، فيجعلهما في كفه ، ثم يقول بهما هكذا كما تقول الصبيان بالكرة : أنا الله الواحد» .

وفي الشاهد : شكل ظل الأرض الدائري على القمر في الخسوف وغير ذلك ، وكتب السلف مشحونة بهذه المسألة . وأعجب لمن رمي علماء المسلمين بإنكارها ، وهي بديهية عندهم ، وتفاخر بالبهتان إذ جعل السبق في معرفة ذلك للغرب .

ذكرت هذا لمناسبته لدوران الأرض ـ البند الخامس ـ والله تعالىٰ أعلم . والحمد لله حمداً كثيراً خالداً مع خلوده . . .

أبو بكر مخيون

بابي حمص ـ بحيرة

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمد لله الواحد بذاته وصفاته . المنزه في أحديته عن مشابهة مخلوقاته . وصلواته على محمد عبده ورسوله ، الموضح بسنته متشابه آياته . الباقي مدده لأوليائه بعد مماته كما كان لهم في حياته . وعلى آله وصحبه الذين كان أحدهم إذا زاره في قبره سلم عليه ، ورفع يديه كما كان يرفعهما عند أفتتاح صلاته[1] وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد : فقد سألتني ـ أرشدني الله وإياك ـ عن أمر عظيم في هذا الزمان خطبه وعم ضرره ، وهو ما تظاهر به بعض المبتدعة المنتسبين زوراً وبهتاناً إلى الحديث والفقه ، وأشاعه في العامة والخاصة من اعتقاد ظواهر الآيات المتشابهة في أسمائه تعالىٰ وصفاته ، من غير تعرض لصرفها عما لا يليق بجلاله وكبريائه ، ويوهم التشبيه والتجسيم ، ويزعم أنه في ذلك متمسك بالكتاب والسنة ، وماش

---

(١) روى القاضي عياض في الشفاء جـ ٢ ص ٧٦ قال بعضهم رأيت أنس بن مالك أتى قبر النبي (ص) ، فوقف فرفع يديه حتى ظننت أنه افتتح الصلاة ، فسلم على النبي (ص) ، ثم انصرف .

قال شارح الشفاء «علي القاري» تعليقاً : لا يعرف استحباب رفع اليدين في ذلك المقام عن أحد من الأعلام ، ولعله دعا الله سبحانه وتشفع به (ع)» ا هـ .

وفي الزرقاني على المواهب جـ ٨ : روى البيهقي في كتاب «حياة الأنبياء» وصححه وغيره كأبي يعلى ، والبزار ، وابن عدي ، من حيث أنس أنه (ص) قال : «الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون» اهـ مخيون .

في طريقة السلف الصالح ، ويشنع على من تعرض إلى شيء منها بتأويل ، أو صرفه عن ظاهره بدليل ، إلى ما تعارف في عرف العرب الذين نزل القرآن بلغتهم ، وينسبه في ذلك إلى مخالفة الصحابة والتابعين (رضوان الله عليهم أجمعين) ، لكونهم ما نقل عنهم التعرض لشيء من ذلك ، وقد ضل وأضل كثيراً ، وما يضل به إلاّ من هو قاصر الفهم ضعيف النور .

وحيث : سألتني عن ذلك ، ورغبت في إملاء شيء عليك ، فلا بد من الإجابة على سبيل النصيحة لله تعالىٰ ولرسوله (ص) ، ولأئمة المسلمين وعامتهم (رضي الله عنهم أجمعين) .

فاعلم ـ أمدني الله وإيّاك بمدد توفيقه ـ أن من أجل منح الله تعالىٰ على عبده : طهارة قلبه وسلامة فطرته ، وقلة منطقه ، فإنه بذلك يلقن الحكمة ، ويسمع هواتف الحق في كل نفس من أنفاسه ، ويضيء له في ليل المتشابه مصباح المحكم ، فيرسخ قدم صدقه في معرفة ربه سبحانه ، ويحيي بلده الطيب بغيث الهدى والعلم، فيخرج نباته بإذن ربه : **﴿كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء * تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها﴾** ويسلك بنحل أفكاره سبل الإستقامة ، فيخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس .

وقد كان للصحابة (رضي الله عنهم) من هذا المشرب أصفاه وأعذبه ، ومن العلم بالكتاب والسنة أزكاه وأطيبه ، وكيف لا يكونون كذلك وقد تليت عليهم آيات الله وفيهم رسوله ، ولهم من الاعتصام بالله ما ضمنت لهم به الهداية والاستقامة : **﴿ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم﴾** يعلمون الناسخ والمنسوخ بالمعاصرة ، وأسباب النزول بالوقائع ، ويفهمون ما أودع في مواقع التركيب وأساليب البيان بالطباع ، يردون ما أختلفوا فيه إلى الله والرسول ، فيعلمه الذين يستنبطونه منهم ، وهم الراسخون في العلم وأولو الأمر ، يتدبرون القرآن ويردون المتشابه إلى معنىٰ المحكم ، **﴿يقولون آمنا به كل من عند ربنا﴾** فلا اختلاف فيه **﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾** ولأجل ذلك لم ينقل عنهم اعتناء بإيضاح آيات الأسماء والصفات ، ولا أكثروا السؤال عنها بعدم أشكالها بحسب لغتهم ، ولاتساع مجال افهامهم في معانيها الصحيحة ، وكان من أدبهم (رضي الله عنهم) أن لا يثق أحد بفهمه في استيعاب المراد منها ، فسكتوا عنها مفوضين إلى كل فهم صحيح ما منحه الله تعالىٰ من الاتساع الموافق للغة

والآيـات المحكمـة ، كمـا في صحيـح البخـاري[١] وغيـره عن أبي جحيفـة قـال : «قلت لعلي (رضي الله عنـه) هـل عنـدكم كتـاب ؟ قـال : لا ، إلاّ كتـاب الله ، أو فهم أعطيه رجل مسلم ، أو ما في هذه الصحيفة» .

وفي بعض الـروايات «إلاّ مـا يعطيـه الله عبده فهمـاً في القـرآن» فلمـا انقـطع بموته (ص) عن ظواهر الأسماع مدد روح الـوحي ، وعفت عهود الـوقائـع بانقـراض علمــاء الصحـابــة (رضي الله عنهم) ، وضعف استنبـاط المتشــابـه من المحكم بمخالطة النبط وانعجم المعنىٰ الـواضح بمـلابسة العجم ، وحصـل التمريج[٢] في القلوب فزاغت وحجبت عن هواتف الغيب ، وكثر الكلام فيمـا لا يعني ، فقل أبنـاء الحكمة ، فهنالـك ظهرت أربـاب البدع ، وأشكـل معنىٰ المتشابـه ، فاتبعـه من في قلبـه زيغ ، وكـاد الأمر يلتبس لـولا ما أيـد الله به هـذه الأمة من العلمـاء الوارثين ، والسلف الصـالح ، فنهضـوا لمناظـرة أرباب البـدع ، وتخـطئتهم ، وحـل شبههم ، ونهـوا الناس عن اتبـاعهم وعن الاصغاء إليهم ، وعن التعـرض بالآراء للمتشـابـه ، وحسمـوا مادة الجـدال فيه والسؤال عنـه ، سداً للذريعـة واستغناء عنـه بـالمحكم ، وامـروا بالإيمـان به وبـامراره كمـا جاء من غيـر تعطيـل ولا تشبيه[٣] وكـان هـذا في عصرهم مغنياً ، لولا أن المبتدعة دونوا بـدعهم ونصبوا عليهـا أشراك الشبـه والأهواء المضلة ، فـوفق الله الـراسخين من علمــاء السنـة فـدونـوا في الـرد عليهم الكتب الكلاميّة ، وأيدوها بالحجج العقليـة والبراهيم المنيـرة من الكتاب والسنـة ، إلى أن أظهـر الله الحق على ألسنتهم ، وقمـع أهـل البـاطـل والـزيـغ ، وأطفـأ نـار البـدع والأهواء ، فجزاهم الله عن نصيحة هذه الأمة أفضل الجزاء .

ولنشرع في بيان ما سألته على سبيل الإجمال ، ثم على سبيل التفصيل :

فـاعلم ـ هداني الله وإيّـاك لما اختلف فيـه من الحق بإذنـه ـ ان ربنا سبحـانـه وتعـالىٰ : حي ، متكلم ، عالم ، مـريـد ، قـديـر ﴿**ليس كمثله شيء وهـو السميـع البصيـر**﴾ أحدي فـلا أين ، ولا تركيب لـذاته أزلي فـلا كيف ولا تـرتيب لصفـاتـه ، أبـدي فلا تنـاهي لجلالـه وإكرامـه ، تنـزه في سمعـه وبصـره وادراكـه وبـطشـه عن

---

(١) في كتاب العلم ، ا هـ مخيون .

(٢) النسخة الشامية «التمرج» ا هـ مخيون .

(٣) لقوله تعالىٰ : ﴿**والراسخون في العلم يقولون آمنا بـه كل من عنـد ربنا**﴾ سـورة آل عمران ؛ الآية : ٧ .

الجوارح ، وعز في قدرته عن الشريك والمعين ، وجل في إرادته عن الأغراض ، وتفرد في كلامه عن الحروف والأصوات ، وتعالى في استوائه عن التشبيه والكون ، وتقدس في علوه وفوقيته عن الجهات ، ينزل بلا نقلة ، ويجيء ويأتي بلا حركة ، وتراه أبصار المؤمنين بلا ادراك ولا إحاطة ، لا حد لقربه ، ولا ميل لحبه ، ولا سورة لغضبه ، ولا كيف له في رضاه وضحكه ، ولا شفعية إلّا لمعيته ، ولا وترية إلّا بظهور قهره وأحديته ، ولا بقاء إلّا لأهل عنديته .

نفسه تعالى : ذاته وأم كتابه[1] .

ووجهه : نور توحيده عند إقباله.

وصورته : مظاهر تعرفاته .

وظلل غمامه ، ويده ، ويداه ، وأيديه : أسماء حقائق ، يتصرف بها في مخلوقاته .

وعينه ، وأعينه : آياته المبصرة القائمة بالحفظ والرعاية للمخصوصين من عباده .

وقدمه : قدم الصدق الذي بشر به عباده المؤمنين .

وجنبه : صحبته وكلاءته للذاكرين من أتباع النبيين .

وهو الأو والآخر : فما من عرض ولا جوهر إلّا هو مبدوء بأوليته ، مختوم بأخريته .

وهو الظاهر : بحكمه في محكمه ، الباطن بعلمه في متشابه آياته وحكمه .

ظهر بمعيته في باطن وتريته[2] فنشأت أعداد مصنوعاته ، وبطن بقدم أحديته

---

(١) في النسخة الشامية : «أو أم كتابه» ، وفي تعريفات السيد ، أم الكتاب : العقل الأول ، وفي «الإنسان الكامل» : ما هية كنه الذات . اهـ مخبون .

(٢) الحديثان «الأول» : «ان الله وتر يحب الوتر» متفق عليه بين البخاري ومسلم ، في الصحيحين .

«والثاني» روى الإمام مسلم في صحيحه في باب «ما يقول عند النوم» من حديث جاء فيه : «اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء» وقوله ظهر بمعيته الخ انظر ثاني التنبيهات ، وسيأتي مزيد بيان ، اهـ مخبون .

في أسماء الحوادث ، فرجعت بحقائق هوياتها إليه ﴿ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه﴾ .

لا شريك له في ملكه ، وهو يؤتي الملك من يشاء ، ولا مثل له في كنهه «وله المثل الأعلىٰ» تقدس عن النظير في الدنيا والآخرة ، ﴿وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة﴾[1] وتنزه عن الجهات ﴿وهو الله في السموات﴾ وتعالىٰ عن التشبيه ، وله الآيات المتشابهات ، يجتني معانيها أهل قربه في رياض جنات ذكره، ﴿كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون﴾ .

هذا ما فتح الله به : على سبيل الإجمال .

وأما التفصيل : فلنقدم عليه مقدمة تكون بمثابة القاعدة والتمهيد له : وهو : انه ليس في الوجود فاعل إلّا الله ، وأفعال العباد بجملتها ـ عند أهل السنة والجماعة ـ منسوبة الوجود والاختراع إلى الله تعالىٰ ، بلا شريك ولا معين ، فهي على الحقيقة فعله ، وله بها عليهم الحجة ﴿لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون﴾[2] .

ومن المعلوم أن أفعال العباد لا بد فيها من توسط الآلات والجوارح ، مع أنها منسوبة إليه وبذلك يعلم أن لصفاته في تجلياتها لعباده مظهرين : مظهر عادي سفلي ، منسوب لعباده ، وهو الصور والجوارح الجسمانية[3] ومظهر حقيقي علوي منسوب إليه ، وقد أجرى عليه أسماء المظاهر السفلية المنسوبة لعباده على سبيل التقريب لأفهامهم ، والتأنيس لقلوبهم ، ونبه تعالىٰ في كتابه على القسمين ، وانه سبحانه منزه عن الجوارح في الحالين ، فنبه على الأول بقوله تعالىٰ : ﴿قاتلوهم

---

(١) سورة القيامة ؛ الآيتان : ٢٢ و ٢٣ .

(٢) سورة الأنبياء ؛ الآية : ٢٣ .

(٣) قوله : مظهرين الخ نسبة الجوارح هنا له تعالىٰ بغير الخلق والملك : كلام ليس محققاً مطلقاً ، أو ليس مقصوداً به ظاهره ، لأنه لو كان حقيقة لكانت بد أي مخلوق مثلاً في منتهىٰ القوة والبطش ، وقس على ذلك بقية الجوارح ونسبتها إليه تعالىٰ كما في قوله تعالىٰ : ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾ نسبة خليقة لخالق ، لا صفة لموصوف ، لذلك قال الشيخ : «مع القطع الضروري» الخ ، وربما كان هذا من قبيل ما تضيق عنه العبارة ، مما أشار له الغزالي بقوله في المقدمة : ولا يحاول معبر أن يعبر عنها إلّا اشتمل لفظه على خطأ صريح . اهـ مخبون .

يعذبهم الله بأيديكم﴾[1] وذلك يفهم أن كل ما ظهر على أيدي العباد ، فهو منسوب إليه ، وفعل له ، وأن جوارحنا مظهر له ، وواسطة فيه ، فهو على الحقية الفاعل ، بجوارحنا ، مع القطع الضروري لكل عاقل ، ان جوارح العبد ليست جوارح لربنا تعالىٰ ، ولا صفات له .

ونبه على الثاني بقوله فيما أخبر به نبيه (ص) في صحيح البخاري : «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها» الحديث .

وقد حقق الله لنبينا (ص) ذلك بقوله تعالىٰ : ﴿أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات﴾[2] بعد قوله : ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾[3] وبقوله عزّ من قائل : ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم﴾[4] فنزل يد نبيه منزلة يده في المبايعة وأخذ الصدقات والرمي في قوله : ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾[5] وذلك كله يفهم أن العبد إذا صار محبوباً صارت أفعاله ناشئة عن أنوار علوية روحانية من عند ربه ، تكون له بمثابة الجوارح ، وأن الله سبحانه يكون له بواسطتها سمعاً وبصراً ويداً ورجلاً ، مع القطع الضروري أن الله سبحانه لا يكون جارحة لعبده ، ولكن سر الأمر في تحقيق ذلك : ان الله جلت حكمته ضرب لنفسه في دوائر ملكه مثلاً بالقلب في دائرة بدنه[6] ومن المعلوم لكل أحد : أن المتصرف في دائرة بدنه هو قلبه ، ونور شامل لجميع أجزائه ، وروح الحياة منه شائعة في سائر أقطاره ، وأن الجوارح مظاهر لأنوار القلب وتصرفاته ، فبنوره تبصر العين ، وتسمع الأذن ، ويشم الأنف ، ويذوق اللسان وينطق ، وتلمس الجوارح وتبطش ، مع العلم الضروري بأن الجوارح صفات للبدن ، وليست صفات للقلب ، ولا تعلق لها به ، ولا تنسب إليه إلّا نسبة الاتباع والعبيد للملك المطاع .

---

(١) سورة التوبة ؛ الآية : ١٤ . (٢ ، ٣) سورة التوبة ؛ الآيتان : ١٠٣ و١٠٤ .

(٤) سورة الفتح ؛ الآية : ١٠ .

(٥) سورة الأنفال ؛ الآية : ١٧ .

(٦) قوله ضرب لنفسه الخ : لعل تفسيره ما بعده ، وهو أن القلب هو المتصرف في دائرة البدن ، وعلى كل حال ، فالعبارة ليست دقيقة ، لأن الشيخ لم يبيّن من أين مضرب المثل ، إذ ظاهر انه استنبطه اجتهاداً ، والله أعلم . مخيون .

ثم أن القلب إن غلب عليه التوجه إلى عالم الشهادة تصرف بالجوارح، فصار يرى بالعين، ويسمع بالأذن، ويبطش باليد، وهو مثل قوله تعالى: ﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم﴾[1] وإن غلب على القلب التوجه إلى عالم الغيب استتبع الجوارح، فصارت هي متصرفة به، فتصير العين تبصر بالقلب، وكذلك باقي الحواس والجوارح، وهو مثل قوله: ـ كنت سمعه الذي يسمع به ـ الى آخره فافهمه، فإنه بديع، وسيأتي إن شاء الله في التفصيل ما يؤيده ويزيده وضوحاً، وبهذا يتسع لك فهم ما جاء من الجوارح منسوباً إلى أفعاله تعالىٰ وصفاته، فلا تشتبه بعد هذا عليك، ولا تفهم من نسبتها إليه تشبيهاً ولا تجسيماً، بل تفهم ان مثل النسبة إليه فيها كمثل نسبة الجوارح للقلب، وان ذاته المقدسة متعالية عن الاتصاف بها لأن الجوارح يلزمها الحدوث، وذاته تعالىٰ واجبة القدم، وكل ما كان واجب القدم: استحال عليه العدم.

وإنما الروح الأصلي الذي هو منشأ عالم الأمر هو مصباح نور التوحيد، قال تعالىٰ: ﴿ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلّا أنا﴾[2] وبهذا الروح يتجلىٰ سبحانه لعباده بأسمائه وصفاته المحكمة والمشابهة.

ومن المعلوم أنه قد ثبت قوة التطور في الصور المختلفة للملائكة، وهم من رقائق هذه الروح، فلأن يكون له قوة التجلي بأي صورة شاء أولى، وتصح نسبة تلك الصورة إلى الله لتجليه فيها، كما سيأتي تحقيقه في صفة المجيء والصورة وغيرها.

وها أنا إن شاء الله تعالىٰ أشرع في تفصيل الصفات المتشابهة، وليس المقصود ذكر البراهين التي هي مدونة في الكتب الكلاميّة، وإنما المقصود «رد المتشابه إلى المحكم» على القواعد اللغوية، وعلى مواضعات العرب، وما كان يفهمه الصحابة والتابعون من الكتاب والسنة، وتلويحات وتصريحات من الكتاب والسنة.

هذا تمام المقدمة، ولنشرع في التفصيل، مع بسط يد الفاقة والإفتقار، عسىٰ أن يهديني ربي سواء السبيل.

---

(١) سورة التوبة؛ الآية: ١٤.

(٢) سورة النحل؛ الآية: ٢.

فصل الصورة

من المتشابه في الآيات[1] التي يذكر فيها الصورة ، والأولىٰ تقديمها ، لأنها اسم جامع لباقي الحقائق في غيرها ، فما يصح في ذلك ما رواه البخاري وغيره من حديث الرؤية[*] عن أبي هريرة (رضي الله عنه) ، وفيه «فيأتيهم ربهم في غير الصورة التي يعرفونها ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون نعوذ بالله منك ، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا ، فإذا أتى ربنا عرفناه ، فيأتيهم في الصورة التي يعرفون ، فيقول أنا ربكم ، فيقولون : نعم ، أنت ربنا فيتبعونه»[2] وقد ثبت ذكر الصورة في

---

(١) لعله يريد : «في الاحاديث» . مخيون .

(*) ليس المقصود أن الحديث غير صحيح ، وإنما المقصود : أن المعنىٰ الذي يفهمه كثير من الناس من هذه الأحاديث غير صحيح .

(٢) في صحيح مسلم في كتاب الإيمان باب الرؤية (فيأتيهم الله تبارك وتعالىٰ في صورة غير صورته التي يعرفون ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : نعوذ بالله منك ، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا ، فإذا جاء ربنا عرفناه ، فيأتيهم الله تعالىٰ في صورته التي يعرفون ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : أنت ربنا ، فيتبعونه) الخ ، وفي البخاري في باب فضل السجود (فيأتيهم الله فيقولون : أنا ربكم فيقولون : هذا مكاننا حتى يأتينا ، فإذا جاء ربنا عرفناه ، فيأتيهم الله فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : أنت ربنا ، فيدعوهم) .

وفيه ، في صفة الجنة (فيأتيهم الله في غير الصورة التي يعرفون ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : نعوذ بالله منك ، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا ، فإذا أتانا ربنا عرفناه ، فيأتيهم الله في الصورة التي يعرفون ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : أنت ربنا ، فيتبعونه) . قال العيني في شرحه : (أما ذكر الصورة ، فإنها تقتضي الكيفية ، والله منزه عن ذلك ، فيقول : أما بأن تكون الصورة بمعنىٰ الصفة ، كقولك صورة هذا الأمر كذا ، تريد صفته ، وأما بأنه خرج على نوع من المطابقة ، لأن سائر المعبودات المذكورة لها صورة ، كالشمس وغيره) ، ا هـ مخيون .

حديث أبي سعيد أيضاً ، وهو من الأحاديث المتشابهة ، ومرجعها إلى الأيات والأحاديث المحكمة ، وكل من له من الله نور ، اه في مرجعها إلى المحكم فهم على حسب نوره .

ونحن إن شاء الله نذكر مبلغ علمنا وفهمنا فيه ، ونسأل الله أن يهدينا لما اختلف فيه من الحق باذنه .

فاعلم : ان للصور التي يأتي فيها ربنا يوم القيامة حقيقة ومظهراً ، فالحقيقة هي الظلة في قوله تعالى : **﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة﴾**[1] فعلم بذلك : ان مظاهر تجليه لعباده هي ظلل غمامه ، وحقائق هذه الظلل آياته التي تعرف لخلقه فيها بواسطة أنبيائه .

وقد ثبت في الصحيح تشخص حقائق آياته ، كالظل ، ففي مسلم وغيره من حديث أبي أمامة ، وحديث النواس بن سمعان ان القرآن يوم القيامة يأتي تقدمه البقرة وآل عمران كأنهما غمامتان أو ظلتان سوداوتان[2] .

ومن المعلوم أن كلامه صفته ، وصفته لا تفارقه[3] .

فإذا ثبت أتيانهما في صورة ظل الغمام ، ثبت أتيانه .

وفي مسلم وغيره : «أن أسيد بن حضير (رضي الله عنه) قرأ سورة الكهف ليلة ، فجالت فرسه فإذا مثل الظلة فوق رأسه ، فيها أمثال السرج ، فسأل النبي (ص) فقال : ان السكينة تنزلت للقرآن» .

وفي رواية الترمذي «مع القرآن» . وفي رواية «تلك الملائكة كانت تسمع

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢١٠ .

(٢) ولفظ الحديث ـ من الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير جـ ٣ ص ٤٠٦ :
«يأتي القرآن وأهله الذين كانوا يعملون به في الدنيا تقدمه سورة البقرة وآل عمران : يأتيان كأنهما غيابتان ، وبينهما شرف [أو كأنهما غمامتان سوداوان] أو [كأنهما ظلتان من طير صواف] : يجادلان عن صاحبهما» رواه الإمام مسلم ، وأحمد ، والترمذي .

(٣) قوله «وصفته لا تفارقه» قال الإمام الدردير في الخريدة :

وكلها قديمة بالذات   لأنها ليست بغير الذات

قال في شرحه : «لأنها ليست بغير الذات» العلية ، بمعنى أنها لا تنفك عنها ، فلا يعقل قيام الذات بدونها ، ولا وجودها في غير الذات المقدس» الخ ، مخيون .

لك» وذلك كله موافق لآية البقرة[1] ، ونفرة الفرس دليل على أنها ظلة محسوسة ، وقد ثبت رؤيا النبي (ص) للظلة ، وتأويل أبي بكر (رضي الله عنه) لها بالإسلام ، وذلك كله يحقق أن حقائق الظلل هي : آيات الله وشرائعه ، وهي من الروح ، كما قدمته لك ، قال تعالىٰ : ﴿**وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا**﴾[2] الآية .

والظلة قسمان : ظلة عذاب ، وظلة رحمة .

وظلة العذاب : كظلة قوم شعيب في قوله تعالىٰ : ﴿**فأخذهم عذاب يوم الظلة**﴾[3] وقد ضرب الله سبحانه المثل بذلك في القرآن ، في قوله تعالىٰ : ﴿**أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق**﴾[4] الآية .

وأما ظلة الرحمة : فهي آياته المقتضية للرحمة ، النازل غيثها على قلوب المؤمنين . كما صح في البخاري ومسلم وغيرهما ، وقوله (ص) : «إن مثلي ومثل ما بعثت به من الهدى والعلم ، كمثل غيث أصاب أرضاً» الحديث ، فهذا هو مظهر الحقيقة .

وأما مظهر الصورة فهو العمل .

وقد ثبت تشخيص الأعمال بصور شتىٰ ، كما في حديث البراء (رضي الله عنه) باسناد صحيح ، أخرجه المسانيد كالإمام أحمد وغيره : (إن الميت المؤمن يفسح له في قبره مد بصره ، ويمثل له عمله في صورة رجل حسن الوجه ، طيب الريح ، حسن الثياب ، فيقول له : من أنت ؟ فيقول له : أنا عملك الصالح ، وإن الفاجر يمثل له عمله في صورة رجل قبيح الوجه ، منتن الريح ، فيقول : من أنت ؟ فيقول : أنا عملك) الحديث ، وقد صح تمثيل الموت بصورة الكبش ، وتمثيل المال بصورة الشجاع[5] الأقرع ، وتمثيل الملائكة (صلوات الله وسلامه عليهم) بصورة الآدميين ، والسنة مشحونة بنحو ذلك ، ومن المعلوم ان الأعمال أعراض ، فإذا ثبت ظهورها وتمثلها بصورة الجواهر والأجسام ، مع القطع بأنها

---

(١) سورة البقرة ؛ الآية : ٢١٠ .

(٢) سورة الشورى ؛ الآية : ٥٢ .

(٣) سورة الشعراء ؛ الآية : ١٨٩ .

(٤) سورة البقرة ؛ الآية : ١٩ .

(٥) الشجاع [بضم الشين وكسرها] الحية الذكر ، وقيل الحية مطلقاً ، ا هـ نهاية ، ا هـ مخبون .

ليست جسماً ولا جوهراً ، وان الملائكة ليسوا بآدميين ، فعلىٰ مثل ذلك قس اتيان ربنا سبحانه في صورة الأعمال ، فالمقصود من ذلك كله تقريب المراد إلى الافهام ، وهو شائع في اللغة معروف في مواضعات العرب واستعمالاتهم ، وانه لا يلزم من اتيانه في صورة الأعمال أن يكون له تعالىٰ صورة ، ولا يلزم من نسبتها واضافتها إليه أن تكون ذاتية له ، كما قد ثبت نسبة اليدين والركبتين إلى جبريل (ع) ، في حديث عمر (رضي الله عنه) ، عند مسلم وغيره ، في قوله (طلع علينا رجل شديد بياض الثياب) إلى قوله (فأسند ركبتيه) الحديث[1] .

ومن المعلوم : أن الركبتين واليدين التي جاء بها جبريل جسمانيات وليست ذاتية له .

وبهذا يعلم : ان رؤية العباد لربهم يوم القيامة مختلفة النعيم .

فكل يراه في صورة عمله ، على حسب مراقبته واخلاص توجهه إليه وصدقه في إقباله عليه .

تنبيه : إذا علمت أن حقيقة الصورة آياته التي تعرف بها إلى خلقه ، فنزل على ذلك ما صح من أن الله خلق آدم على صورته[2] فإن الإنسان قد جمع الله

---

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما بألفاظ مختلفة ، اهـ مخيون .

(٢) في البخاري «أول حديث في كتاب الاستئذان» وفي مسلم كتاب الجنة صفة نعيمها وأهلها ، والإمام أحمد في مسنده : خلق الله آدم على صورته ، وطوله ستون ذراعاً ، ثم قال : اذهب فسلم على أولئك النفر ، [وهم نفر من الملائكة جلوس] فاستمع ما يحيونك ، فإنها تحيتك وتحية ذريتك ، فذهب فقال : السلام عليكم ، فقالوا : السلام عليك ورحمة الله ، فزادوه «ورحمة الله» فكل من يدخل الجنة على صورة أدم في طوله : ستون ذراعاً ، فلم يزل الخلق تنقص بعده حتى الآن .

أما الرواية الأخرىٰ : «ان الله خلق آدم على صورة الرحمن» أخرجها الطبراني ، وابن عاصم ، من قاتل فليجتنب الوجه ، فإن صورة الإنسان على صورة وجه الرحمن ، وباسناده ثقات ، فتعين إجراؤه على ما تقرر بين أهل السنة من أمراره كما جاء من غير اعتقاد تشبيه أو تأويل على ما يليق بالرحمن جل جلاله ، فتكون اضافتها على سبيل الملك تشريفاً ، أو يكن المراد بالصورة الصفة ، والمعنىٰ : ان الله خلقه على صفته من العلم والحياة والسمع والبصر وغير ذلك ، وإن كانت صفات الله لا يشبهها شيء . اهـ باختصار عن استحالة المعية بالذات ، مخيون .

وللحديث سبب ، هو : أن النبي (ص) رأى رجلاً يضرب عبداً على وجهه ، فنهاه عن ذلك . وكلام الصوفية فيه لا يؤخذ على ظاهره .

فيه كل حقائق الكائنات ، فكان مظهراً لآياته الكبرى ، الجامعة لجميع حقائق الآيات ، المتجلية لخلقه بجميع أنواع الأسماء والصفات ، فلذلك قبل تعليم الأسماء ، وسجدت له ملائكة الأرض والسماء ، أي أن الله خلقه على المثالية القابلة لتجلي صورة آيته الكبرى ، وهي التي أريها سيدنا محمد (ص) ليلة الإسراء ، وحققها «روح لا إله إلاّ الله» .

تنبيه : قد جاء في الجامع لأبي عيسى الترمذي : أن النبي (ص) قال : (ان في الجنة سوقاً لا فيها بيع ولا شراء ، إلاّ الصور من الرجال والنساء ، فإذا أراد الرجل صورة دخل فيها)[1] قال الترمذي : حديث غريب .

وإذا نزلته على ما قرّرناه ، علمت أن تلك الصورة : حقائق آيات من آيات أسمائه وصفاته تعالى وأخلاقه ، فما من آية منها تخلق بها العبد في الدنيا ، إلاّ وقد تعرف الله إليه بها ، فإذا دخل الجنة ورآها في سوق المعرفة عرفها ، فدخل فيها ، فكانت زيادة في معرفته بربه ، وتجليه له فيها بنعيم رؤيته .

فإن قلت : فما معنى قوله : «إلاّ الصور من الرجال والنساء» وما مناسبة الرجال والنساء لصور آيات الصفات والأسماء ؟ .

قلت : ما من آية يتخلق بها العبد إلاّ وقد أشتقها الله من اسمه الرحمن ، للرحمة الإيمانية ، وانتقلت إليه ارثاً من أب إيماني أو أُم إيمانية **﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم﴾** وهو أب لهم[2] فلعل هذا معنى قوله «من الرجال والنساء» .

---

(١) رواه الترمذي عن علي ، وصححه : «ان في الجنة لسوقاً : ما فيها شراء ولا بيع إلاّ الصور ، من الرجال والنساء ، فإذا اشتهى الرجل صورة دخل فيها» ا هـ مخيون .

(٢) قوله «وهو أب لهم» من المنسوخ ، سورة الأحزاب ؛ الآية : ٦ .

فصل الوجه[1]

ومنها صفة الوجه ، وقد جاء ذكره في آيات كثيرة ، فإذا أردت أن تعرف حقيقة مظهره من الصورة ، فاعلم أن حقيقته من غمام الشريعة : بارق نور التوحيد ، ومظهره من العمل وجه الإخلاص ﴿فأقم وجهك للدين﴾[2] ويدل على أن وجه الاخلاص مظهره قوله تعالىٰ : ﴿يريدون وجهه﴾[3] وقوله : ﴿إنما نطعمكم لوجه الله﴾[4] وقوله : ﴿إلا ابتغاء وجه ربه الأعلىٰ﴾[5] والمراد من ذلك كله الثناء بالاخلاص على أهله تعبيراً بإرادة الوجه عن اخلاص النية ، وتنبيهاً على أنه : مظهر وجهه ، سبحانه ، ويدل على أن حقيقة الوجه هو بارق نور التوحيد ، قوله تعالىٰ : ﴿ولا تدع مع الله إلهاً آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه﴾[6] أي إلا نور توحيده ، وهو نور السموات والأرض ، بدليل قوله (ص) :

---

(١) جاء في كتاب «استحالة المعية بالذات» للشيخ محمد الخضر بن مابابي الشنقطي : وقيل المراد بالوجه القصد ، أي يبقىٰ ما أريد به وجه الله ، وهذا مروى عن الثوري .

وقال الكرماني : قيل المراد بالوجه في الآية والحديث : الذات ، أو الوجود ، أو لفظه زائد ، والوجه الذي لا كالوجوه لاستحالة حمله على العضو المعروف ، فتعين التأويل أو التفويض ، ولو حمل الوجه على ما قاله بعض المشبهة من أنه صفة تختص باسم زائد على الذات : كان المعنىٰ أن ذاته تهلك إلا وجهه ، ا هـ مخيون .

(٢) سورة الروم ؛ الآية : ٣٠ .

(٣) سورة الكهف ؛ الآية : ٢٨ .

(٤) سورة الإنسان ؛ الآية : ٩ .

(٥) سورة الليل ؛ الآية : ٢٠ .

(٦) سورة القصص ؛ الآية : ٨٨ .

(أعوذ بوجهك الذي أشرقت به الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة﴾[1] وبهذا يفهم سر قوله ﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾[2] .

تنبيه : قوله (ص) في حديث الرؤية (فيأتيهم ربهم في غير الصورة التي يعرفون : أي في ظلمة آيات العذاب ، ومظهر الأعمال السيئات ، فيقولون : نعوذ بالله منك ، فيستعيذون بالله من تلك الصورة ، كما كانوا في الدنيا ينكرونها ويستعيذون منها .

وقوله : «فيأتيهم في الصورة التي يعرفون» أي في مظهر أعمال البر ، وظلة صفة الرحمة والنبوة التي كانت تحيى قلوبهم بغيث الهدىٰ والعلم ، فيقولون «أنت ربنا» يعرفونه بواسطة تعرفه لهم في الدنيا ، تحقيقاً لقوله (ص) : (أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة)[3] .

---

(١) الدعاء المذكور ضمن دعاء الطائف المشهور (أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بي غضبك أو يحل بي سخطك الخ) أورده ابن إسحاق في السيرة ، ورواه الطبراني في كتاب الدعاء ، ا هـ مخيون .

(٢) سورة البقرة ؛ الآية : ١١٥ .

(٣) رواه الطبراني ، وأبو نعيم عن أبي هريرة ، ا هـ مخيون .

فصـل الرؤيـة

ومنهـا صفة الـرؤيـة ، وقـد جـاء في غيـر مـ آيـة ، وفي أحـاديث منهـا هـذا الحـديث : قولـه (ص) : (هل تضـارون في رؤية القمـر)[1] وفي روايـة (في رؤيـة الشمس) .

فإذا ثبت تجليه تعـالىٰ في صورة روح الشـريعة ، لم يبق في رؤيتـه أشكال ، وإنما عبر بالقمر والشمس عن حقيقة الوجه ، وهو نور التوحيد .

واختـلاف الروايتين يجـوز أن يكون تنبيهـاً على اختلاف درجـات الـرائين في نعيم الـرؤية ، والمقصـود : ان آيات الله : تتضـح لعباده ، فـلا يكون بينهم وبينهـا حجب تمنعهـم عن استكنـاه كنههـا ، والـوقـوف عى بـدائعهـا ، ويجـوز أن يكـون باعتبار الرؤية في البرزخ في وجوده كـالليل ، وآيتـه القمر ، والآخـر كالنهـار ، وآيته الشمس .

قوله : «ليس دونها سحاب» فيه ترقية لأهل المـراقبة ، وذلـك لأن غالب أهـل المـراقبـة لا يشهـدون بقلوبهم عنـد العبـادة والمراقبـة إلاّ ظلل آيـات الشـريعـة ، ويحجبـون بسحـابهـا عن شهـود وجـه ربهـم ، وهـو نـور تـوحيـده ، فـإذا كـان يـوم القيـامـة : كشف الغـطاء واحتـد البصـر ، فيـرون وجـه ربهـم كشمس ليس دونهـا سحاب الأعمال ، ولا ظلل غمام الشرائع ، بل هو أقـرب إليهم من أعمالهم **﴿ولقـد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه﴾** الآية[2] .

---

(١) الحديث في الصحيحين (ق) ، ا هـ مخبون .

(٢) سورة ق ؛ الآية : ١٦ .

تنبيـه : وقد أنكـر القاضي أبـو بكر بن العـربي[1] في «الأحوذي» ثبـوت نعيم الرؤية في الموقف ، وقال : ان نعيم الـرؤية لا تكـون إلاّ للمؤمنين في الجنة ، وان ما جاء من الرؤية في الموقف إنما هو على سبيل الامتحان والاختبار .

والـذي نعتقده : ثبـوت الرؤيـة ونعيمها للمؤمنين في المـوقف ـ على ما صح في الحـديث ـ وذلك صـريح في قـوله تعـالىٰ : **﴿وجوه يـومئذ نـاضـرة * إلى ربها ناظرة﴾**[2] .

تنبيه : لوجه ربنا سبحانه وتعالىٰ رداء ، وله حجب ، وله سبحات .

فـأما رداؤه فقـد نبـه عليـه (ص) في حـديث عبـد الله بن قيس ، عن أبيه[3] (جنتـان من فضة آنيتهمـا وما فيهمـا ، وجنتان من ذهب : آنيتهمـا وما فيهمـا ، ومـا بين القـوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلاّ رداء الكبـريـاء على وجهـه في جنـة عـدن) فـالرداء ههنـا ـ والله أعلم ـ هو مـا يحجب القلوب عن رؤية الـرب ، وهو أن يكـون في قلبـك كبريـاء لغيره ، فـأهل الجنـة ليس لهم مانـع من نعيم الرؤيـة وشهود نـور التـوحيد ، إلاّ رداء الكبـرياء ، فمن كبـر في قلبـه غيـر الله ، من غـرف أو تحف أو قصور ، أو حور أو مأكول أو مشـروب ، أو شيء سواه حجب عن الله ، ومن عـرف الله صغـر عنده كـل شيء ، فارتفـع عن بصيرتـه رداء الكبريـاء لكل شيء ، فـشـهد الله في كل شيء .

وبهـذا يظهـر لك سـر افتتاح الصـلاة بـالتكبير ، لأن الصـلاة حضـرة التجلي والمناجاة ، والمراقبة لأنوار سبحات وجهه سبحانه وتعالىٰ .

إثبـات : صـح في الحـديث الصحيـح[4] أن غـراس الجنـة : سبحـان الله ،

---

(١) المتوفى سنة ٥٤٣ ، ا هـ مخيون .

(٢) قال الخطابي في «عمدة القاري شرح صحيح البخـاري» للعيني ص ٨٤ جـ ٦ الرؤيـة التي هي ثواب الأولياء وكرامات لهم في الجنة غير هذه الرؤية ، وإنما تعريضهم هذه الرؤية امتحـان من الله تعالىٰ ليقع التمييز بين من عبد الله وبين من عبـد الشمس ، وغيرهـا فيتبع كـل من الفريقين معبوده ، ا هـ مخيون .

(٣) جنتان من فضة الخ الحديث متفق عليه بين صاحبي الصحيحين ، ا هـ مخيون .

(٤) رواه الترمذي ، وقـال : حديث حسن ، عن ابن مسعـود قال : قـال رسول الله (ص) : «لقيت إبراهيم (ع) ليلة أسري بي ، فقال : يا محمـد أقرىء أمتـك مني السلام ، وأخبـرهم أن الجنة طيبة التربة ، عذبـة الماء ، وانهـا قيعان ، وأن غـرسها سبحـان الله ، والحمد لله ، ولا إلـه إلاّ الله ، والله أكبر» ، ا هـ مخيون .

والحمد لله .

وفي الحديث (إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا ، قيل : وما رياض الجنة ؟ قال حلق الذكر)[1] .

وفي ذلك اشارة إلى أن نعيم الرؤية يحصل لأرباب القلوب في رياض جنة الأذكار ، وعند المراقبة ، وارتفاع رداء الكبرياء عن وجه التوحيد .

وأما حجبه : فقد ثبت في الصحيح[2] ان «حجابه النور» وفي رواية «حجابه النار» وليس بين الروايتين تناف .

ولك في تأويله سبيلان : أحدهما أن وجهه سبحانه هو الباقي ذو الجلال والإكرام ، فله تجلي بجلاله في حجاب النار ، كما تجلى لموسى (ع) حين آنس من جانب الطور ناراً .

وله تجلى باركامه في حجاب النور ، كما تجلى لمحمد (ص) ليلة الإسراء ، في قوله (ص) «رأيت نوراً»[3] .

وهذان الحجابان لأرباب الخصوص .

التأويل الثاني : وهو لأرباب العموم ، يؤخذ مما قررناه أنه لا فاعل في الكون غيره ، ولا هادي ولا مضل سواه ، يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، **﴿لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون﴾**[4] فوجه توحيده ، هو الذي ينعم ويهدي بإقباله ، ويعذب ويضل باعراضه ، وله في هدايته واضلاله حجابان ، فحجابه في هدايته النور ، وهو آياته المتجلية للقلوب بواسطة شرائع رسله ، قال تعالى : **﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين* يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام﴾**

---

(١) رواه الترمذي ، ا هـ مخيون .

(٢) في صحيح مسلم : «حجاب النور» وفي رواية «النار» الحديث في كتاب الإيمان ، ا هـ مخيون .

(٣) الحديث في صحيح مسلم في كتاب الإيمان عن أبي ذر ، قال سألت رسول الله (ص) : هل رأيت ربك ؟ قال «نوراني أراه» وفيه أيضاً عن عبد الله بن شقيق ، قال : قلت لأبي ذر «لو رأيت رسول الله (ص) لسألته ؟ فقال : عن أي شيء كنت تسأله ؟ قال : كنت أسأله : هل رأيت ربك ؟ قال أبو ذر : قد سألت ، فقال : رأيت نوراً» ، ا هـ مخيون .

(٤) سورة الأنبياء ، الآية : ٢٣ .

وحجابه في اضلاله النار ، وهي اكتساب الحجب المغشية للقلوب ، الصادة عن سبل الهدى والرشاد من وساوس الشيطان المخلوق من النار : **﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون * كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجبون﴾**(*).

فقد تبيّن بذلك أن وجه توحيد ، هو الهادي باقباله في حجاب نور الاتباع للمرسل **﴿فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى﴾**[1] وانه هو المضل باعراضه في حجاب الاتباع لوساوس الشيطان ، وأنه لا تنافي بين قوله : «حجاب النور» وبين قوله : «حجابه النار» ، وبذلك يفهم سر قوله (ص) «اللّهم اجعل في قلبي نوراً ، وفي سمعي نوراً ، وفي بصري نوراً ، إلى قوله : واجعلني نوراً»[2] أي اجعلني من جميع الوجوه نوراً ، دالاً عليك ، وحجاباً يتنعم برؤيتي من أراد التنعم بحسن النظر إليك .

تنبيه : جاء في الصحيح : «إن الله سبعين حجاباً من نور»[3] .

وذلك لا تنافي بينه وبين قوله : «حجابه النور» لأنه جنس يصح لشمول الأفراد وإن تعددت .

(*) سورة المطففين ؛ الايتان : ١٤ و ١٥ .

(١) سورة طه ؛ الآية : ١٢٣ .

(٢) حديث دعاء النور ضمن حديث رواه الترمذي ، وأخرجه البخاري ومسلم ، وابن جنبل والطبراني بألفاظ متقاربة ، ا هـ مخيون .

(٣) ذكره الغزالي في «مشكاة الأنوار» : «ان لله سبعين الف حجاب من نور وظلمة لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل من أدركه بصره» .

وفي كتاب «التوحيد» لابن خزيمة عن عبيد الله بن مقسم ، أنه ذكر «ان دون الرب يوم القيامة سبعين ألف حجاب : حجاب من ظلمة لا ينفذها شيء ، وحجاب من نور لا ينفذها شيء ، وحجاب من ماء لا يسمع خشيش ذلك الماء شيء ، إلاّ خلع قلبه ، إلاّ من يربط الله على قلبه .

وفيه عن مجاهد قال : «بين الملائكة وبين العرش سبعون حجاباً ، حجاب من نور ، وحجاب من ظلمة ، وحجاب من نور ، وحجاب من ظلمة .

وفي النهاية : ان جبريل (ع) قال : لله دون العرش سبعون حجاباً ، لو دنونا من أحدها لأحرقتنا سبحات وجه ربنا» وقال : هي في الأصل جمع سبحة : جلاله وعظمته ، وقيل أضواء وجهه ومحاسنه.

وأخرج البيهقي في كتاب «الصفات» عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله (ص) : «دون الله سبعون ألف حجاب من نور وظلمة ، ما يسمع من نفس شيء من حس تلك الحجب إلاّ زهقت نفسه» ، ا هـ مخيون .

والحق ان حجب أنواره لا حصر لها ، لأن ما من شيء إلا وهو حجاب من حجب وجه ربنا ، وآية من آيات وحدانيته .

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

ويمثل ذلك يفهم قوله تعالى : ﴿الله نور السموات والأرض﴾[1] الآية ، وقوله : ﴿ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله﴾[2] .

وبذلك تعلم أن ذكر عدد السبعين في حجبه ، ليس للحصر .

قال الأزهري وغيره من علماء اللغة : «العرب تضع السبع موضع التضعيف ، وان جاوز السبع» .

وأصله قوله تعالى : ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل﴾[3] الآية .

وأصل اعتبار هذا العدد في تضعيف حجبه : ان لله صفات ذاتية ، وهي : العلم، والحياة، والقدرة، والإرادة ، والسمع ، والبصر ، والكلام . فهذه سبع صفات ذاتية[4] يتجلى سبحانه في حجب أنوارها بوجه توحيده ، فكانت هي مبدأ التضعيف في حجب أنواره .

ثم لأعداد التضعيف ثلاث رتب : رتبة العشرة ، ورتبة المائة ، ورتبة الألف . وآيات صفاته في تجلياتها تتضاعف بكل رتبة في دائرة من دوائر ملكه ، فإن تضاعفت برتبة العشرة كانت سبعين ، وإن تضاعفت برتبة المائة كانت سبعمائة ، وإن تضاعفت برتبة الألف كانت نهاية الكثرة.

وقد نبه (ص) على الثلاثة بقوله : «من هم بحسنة فعملها كتبها الله عنده

---

(١) سورة النور ؛ الآية : ٣٥ .

(٢) سورة البقرة ؛ الآية : ١١٥ .

(٣) سورة البقرة ؛ الآية : ٢٦١ .

(٤) قوله : «سبع صفات» في كتاب «القول السديد في علم التوحيد» للشيخ أبي دقيقة : اتفق أهل الحق على أن الواجب لذاته متصف بجميع صفات الكمال . واتفق علماء الكلام من أشاعرة ، وماتريدية ، ومعتزلة ، وحكماء ، على وجوب التصديق بكون الواجب لذاته : قادراً مريداً عالماً حياً سميعاً بصيراً متكلماً : لقيام الأدلة الخاصة بكل صفة من هذه الصفات ، وما لم يقم عليه دليل بخصوصه من الكمال : يجب التصديق به إجمالاً ؛ هـ بتصرف مخبون .

عشر حسنات ، إلى سبعمائة ضعف ، إلى أضعاف كثيرة»[1] .

ووراء ذلك أسرار كثيرة : يمنحها الله لمن يشاء من عباده .

تبصرة : وأما سبحات وجهه سبحانه ، فقد ثبت في الصحيح : (لو كشف حجابه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه)[2] .

وقد أولها العلماء بجلاله ، وهو تأويل صحيح ، لكن وجه ربنا ذو الجلال والإكرام ، فله بجلاله سبحات ، وله بإكرامه سبحات .

وإذا أردت أن تجري في التأويل على وفق الاستعمال اللغوي ، والقواعد التي مهدناها : فاعلم ان السبحات جمع سبحة ، والسبحة في اللغة ما يتطوع به من ذكر ، وصلاة وتسبيح ونحوها ، مما لا يحصىٰ أفراده .

وقد ثبت ان أنوار الطاعات حجب وجهه سبحانه ، ونور الذكر شامل لجميعها ، ومهيمن على سائر سبحات الإكرام والجلال ، وقد قال تعالىٰ : ﴿فاذكروني أذكركم﴾[3] .

فذكر الله لنفسه ولعبده : سبحة وجهه الشاملة لأنواع سبحاته ، وذكر العبد له : نور حجابه .

فما دام العبد يشهد ذكره لربه ، فوجه ربه متجل عليه في حجابه بسبحة ذكره ، كما ثبت في الصحيح : «أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه حين

---

(١) رواه الشيخان وغيرهما : ان الله كتب الحسنات والسيئات ، ثم بيّن ذلك ، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، وان هم بها فعملها : كتبها الله عنده عشر حسنات ، إلى سبعمائة ضعف ، إلى أضعاف كثيرة ، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، وان هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة» ، ا هـ مخيون .

(٢) في صحيح مسلم في «كتاب الإيمان» عن أبي موسىٰ : قام فينا رسول الله (ص) بخمس كلمات ، فقال : «إن الله عزّ وجلّ لا ينام ، ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور» وفي رواية أبي بكر «النار» لو كشفه لأحرقت سبحات وجه ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه» . قال النووي : سبحات وجهه ، أي نوره وجلاله وبهاؤه ، والسبحة : الدعاء ، وصلاة التطوع ، وسبحة الله : جلاله ، قاموس ا هـ مخيون .

(٣) روى الشيخان عن أبي هريرة : «أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه حين يذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه» ا هـ مخيون .

يذكرني»[1] .

ولا يزال العبد يذكر الله ، وذكره له يبعده من شهود نفسه ونسبتها ، ويقربه من شهود توحيد ربه ، حتى ينكشف حجاب ذكر الله له ، ويتجلىٰ له سبحة ذكر الله له ، هنالك تحرق سبحته بسبب نسب الأفعال والأذكار للعبد ، وتظهر نسبتها للرب ، كما ثبتت في الصحيح : «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها»[2] .

تنبيه : قوله : «لأحرقت سبحات وجهه ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه» اعلم أن بصره تعالىٰ لا تتناهىٰ مبصراته ، ولا يحجبه عن خلقه حجاب ، وإنما ينكشف لك معنىٰ الحديث بمراجعة ما قررته لك ، وبقوله (ص) : «الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[3] فنبه ـ بالشرط ـ على أن العبد لا يشهد رؤية الله له حتى يغيب عن صفته ورؤيته ومراقبته لربه ، فكل عبادة تصحبها المراقبة ، فهي نور من حجب وجهه سبحانه ، ينظر العبد منه إلى ربه ، وينظر الله منه إلى عبده[4] فإذا كشف للعبد فيها حجاب المراقبة : شهد رؤية الله سبحانه له ، فانتهاء بصره عبارة عن انتهائه بحسب كشف العبد . وشهوده ، لا بحسبه في نفسه ، فإنه لا إنتهاء له ، وخلقه هو صفة العبد ، ورؤيته وإحراقه ، هو : محوه بثبوت صفة الرب ورؤيته للعبد ، وصفة الرب ورؤيته هي : سبحة **﴿كل من عليها فان ويبقىٰ وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾** .

إشارة : أورد محمد بن علي الأصفهاني[5] عن مجنون ليلى في محاومة هذا المعنى ، ببيتين :

رأى ليلى : فأعرض عن سواها ... محب : لا يرى حسناً سواها[6]

---

(١) رواه البخاري ا هـ مخيون .

(٢) رواه البخاري .

(٣) قطعة من حديث في صحيح البخاري «كتاب الإيمان» ، ا هـ مخيون .

(٤) لعل معناه حديث مسلم : «ان الله لا ينظر إلى أجسامكم ، ولا إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم» ، ا هـ مخيون .

(٥) أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد الأموي ، صاحب كتاب الأغاني المشهور بأبي الفرج الأصفهاني ، توفي سنة ٣٥٦ ، ا هـ مخيون .

(٦) البيتان في الأغاني بآخر ترجمة المجنون ، ولكن الشطرة الأولىٰ هكذا :

بكى فرحاً لليلى إذ رآها ... محب ... الخ ، ا هـ مخيون

لقد ظفرت يداه ، ونال ملكاً لئن كانت تراه كما يراها

فنبه على أن الملك والظفر ليسا في رؤيته هو لها ، وإنما هما في رؤيتها له .

وقوله : كما يراها ، فيه تنبيه على تجلي السبحة ، وذلك انه رأى ليلى على وجه الإفراد ، فلم ير معها غيرها ، ولهذا قال : «فأعرض عن سواها» حتى عن نفسه ، ولهذا قال : «أنا ليلى وليلى أنا» فنبه على أن الملك هو أن تراه كذلك ، فلا يراه غيرها ، وهذا فيما نحن فيه لا يتم إلاّ بتجلي السبحة المقدسة ، فإنها إذا تجلت أحرقت الحادث من صفة العبد ، وتبقىٰ صفة الرب هي المرئية له ، كأنها[1] هي المرئية لعبده ، فهنالك تظفر يداه وينال ملك التصريف ، بقوله : «كنت سمعه الذي يسمع به» الحديث .

«إشارة» بهذا يفهم سر أمر الله لنبيه محمد (ص) أن يقرأ على أبي[2] (رضي الله عنه) ، لم يكن مع قوله (ص) : «أقرؤكم أبي»[3] مع العلم بأن أبيا لم يكن أحفظ الصحابة للقرآن[4] ، ولا أفصحهم في القراءة ، ولا أفقههم في أحكامه ، ولكن لعله كان عند قراءة القرآن أصفاهم مراقبة لتلاوة النبي (ص) كذلك الذي

---

(١) في الشامية «كما أنها» فتأمل . مخيون .

(٢) عن أنس قال : «قال رسول الله (ص) لأبي بن كعب : ان الله أمرني أن أقرأ عليك ﴿لم يكن الذين كفروا﴾ قال : وسماني ؟ قال : نعم ، فبكىٰ» متفق عليه . مخيون .

(٣) روى البخاري في التفسير ، عن عمر (رضي الله عنه) : اقرؤنا أبي ، وأقضانا علي ، وانا لندع من قول أبي ، وذاك أن أبياً يقول لا أدع شيئاً سمعته من رسول الله (ص) ، وقد قال الله تعالىٰ : ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها﴾ .

قال العيني : هذا حديث موقوف ، وأخرجه الترمذي وغيره عن أنس مرفوعاً به ، وذكره جماعة .

وأوله : «ارحم أُمتي أبو بكر» وفيه «وأقرؤهم لكتاب الله أبي بن كعب» الحديث ، وصححه الترمذي ، وقال غيره : والصواب ارساله» ، اهـ .

فلعل الشيخ أستند على رواية من رفع ، اهـ مخيون .

(٤) في الصحيحين ، في المناقب وفضائل القرآن ، عند عبد الله بن عمرو ، سمعت رسول الله (ص) يقول : «خذوا القرآن من أربعة : من ابن أُم عبد» فبدأ به «ومعاذ بن جبل ، وأبي بن كعب ، وسالم مولىٰ أبي حذيفة» .

فلعل الشيخ استنتج من قول عبد الله بن عمرو «فبدأ به» عن ابن أُم عبد ، وهو عبد الله بن مسعود : أن أبياً لم يكن أحفظ الصحابة (رضوان الله عليهم) . اهـ مخيون .

يقـرؤه ويغيب بذلـك عن قراءة نفسـه ، حتى كـأنـه يسمعـه من النبي (ص) ، وممـا يـدل على ذلـك ويـوضحـه لـك ، أن السـورة التـي أمـر بقـراءتـهـا هي : ﴿**لم يكن الذين كفروا**﴾وهي مشتملة على قـوله : ﴿**حتى تأتيهم البينة * رسـول من الله يتلوا صحفاً مطهرة * فيها كتب قيمـة**﴾ فكان أبي إذا قـرأها صغي بـأذن قلبه إلى روح النبوة يتلوا عليه ذلك ، فأراد الله أن يحقق لـه في عالم الشهـادة من تلاوة النبي (ص) ما كان يشهده في عالم الغيب .

(لـطيفة) : حكمـة استعارة الإحـراق لمحـو صفـات الخلق : التنبيـه على أن حقيقـة الخلق تراب ، وبـاقي صفات الخلق إنمـا هي أثر تجليـات الحق بصفاتـه ، فلو ظهـرت صفاتـه رجع الخلق إلى أصله تـرابـاً ، كمـا أن النـار أي شيء أحـرقتـه جعلته رماداً ، وأزالت جميع صفاته .

«تـربية» : قـد قدّمنـا ان قولـه : ﴿**كل من عليهـا فان * ويبقى وجـه ربـك ذو الجلال والإكرام**﴾ ينبـه على أن لوجهـه الكريم تجليين : تجـل بجلالـه في حجاب النار ، وتجل باكرامه في حجاب النور ، فيحتاج أهـل المراقبـة إلى معرفـة قبلة هذا التجلي وميقاته ومشرقه .

فاعلم يا عبد الله أن قبلة هذا التجلي القلب ، وميقاته : الصلاة .

ومشرق الجلال : سبحان الله .

ومشرق الإكرام : الحمد لله .

فمن أراد شهود وجه ربه الباقي ، فليجعـل قبلته قلبـه ، وميقاتـه صلاتـه ، ثم له حالان :

الحـال الأول : أن يغلب على قلبـه تنزيهـه ممـا سـوى الله ، فهـذا مشـرقـه سبحان الله ، ووجه ربه يتجلى عليه بجـلاله في حجـاب النار ، كمـا تجلى لموسى (ع) ، ولهـذا أمر الله أتبـاعه أن يقتـدوا به في ذلـك بقولـه : ﴿**واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيمـوا الصـلاة**﴾(*) فهـذه القبلة والميقـات . ونبـه على تجليـه عليـه في مشـرق «سبحان الله» في حجاب النار ، بقوله : ﴿**فلما جاءها نـودي أن بورك من في النـار ومن حـولهـا وسبحـان الله رب العالـمين * يـا مـوسى إنـه أنـا الله العـزيـز الحكيم**﴾(**) .

(*) سورة يونس ؛ الآية : ٨٧ .

(**) سورة النمل ؛ الآيتان : ٨ و ٩ .

والحال الثاني : أن يغلب على قلبه شهود النعم والفضل لله ، بلا شريك ، فهذا مشرقه : الحمد لله ، ووجه ربه يتجلى عليه بإكرامه في حجاب النور ، كما تجلىٰ لسيدنا إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) ، فكانت قبلته قلبه ﴿إذ جاء ربه بقلب سليم﴾ وكان ميقاته صلاته ومشرقه : الحمد لله ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين * شاكراً لأنعمه﴾[1]، وكان التجلي بالإكرام في حجاب النور ، وهي أنوار : الكوكب ، والقمر ، والشمس ، فقال : ﴿هذا ربي﴾ .

إشارة : إذا أردت أن تعلم أن ربه تجلى له بالإكرام ، فتدبر قوله تعالىٰ : ﴿هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين﴾[2] فإذا كان ضيفه بسببه مكرماً ، فما ظنك به ، وإذا أردت أن تعلم أن نظره كان لنور ربه ، لا للنجوم والكواكب ، فتدبر قوله : ﴿فنظر نظرة في النجوم﴾[3] جعل النجوم ظرفاً للمرئي ، لا نفس المرئي ، وكيف لا ، وقد رأى ملكوت السموات والأرض و ﴿الله نور السموات والأرض﴾[4] ﴿ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله﴾[5] ومن جمع بين مشرق : سبحان الله والحمد لله ، تجلىٰ له ربه بكماله الجامع بين التجليين ، وأراه آيته الكبرىٰ ، كما تجلىٰ لمحمد (ص) ليلة الإسراء ، ونبه عليه قوله : ﴿سبحان الذي أسرىٰ﴾ إلى قوله : ﴿وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً﴾ الآية ، ولما تحقق بـ «سبحان» أولاً ، وبـ «الحمد لله» آخراً تجلىٰ له وجه ربه بكماله الجامع للجلال والإكرام في مشرق «لا إله إلا الله» الجامع لسبحان الله والحمد لله ، وهي آية ربه الكبرىٰ ، ولهذا قال آخر السورة ﴿وكبره تكبيراً﴾ وسيأتي لذلك مزيد بيان في مسألة الإسراء إن شاء تعالىٰ .

---

(١) سورة النحل ؛ الآية : ١٢٠ و ١٢١ .
(٢) سورة الذاريات ؛ الآية : ٢٤ .
(٣) سورة الصافات ؛ الآية : ٨٨ .
(٤) سورة النور ؛ الآية : ٣٥ .
(٥) سورة البقرة ؛ الآية : ١١٥ .

فصــل

السمع ، والبصر ، والعين ، والأعين[1]

من الآيات المتشابهة آيات السمع والبصر والعين والأعين ، وقد دل الكتاب والسنة على أنهما قسمان : عادي وحقيقي ، فالعادي : سمع القلب بالأذن وإبصاره بالعين ، وهو عام في المؤمن والكافر ، والحقيقي : بصر العين بالقلب ، وسمع الأذن به ، وقد نفاه الله عن الكافر في غير ما آية ، منها قوله تعالى : ﴿ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون﴾[2] وفي قوله : ﴿وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون﴾[3] فأثبت لهم السمع والبصر العاديين ونفى عنهم الحقيقي ، وبهذا يفهم قوله تعالى : ﴿ونحشره يوم القيامة أعمى * قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً﴾[4] مع العلم بأن الله يعيدهم بأبصارهم العادية ،

---

(١) نقل في فتح الباري عن ابن دقيق العيد ، قال : «نقول في الصفات المشكلة : انها حق وصدق على المعنى الذي أراده الله تعالى ، ومن تأولها نظرنا ، فإن كان تأويله قريباً على مقتضى لسان العرب لم ننكر عليه ، وإن كان بعيداً توقفنا عنه ورجعنا إلى التصديق مع التنزيه ، وما كان منها معناه ظاهراً مفهوماً من تخاطب العرب حملناه عليه ، كقوله : (على ما فرطت في جنب الله) فإن المراد به في استعمالهم الشائع : حق الله ، فلا يتوقف في حمله عليه ، وكذا قوله (ص) : «ان قلب ابن ادم بين أصبعين من اصابع الرحمن» فإن المراد به إرادة قلب ابن أدم مصرفة بقدرة الله ، وما يوقعه فيه . وكذا قوله تعالى : ﴿فأتى الله بنيانهم من القواعد﴾ معناه خرب الله بنيانهم ، وقوله : ﴿إنما نطعمكم لوجه الله﴾ معناه لأجل الله ، ا هـ مخيون .

(٢) سورة الأنفال ؛ الآية : ٢١ .

(٣) سورة الأعراف ؛ الآية : ١٩٨ .

(٤) سورة طه ؛ الآيتان : ١٢٤ و ١٢٥ .

كحالهم في الدنيا تحقيقاً : لقوله تعالىٰ : ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده﴾ .

ولكن الحكم في تلك الدار للأبصار الحقيقة ، المستفادة من نور صفاته بواسطة استجابة القلب لأياته ، وتوجهها بنورها إلى عالم الغيب ، وقلب الكافر في الدنيا كان خالياً من نور التوحيد ، فكان بصره لا يرجع إلى قلبه ، لأنه لا مدد له إلّا من نور حسه ، وهو أعمى عن نور آيات التوحيد ، لا جرم انه يحشر يوم القيامة أعمىٰ كما كان في الدنيا ﴿لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء﴾ فلذلك إذا قال : ﴿لم حشرتني أعمىٰ وقد كنت بصيراً * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها﴾ أي لا بصر في هذه الدار إلّا من نور صفاتي المستفاد من الاستجابة لآياتي ﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور﴾ فإذا صح لك أن السمع الحقيقي ، والبصر الحقيقي : عبارة عن سمع القلب وبصره ، وأن الجوارح ، وهي : العين والأذن ، تحتاج إليه ، وهو غني عنها ، أمكنك حينئذ أن تفهم إثبات السمع والبصر لله سبحانه ، وكذا بقية الإدراك ، مع استغنائه في ذلك عن الجوارح ، وتعاليه عنها .

وأما نسبة العين إليه : فهي اسم لآياته المبصرة ، التي بها ينظر سبحانه للمؤمنين ، وبها ينظرون إليه ، قال تعالىٰ : ﴿فلما جاءتهم آياتنا مبصرة﴾[*] فنسب البصر للآيات على سبيل المجاز تحقيقاً ، لأنها المرادة بالعين المنسوبة إليه ، وقال تعالىٰ : ﴿قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها﴾[1] وعلى هذا يتنزل قوله تعالىٰ : ﴿واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا﴾[2] أي بآياتنا تنظر بها إلينا، وننظر بها إليك ، ويؤيد أن المراد هنا بالأعين الآيات : كونه علل بها الصبر لحكم ربه ، وعلله بآيات القرآن صريحاً في قوله تعالىٰ : ﴿إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً * فاصبر لحكم ربك﴾[3] .

قال تعالىٰ في سفينة نوح : ﴿تجري بأعيننا﴾ أي بآياتنا وعنايتنا ، بدليل قوله تعالىٰ : ﴿وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها﴾[4] وقال تعالىٰ في موسىٰ (ع) : ﴿ولتصنع على عيني﴾ أي على حكم آيتي التي أوحيتها إلى أمك : ﴿أن

(*) سورة النمل ؛ الآية : ١٣ .
(١) سورة الأنعام ؛ الآية : ١٠٤ .
(٢) سورة الطور ؛ الآية : ٤٨ .
(٣) سورة الإنسان ؛ الآيتان : ٢٣ و ٢٤ .
(٤) سورة هود ؛ الآية : ٤١ .

أرضيعه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾[1] ويؤيد أن المراد ذلك كونه ظرف صنعه على عينه ﴿إذ تمشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن وقتلت نفساً فنجيناك من الغم﴾ فمن تدبر ذلك علم صحة ما قلناه ، وفتح له باب عظيم في تفسير كلام الله بعضه ببعض .

---

(١) نقل الشنقيطي عن ابن المنير في «استحالة المعية بالذات» : ولأهل الكلام في هذه الصفات كالعين والوجه واليد ، ثلاثة أقوال :

أحدها : انها صفة ذات ، أثبتها السمع ، ولا يهتدي إليها العقل .

والثاني : ان العين ، كناية عن صفة البصر ، واليد ، كناية عن صفة القدرة ، والوجه ، كناية عن صفة الوجود .

والثالث : أمرارها على ما جاءت ، مفوضاً معناها إلى الله تعالى .

ونقل : «أن الزمخشري لوح في الكشاف في سورة المؤمنين : أن فائدة الجمع في قوله (بأعيننا) للدلالة على المبالغة في الحفظ ، بعد ما نقل عن روح المعاني : أن معنى باعيننا أي في حفظنا وحراستنا ، فالعين مجاز عن الحفظ ، وتستعار العين لمعان كثيرة منها : العلم ، والبصر ، والحفظ» ، أ هـ مخبون .

فصـل النفس

ومن المتشـابـه : صفـة النفس ، في قـولـه تعـالى : ﴿تعلم مـا في نفسي ولا أعلم مـا في نفســك﴾[1] لأن النفس في اللغـة تستعمـل بمعـان ، كلهـا تتعــذر في الظاهر هٰهنـا ، وقد أولهـا العلماء بتـأويلات ، منهـا : ان النفس عبر بهـا عن الذات والهوية ، وهذا ـ وإن كان شائعاً في اللغـة ـ ولكن تعدىٰ الفعـل إليها بـواسطة «في» المفيدة للظرفية محـال ، لأن الظرفيـة يلزمها التـركيب ، والتركيب في ذاتـه محال : يجل عنه تبارك وتعالىٰ .

وقـد أولهـا بعضهـم بـالغيب ، أي ولا أعلم مـا في غيبـك [و] سـرك ، وهـذا أحسن لقوله آخر الآية : ﴿إنك أنت عـلام الغيوب﴾ ولكن قـانون اللغـة يأبـاه ، ولا بد من تخريجه على ما مهدناه حتى تنتـظم أشتات الصفـات ، وذلك أن الصـورة إذا كـانت ظلة غمام آيـاتـه ، فنفسـه هي أم كتـابـه ، وهي الآيـات المحكمـات ، قـال تعـالى : ﴿هو الـذي أنزل عليـك الكتاب منـه آيات محكمـات هن أم الكتـاب﴾[2] والآيـات المحكمات هي الـدالة على وحـدانيته ، بـدليل قـوله تعـالى في أول هـود ﴿كتـاب أحكمت آياتـه ثم فصلت﴾ الآية ، ثم فسـر أحكامهـا بالتـوحيد في قـولـه : ﴿ألا تعبـدوا إلاَّ الله﴾ وفسـر تفصيلهـا بـالاستغفـار والتـوبـة ، في قـولـه : ﴿وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه﴾ ونبه على أن آياته المحكمة يـرجع أعـدادها إلى آيـة واحـدة ، محكمة ، وهي : ﴿لا إلـه إلاَّ الله﴾ فمـا من علم من العلوم في الغيب ولا

(١) سورة المائدة ، الآية : ١١٦ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية : ٧ .

في الشهادة ، إلاَّ وهو منتظم في سلك «لا إله إلاَّ الله» ، مستثمر من ثمار أسرارها ، ولهذا اكتفىٰ بعلمها للنبي (ص) إجمالاً وتفصيلاً في قوله تعالىٰ : ﴿فاعلم أنه لا إله إلاَّ الله واستغفر لذنبك﴾ الآية(*) .

«تنبيه» :

قوله تعالىٰ : ﴿تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك﴾ إذا خرجته على هذا تطلع على أسرار بديعة ، وذلك أن السياق اشتمل على سؤال عيسىٰ (ع) عما بلغه لبني إسرائيل ، هل أمرهم بتوحيد ربهم أم بأن يعبدوا له ولأمه .

ومن المعلوم أنه لم يكن أمرهم إلاَّ بالتوحيد ، فلما أراد أن يخبر بذلك تلطف في الأخبار به إجمالاً وتفصيلاً .

أما تفصيلاً فبقوله : ﴿ما قلت لهم إلاَّ ما أمرتني به﴾ الآية .

وأما إجمالاً فبقوله : ﴿تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك﴾ فقوله : ﴿ولا أعلم ما في نفسك﴾ أي أم كتابك المشتمل على سر قدرك ، وان القلم جرى فيه بكفرهم .

وقوله : ﴿تعلم ما في نفسي﴾ أي أم كتابي ، وهو ما كتبه الله له من بينات التوحيد ، وأيده به من روح القدس ، قال تعالىٰ : ﴿وآتينا عيسىٰ بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس﴾(**) .

«تبصرة» : شأن المحجوبين عن الله من أرباب الرئاسة ، موادة من عبدهم ومن عبد أقاربهم لأجلهم .

وأهل القلوب المؤمنة مبرءون من ذلك ، بمقتضىٰ قوله تعالى : ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله﴾ إلى قوله : ﴿أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه﴾[1] ومن المعلوم أن عيسىٰ (ع) كتب في قلبه الإيمان ، وأيد بالروح ، فلهذا قال : ﴿تعلم ما في نفسي﴾ أي ما كتبته من الإيمان في قلبي ، وأيدتني به من الروح ، وان ذلك ثمرة كوني لم أوادد

(*) سورة محمد ؛ الآية : ١٩ .

(**) سورة البقرة ؛ الآية : ٢٥٣ .

(١) سورة المجادلة ؛ الآية : ٢٢ .

هؤلاء الذين عبدوني وعبدوا أمي من دونك ﴿وأنت علام الغيوب﴾ .

«تنبيه» : قوله : ﴿أمرتني به﴾ ولم يقل أمرت به ، مع أن الأمر بالتوحيد ، ولم يختص به ، بل أمر به جميع الأنبياء ، ولكنه نبه بذلك على سر القدر ، وأن الأمر أمران : أمر حقيقة ، وأمر شريعة .

فأمر الحقيقة : هو المشار إليه بقوله تعالىٰ : **﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾**(1) وهو متوجه إلى جميع الكائنات ،فما من كفر ولا إيمان إلاّ وهو مأمور به ـ بهذا الاعتبار(*) ـ لأنه لا يكون إلاّ بأمره .

وأما أمر الشريعة : فهو الذي ربط به الثواب والعقاب ، وقامت به الحجة **﴿لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون﴾**(2) فمن هذا يفهم السر في قول عيسىٰ **﴿أمرتني به﴾** خصصه بالإضافة إليه ، تنبيهاً على أمر الشريعة ، ولم يقل أمرت : تنبيهاً على أمر الحقيقة .

«إشارة» : بما كان في هذا اشتباه على المحجوبين ـ من المعتزلة وغيرهم ـ الذين يقولون : إن كفر العبد منسوب إلى اختراعه، غير مستند إلى إرادة ربه ، وإلاَّ لما جاز له أن يعاقبه عليه ، لا جرم بين الله جوابهم على لسان نبيه عيسىٰ (ع) ، في قوله تعالىٰ : **﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك﴾**(3) علل تعذيبه لهم بأنهم عباده ، تنبيهاً على أن التعذيب لا يحتاج في جوازه عقلاً إلى معصية ولا كفر ، ولهذا لم يقل فانهم عصوك ، وإنما مجرد كونهم عباداً يجوز للمالك أن يفعل بهم ما يشاء .

له حق وليس عليه حق ومهما قال فالحسن الجميل

«مناجاة» : إلهي جلت عظمتك أن يعصيك(4) عاص أو ينساك ناس ، ولكن أوجبت أوامرك في أسرار الكائنات ، فذكرك الناسي بنسيانه ، واطاعك العاصي

---

(1) سورة النحل ؛ الآية : 40 .

(*) قوله : بهذا الاعتبار موضع لما يقصد الشيخ (رحمه الله تعالىٰ) إذ الموضوع : يتعلق بالخلق ، والايجاد ، والتقدير وما إلى ذلك ، والله أعلم .

(2) حسب حكم الشريعة .

(3) المعبود يفعل في عبده ما يشاء ، لأنه مالكه .

(4)، وهذا مفسر لكل ما قاله (رضي الله عنه) .

بعصيانه ، وان من شيء إلّا يسبح بحمدك ان عصى داعي إيمانه ، فقد أطاع داعي سلطانك[1] ولكن قامت عليه حجتك **﴿ولله الحجة البالغة﴾** **﴿لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون﴾** .

«اعتبار» قوله : **﴿ويحذركم الله نفسه﴾** أي ويحذركم أم كتابه ، بدليل قوله أول الآية : **﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء﴾**[2] . . . الآية ، مع قوله : **﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه﴾**[3] مع ما ثبت في صحيح مسلم وغيره من قوله (ص) : «فوالذي لا إله غيره ان أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلّا ذراع واحد ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلّا ذراع واحد ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»[4] الحديث .

فهذا تحذير من أم الكتاب ، الذي يكون خاتمة العبد على وفق ما سبق له فيه ، وبهذا يفهم السر في ذكر النفس ، وأم الكتاب متقاربين في أول السورة[5] .

«إشارة» في الحديث : أن خشية سوء الخاتمة مخصوصة بأهل أعمال الجنة ، وأما أهل الاخلاص لأعمال التوحيد فلا يخشى عليهم سوء الخاتمة ، ولهذا قال : «ليعمل بعمل أهل الجنة ، حتى ما يكون بينه وبينها إلّا ذراع واحد» فافهم بذلك ان المتقرب متقربان : متقرب إلى الجنة بأعمالها ، ومتقرب إلى الله

---

(١) وهذا مفسر ـ أيضاً ـ لما قال آنفاً .

(٢) سورة آل عمران ؛ الآية : ٣٠ .

(٣) سورة الكهف ؛ الآية : ٤٩ .

(٤) رواه البخاري في التوحيد ، ومسلم في القدر بمغايرة طفيفة : «ان أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً ، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك ، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقي وسعيد ، فوالذي لا إله غيره أن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلّا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وان أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلّا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها» .

(٥) يقصد ـ والله تعالى أعلم ـ قوله تعالى : **﴿هن أم الكتاب﴾** الآية : ٧ ، وقوله : **﴿ويحذركم الله نفسه﴾** من سورة آل عمران ؛ الآية : ٣٠ .

بذكره ، كما ثبت في الصحيح : «أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه حين يذكرني» إلى قوله : «وإذا تقرب إلي ذراعاً تقربت منه باعاً»[1] وذلك يفهمك ان المتقرب إلى الله ، لا يمكن أن يبقى بينه وبينه ذراع ، لأن ذلك الذراع إن كان التقرب به مطلوباً من العبد ، لم يبق بعده مقدار يتقرب الله به إليه ، وحينئذ فيستلزم الخلف في وعده ، وهو محال ، وإن كان موعوداً به من الله : لزم تنجيز وعده ، وتحقيق القرب للعبد ، فلا يبقى بعد ولا دخول إلى النار .

فعلم أن ذلك الذراع مخصوص بأهل التقرب إلى الجنة ، التي لا يلزم أن تقرب ممن تقرب إليها ، فافهمه فإنه بديع .

«تتمة» قوله في الحديث: «فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي» .

إذا أردت تخرجه على ما تقدم ، فمعناه أن العبد إذا ذكر الله في سره فذكره له من آيات توحيده المتشابهة ، فلا يزال يذكر ويشهد ذكر نفسه ، حتى ينكشف حجابه كما قدّمناه في حجب الوجه وسبحاته ، فهناك يحترق ذكر العبد المخلوق ، ويتجلى ذكر الله لعبده بسبحاته ، فيصير العبد مذكوراً والله ذاكراً ، وذلك من آيات التوحيد المحكمة ، وهي أم الكتاب ، فلهذا عبر عنها بالنفس ، ونسبت إليه سبحانه في قوله : «ذكرته في نفسي» .

قوله : «وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه» ، هذا من باب الترقي من حال الجمع والفناء إلى حال الفرق والبقاء[2] وذلك لأن العبد إذا جمعه الله عليه بذكره له في نفسه وحده ، أفناه ، فإذا أراد أن يجعله هادياً بعثه لذكر الله في الملأ ، فذلك ابقاؤه ، فإذا ذكره : ذكره الله في ملأ خير منه .

---

(١) في صحيح البخار «كتاب التوحيد» يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني فإن ذكرني في نفسه ، ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم ، وإن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة» ا هـ مخيون .

(٢) قال العارف الكامل : وشيخنا أحمد الصاوي في شرح منظومة الأسماء الحسنى لشيخه الدردير : «الفناء هو استغراق العبد في الله حتى لا يشهد سوى ذات الله ، ويُقال لصاحبه : غريق في بحار الأحدية .

والبقاء: هو الرجوع بعد الفناء الى ثبوت الآثار بشهود ذات وصفات المؤثر فيها، ويقال لصاحبه: غريق في عين بحر الوحدة.

فصل القرب

ومنها صفة القرب في قوله تعالى : ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب﴾[1] وقوله : ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾[2] ونحوه يفهمك أن

---

(١) قال الشعراني في اليواقيت جـ ١ ص ٦٧ .

«قال الشيخ محيي الدين في «باب حضرات الأسماء» من الفتوحات في الكلام على اسمه «الرقيب» : «إعلم أنه ليس في حضرات الأسماء الإلهية ما يعطي التنبيه على أن الحق تعالى معنا بذاته إلّا الاسم «الرقيب» لأنه نبه على أن الذات لا تنفك عن الصفات لمن تأمل ، ويؤيد ذلك قول الأعرابي للنبي (ص) : «لا نعدم خيراً من رب يضحك» فإنه اتبع الضحك توابعه . أ هـ .

قلت : وهذه المسئلة من المعضلات ، لاختلاف السلف فيها قديماً وحديثاً ، ولكن من يقول : أن المعية راجعة للصفات لا للذات أكمل في الأدب ممن يقول انه تعالى معنا بذاته وصفاته ، وإن كانت الصفة الإلهية لا تفارق الموصوف» .

ثم ذكر الشعراني المجلس الذي عقد بالأزهر سنة خمس وتسعمائة بين الشيخ إبراهيم المواهبي الشاذلي ، والشيخ بدر الدين العلائي الحنفي ، وصنف الشيخ إبراهيم فيها رسالة ، وأيده الشيخ العارف بالله محمد المغربي الشاذلي ، شيخ الجلال السيوطي في المجلس ، وقد نسب الشيخ إبراهيم كلاماً لابن اللبان ، ككلام هذه الرسالة ، مما يبيّن أن الشك في نسبتها قديم .

وقد أنكر الشيخ محمد الخضر بن مايابي الشنقيطي شقيق الشيخ «حبيب الله» في رسالته : «استحالة المعية بالذات» ص ٩٠ وما بعدها هذه المسألة ، ورد عليها بكلام طويل ، فليراجع مع اليواقيت ، ولم نذكره .

ولحكاية الشيخ الشعراني : الخلاف فيها قديماً وحديثاً» ا هـ .

(٢) سورة ق ؛ الآية : ١٦ .

قوله : «وان تقرب إلي شبراً تقربت منه ذراعاً» ليس على ظاهره ، لأن قربه سبحانه من العبد بنوره لا يزال ولا تتفاوت درجاته ، وإنما البعد صفة العبد ، وبعده عن الله هو حجابه عن شهود قرب الله منه ، وشهود قربه على حسب نور الإيمان والاستجابة ، وبهذا يكون تقرب العبد إلى ربه .

وأما تقرب الرب إلى العبد فارشاده بنوره لنور» ، وقد جمع الله ذلك كله في قوله : **﴿فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾** .

تنبيه قوله : **﴿ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون﴾** [1] يدل على أن قربه من عبده سبحانه قرب حقيقي[2] مع تعاليه عن المكان لأنه لو كان القرب يراد به قربه بعلمه أو قدرته وصفاته ، لقال : «ولكن لا تعلمون» ونحوه ، فقوله : **﴿ولكن لا تبصرون﴾** يدل على القرب الحقيقي المدرك بالبصر ، والبصر لا تعلق لادراكه بالصفات المعنوية ، وإنما يتعلق بالحقائق المرئية ، وكذلك قوله : **﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾** يدل على ذلك ، لأن (أفعل من) تدل على الاشتراك في القرب ، ولا اشتراك بين قرب الصفات وقرب حبل الوريد ، وعلى هذا فالقرب قرب حقيقي روحاني[3] ، بدليل قوله تعالى : **﴿فأما إن كان من المقربين﴾** [4] أي من الذين يكشف لهم عن نعيم القرب الرباني **﴿فروح وريحان وجنة نعيم﴾** [5] فجعل قربهم : وجدانهم للروح والريحان ، وقد قريء بضم الراء وفتحها ، وقد تقدم في حقيقة الرؤية ما يكشف عن معنى الإدراك للقرب بالبصر .

تبصرة : حكمة مجيء التفضيل لقربه على حبل الوريد : انه تقدم ذكر الوسواس ، ووسواس النفس : من إلقاء الشيطان ، ومجراه الأوردة ، بدليل قوله (ص) : «ان الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم»[6] ومجرى الدم هو عروق الأوردة ونحوها ، فنبه بقوله : **﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾** على أنه أقرب إليه من مجرى الوسواس ، وقلت في ذلك :

---

(١) سورة الواقعة : الآية : ٨٥ .

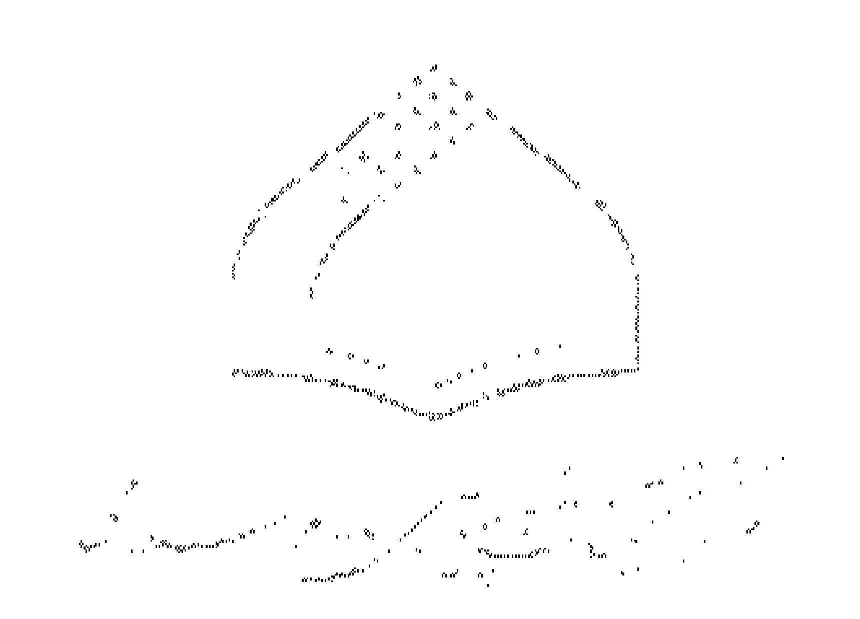
(٢) وقال ابن كثير في تفسيره : يعني ملائكته أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه .

(٣) قوله «روحاني» فسر به ما يقصد فيما سبق (رحمه الله تعالى) :
وبيّن أنه : ليس المقصود به إلتصاق جسم بجسم ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ وأوضحه أكثر فيما بعد عند قوله : ﴿فأما إن كان من المقربين﴾ فالمقربون هنا تقريبهم روحاني .

(٤ ، ٥) سورة الواقعة : الآيتان : ٨٨ و ٨٩ .

(٦) متفق عليه في الصحيحين ، اهـ مخيون .

تشاغل عنا بوسواسه وكان قديماً لنا يطلب
محب تناسى عهود الهوى وأصبح في غيرنا يرغب
ونحن نراه ونملي له ويحسبنا اننا غيب
ونحن إلى العبد من نفسه ووسواس شيطانه : أقرب



فصــل البطش

من صفاته «بطشه» سبحانه ، قال تعالىٰ : ﴿**إن بـطشٍ ربك لشـديد * إنـه هو يبـدئ ويعيد**﴾ ولا تشـابه فيـه ، لأن الآية الثـانية تفسيـر للأولىٰ ، ولـذلك جـاء بها على وجـه البدل ، من غير عطف تنبيهـاً على أن بطشـه عبارة عن تصـرفه في بـدئه وإعادته .

وما من شيء من الكائنـات [جواهـرها وأعـراضها] إلاّ وهي مفتقـرة إلى بدئـه وإعـادته ، فبـطشه سبحـانه : اسم شـامل لجميـع تصرفـاتـه في مخلوقـاتـه : بـدءاً وإعادة .

فصل الأيدي واليدين

نسبة الأيدي إليه : استعارة لحقائق أنوار علوية ، يظهر عنها تصرفه وبطشه : بدءاً وإعادة ، وتلك الأنوار متفاوتة في روح القرب ، وعلى حسب تفاوتها وسعة دوائرها يكون رتب التخصيص لما ظهر عنها ، ألا ترى قوله تعالىٰ في حق آدم : ﴿لما خلقت بيدي﴾[1] كيف يستفاد منه تنويه به وتشريف وتكريم وتخصيص ، ولا يستفاد مثل ذلك من قوله : ﴿أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً﴾[2] وما ذلك إلاَّ لأن حقائق أنوار الأيدي الخالقة للأنعام، ليست في روح القرب ، كحقائق اليدين اللتين خلق بهما آدم .

فإن قلت : فما حقيقة اليدين في خلق آدم . قلت ـ والله أعلم بما أراد ـ ولكن الذي استثمرته ما تدبر كتابه ـ ان اليدين : استعارة لنور قدرته القائم بصفة فضله ، ولنورها القائم بصفة عدله .

ويؤيد ذلك قوله (ص)[3] «يمين ربي ملأى سحاء ، لا يغيضها الليل

(١) سورة ص ؛ الآية : ٧٥ .

(٢) سورة يس ؛ الآية : ٧١ .

(٣) روى البخاري ومسلم عن رسول الله (ص) : «يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء بالليل والنهار ، ارأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يغض ما في يمينه ، قال وعرشه على الماء وبيمينه الأخرىٰ القسط يرفع ويخفض» .

كلاهما عن عبد الرزاق ، وأخرجه البخاري في التوحيد . عن أبي هريرة (رضي الله عنه) ان رسول الله (ص) قال : «يد الله ملأى لا يغيضها نفقة ، سحاء الليل والنهار ، وقال : ارأيتم ما=

والنهار ، ارايتم ما انفق منذ خلق السموات ، فإنه لم يغض ما في يمينه ، وعرشه على الماء ، وبيده الأخرىٰ الميزان : يرفع ويخفض» . فنبه على نور الفضل بيمينه السحاء المنفقة ، وعلى نور العدل باليد الأخرىٰ صاحبة الميزان .

ونبه تعالىٰ بقوله في آدم : ﴿لما خلقت بيدي﴾ على تخصيصه له ، وتكريمه إياه بأن جمع له في خلقه بين : فضله وعدله ، بمقتضىٰ قوله تعالىٰ : ﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحي﴾ فتسويته من عدله ، ونفخ روحه من فضله ، على أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء .

ومما يحقق لك أن اسم اليد استعارة لنوره سبحانه قوله تعالىٰ :﴿وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾[1] فاستعار اليدين للقرآن ، ثم نبه على أنه استعارهما لما اشتمل عليه من نور الفضل ونور العدل ، بقوله : ﴿تنزيل من حكيم حميد﴾[2] فالحكيم : صاحب نور العدل . والحميد : صاحب نور الفضل .

ونبه بجمع الأيدي في خلق الأنعام على أن اليد المنسوبة إليه ليست جارحة ، وإلاّ لم يزد على يدين[3] لأن أفضل المخلوقات في الشاهد «محمد (ص)» وهو لا يزيد على يدين .

وفي الحديث : «الحجر الأسود يمين الله في الأرض»[4] وذلك يفهم أن له يميناً سماوية نسبتها لأهل السماء كنسبة الحجر الأسود لأهل الأرض .

تنبيه : في الصحيح للبخاري[5] وغيره ، في ذلك أحاديث منها حديث

= أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يغض ما في يده ، وقال عرشه على الماء وبيده الأخرىٰ الميزان يخفض ويرفع» .

(١ ، ٢) سورة فصلت ؛ الآيتان : ٤١ ، ٤٢ .

(٣) المعنى لم يوضحه الشيخ ، والله ليس كمثله شيء .

(٤) أخرج الطبراني في معجمه ، وأبو عبيد الله القاسم بن سلام من حديث ابن عباس ، رفعه به . وقد روى موقوفاً على ابن عباس : «الحجر الأسود يمين الله في أرضه» .

(٥) في البخاري في التفسير «عن عبد الله ، قال جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله (ص) فقال : يا محمد انا نجد أن الله يجعل السموات على أصبع ، والأرضين على أصبع ، والشجر على أصبع ، والماء والثرىٰ على أصبع ، وسائر الخلائق على أصبع ، فيقول أنا الملك ، فضحك النبي (ص) حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر ، ثم قرأ رسول الله (ص) : ﴿وما قدروا =

عبيدة عن عبد الله (رضي الله عنه) ، قال : «جاء حبر من اليهود إلى رسول الله (ص) ، فقال : يا محمد ، انا نجد أن الله يجعل السموات على اصبع ، والأرضين على أصبع ، والشجر على أصبع ، والماء على أصبع ، وسائر الخلائق ، ويقول : أنا الملك ، فضحك النبي (ص) حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر ، ثم قرأ : ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ الآية .

قلت : هذا الحديث شديد الاشتباه عند أهل الظاهر ، وهو محمول عند بعضهم : على أن اليهود مشبهة ، ويزعمون فيما أنزل إليهم ألفاظاً تدخل في التشبيه ، ليس القول بها من مذاهب المسلمين ، وبهذا قال الخطابي[1] .

وقال : انه روى هذا الحديث غير واحد عن عبد الله من طريق عبيدة ، فلم يذكروا قوله «تصديقاً لقول الحبر»، ولعله من الراوي ظن وحسبان وسهو .

وضحكه (ص) : يحتمل أنه لتعجبه من كذب اليهود ، ويحتمل أنه لتعجبه من صدقهم .

وقد روى البخاري في أثر هذا الحديث ، حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) قال : «سمعت رسول الله (ص) يقول : يقبض الله الأرض ، ويطوي السموات بيمينه ثم يقول : «أنا الملك : أين ملوك الأرض» .

قال الخطابي : فهذا قول النبي (ص) ولفظه ، وهو على وفق قوله تعالىٰ : ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ الآية ، وليس فيه ذكر الأصابع ولا تقسيم الخليفة .

وقد رواه الترمذي[2] عن ابن عباس (رضي الله عنهما) ، قال : مر يهودي

= الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالىٰ عما يشركون﴾ وأخرجه مسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وغيرهم بألفاظ متقاربة ، قال النووي : هذا من أحاديث الصفات . وقد سبق فيها المذهبان : التأويل والإمساك عنه ، مع الإيمان بها ، مع اعتقاد أن الظاهر منها غير مراد ، فعلىٰ قول المتأولين يتأولون الأصابع هنا على الاقتدار ، أي خلقها مع عظمها بلا تعب ولا ملل» ا هـ مخيون .

(١) أبو سليمان : «أحمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي البستي ، صاحب كتاب «غريب الحديث» وشارح البخاري ، وسنن أبي داود ، توفي سنة ٣٨٨» ا هـ مخيون .

(٢) أخرج أحمد ، والترمذي وصححه ، والبيهقي حديث ابن عباس قال : «مر يهودي بالنبي (ص) ، فقال : يا يهودي حدثنا ، فقال : كيف تقول يا أبا القاسم إذا وضع الله السموات على ذه ، والأرضين على ذه، والماء على ذه ، والجبال على ذه ، وسائر الخلق على ذه» وأشار أبو جعفر ـ أحد رواته ـ بخنصره ، أولاً ، ثم تابع حتى بلغ الإبهام» ا هـ مخيون .

وقال : كيف تقول يا أبا القاسم إذا وضع الله السموات على ذه ، والأرضين على ذه ، والماء على ذه ، والجبال على ذه ، وسائر الخلق على ذه ، وأشار محمد بن الصلت بخنصره أولاً ، ثم بلغ إلى الإبهام ، فأنزل الله قوله تعالىٰ : **﴿وما قدروا الله حق قدره﴾** بهذا يدلك على أن ذكر الأصابع وإبهام التشبيه إنما جاء من لفظ اليهودي ، وزاد في هذه الرواية الإشارة إلى أصابع الجارحة ، وان الله تعالىٰ أنزل تشبيه قوله : **﴿وما قدروا الله حق قدره﴾** وظاهره انه أنزلها للرد عليه ، وان الله تعالىٰ منزه عن ذلك .

وعلى الجملة ، فقد جاء ذكر الأنامل في حديث آخر[1] عن ابن عباس

---

(١) أخرج الإمام أحمد من حديث معاذ بن جبل ، قال : «احتبس عن رسول الله (ص) ذات غداة في صلاة الصبح حتى كدنا نتراءى قرن الشمس ، فخرج رسول الله (ص) يثوب بالصلاة ، وصلّىٰ وتجوز في صلاته ، فلما سلّم قال : كما أنتم على مصافكم ، ثم أقبل إلينا ، فقال اني ساحدثكم ما حبسني عنكم الغداة ، اني قمت من الليل فصليت ما قدر لي ، فنعست في صلاتي حتى استثقلت ، فإذا أنا بربي عزّ وجلّ في أحسن صورة ، فقال يا محمد : أتدري فيم يختصم الملأ الأعلىٰ ؟ قلت : لا أدري رب .

قال : يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلىٰ .

قلت : لا أدري رب .

فرأيته وضع كفه بين كتفي ، حتى وجدت برد أنامله بين صدري ، فتجلىٰ لي كل شيء وعرفت .

فقال : يا محمد ، فيم يختصم الملأ الأعلىٰ ؟ .

قلت : في الكفارات والدرجات .

قال : وما الكفارات ؟ .

قلت : نقل الأقدام إلى الجماعات ، والجلوس في المساجد بعد الصلوات ، واسباغ الوضوء عند الكريهات .

قال : وما الدرجات ؟ .

قلت : اطعام الطعام ، ولين الكلام ، والصلاة والناس نيام .

قال : سـل .

قلت : «اللّهم اني أسالك فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحب المساكين ، وأن تغفر لي وترحمني ، وإذا أردت فتنة في قوم فتوفني غير مفتون ، واسالك حبك ، وحب من يحبك وحب عمل يقربني إلى حبك .

قال رسول الله (ص) : انها حق فادرسوها وتعلموها» .

وخرجه الترمذي ، وقال حديث حسن صحيح .

قال : وسألت محمد بن إسماعيل البخاري عن هذا ، فقال هذا حديث حسن صحيح . =

(رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله (ص) : «أتاني الليلة ربي في أحسن صورة ـ قال احسبه في المنام ـ قال : يا محمد ، هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلىٰ .

قال : قلت لا ، فوضع يده بين كتفي حتى وجدت بردها بين ثديي ، فتجلىٰ لي كل شيء وعرفت» .

وفي رواية معاذ (رضي الله عنه) : «فرأيته وضع كفه بين كتفي ، فوجدت برد أنامله بين ثديي» .

وأنت إذا جمعت بين الأحاديث تحققت عدم إرادة الجارحة ، لأنه يستحيل أن يكون كل أصبع من يد واحدة جسمانية تسع السموات والأرضين والجبال ، ونحو ذلك ، وهي : مع هذا العظم تجتمع أناملها بين كتفيه (ص) حتى يجد بردها بين ثدييه .

وإنما المعول عليه في ذلك أن نخرجه على ما نبهنا عليه ، وهو أن اليد : لحقيقة نور قدرته القائم بالعدل في إمساك مخلوقاته وتدبير ملكه ، وهي من عالم الأمر الموصوف بصفة القيومية ، ويدل على كونها من عالم الأمر قوله تعالىٰ : ﴿ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره﴾[1] وعلى أنها من نور قدرته الموصوفة بالقيومية : مناسبة الاشتقاق ، وكونها قرن حصول العلم بوضعها بين كتفيه (ص) ، حتى علم علم ما في السموات والأرض ، وعلم كل شيء ، وهذا العلم هو علم التوحيد ، الذي هو أصل العلوم كلها .

= قال ابن رجب الحنبلي المتوفي سنة ٧١٥ شارحه في رسالة لطيفة شيخ محدثي عصره : في أسناده اختلاف ، وله طرق متعددة ، وفي بعضها زيادة ، وفي بعضها نقصان .

قال : وأما وصف النبي (ص) لربه عزّ وجلّ بما وصفه به ، فكل ما وصف النبي (ص) ربه عزّ وجلّ فهو حق وصدق ، يجب الإيمان والتصديق به كما وصف الله عزّ وجلّ به نفسه ، مع نفي التمثيل عنه .

ومن أشكل عليه فهم شيء من ذلك واشتبه عليه فليقل كما مدح الله تعالىٰ به الراسخين في العلم وأخبر عنهم أنهم يقولون عند المتشابه ﴿آمنا به كل من عند ربنا﴾ وكما قال النبي (ص) في القرآن :

«وما جهلتم منه فكلوه إلى عالمه» أخرجه الإمام احمد ، والنسائي وغيرهما .

ولا يتكلّف ما لا علم له به ، فإنه يخشىٰ عليه من ذلك الهكة . ا هـ مخيون .

(١) سورة الروم ؛ الآية : ٢٥ .

وقد جعل الله شهوده لأهله مقيداً بحال شهود قيوميته ، قال تعالىٰ : **﴿شهد الله أنه لا إله إلّا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط﴾** فنصب قائماً على الحال ، والعامل فيه شهد ، والحال ظرف العامل . فلا يصدق كونهم أولىٰ العلم بشهود التوحيد إلّا في حال شهود قيوميته .

فإذا أولنا بنور القيومية : علمت أن الحديث في معناه جاء موافقاً للقرآن ، وهو يرجع إلى ما ذكرناه في تأويل اليد صاحبة الميزان التي تقدم ذكرها في الحديث ، ويؤيد كونها صاحبة العدل : أن السياق الذي ذكر فيه **﴿وما قدروا الله حق قدره﴾** إلى آخره سياق قيامه تعالىٰ يوم القيامة بفصل القضاء والعدل .

فإن قيل : قد سماها باليمين في قوله : **﴿والسموات مطويات بيمينه﴾** واليمين هي صاحبة الفضل المنفقة كما تقدم .

قلت : لا تنافي في ذلك ، لأن كلتا يديه يمين .

تنبيه : قوله تعالىٰ : **﴿مطويات بيمينه﴾** أشبه شيء ذكره المفسرون في معنىٰ الطي : أنه بمعنىٰ الاخفاء : أي والسموات قد خفيت حقائقها في يمينه ، في نور تجليها ، فليس لأهل الموقف سماء نورها ، ويؤيده قوله تعالىٰ : **﴿وأشرقت الأرض بنور ربها﴾** لأهل الموقف إلّا حجاب نوره ، ولا ظل إلّا ظل عرشه ، والطي على هذا موافق لمعنىٰ الكشط في قوله تعالىٰ : **﴿وإذا السماء كشطت﴾**[1] كشفت وخفيت تحت أشعة أنوار يمينه .

وأما استعارة الأنامل والأصابع لها ، فاعلم أن حقيقة ذلك ترجع إلى أنه ما من نور من أنواره تعالىٰ ، إلّا وله حجاب صوري ، يتعرف إلى عباده بواسطته ، بدليل قوله تعالىٰ : **﴿الله نور السموات والأرض﴾** الآية ، فضرب المشكاة والزجاجة والشجرة أمثلة لحجب أنواره الصورية ، وقد قدمنا عند ذكر الصورة ما يفهم به معنىٰ قوله (ص) : «فأتاني ربي في أحسن صورة» وأن الصورة التي تجلى لنبيه (ص) فيها ، وتجلىٰ فيها بنور يده العليا ، هي صاحبة الأنامل ، وهي ظلة شريعته السمحة ، التي هي أحسن الشرائع ، وحقائق صفاتها كلها متنوعة من روح : «لا إله إلّا الله» .

فيده العليا هي صاحبة الخير في قوله : **﴿بيدك الخير﴾** وفي قوله :

---

(١) سورة التكوير ؛ الآية : ١١ .

﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير﴾ وأناملها الخمس هي : الخمس التي بني الإسلام عليها ، ومنها أنملة الشهادة ، وبهذا يفهم السر في وضعها بين كتفيه ، وهو موضع خاتم النبوة ، وفي أثمارها : العلم بكل شيء ، لأن جميع العلوم فروع لعلم «لا إله إلا الله» ويفهم السر في وجوده ليردها بين ثدييه ، وهو صدره لانشراحه للإسلام ، فهو ﴿على نور من ربه﴾ على برد الرضى والتسليم للقضاء ، ولا امتناع في تجسدها وتشكلها على هيئة الصورة ، كما بيناه ، وفي صورة هذه اليد الإسلامية ، ظهرت قيوميته بالسموات والأرض ، في قوله تعالىٰ : ﴿وله أسلم من في السموات والأرض﴾ وفيها ظهر سر العهد والمبايعة في قوله تعالىٰ : ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم﴾ وفيها ظهر سر إجارته وعصمته بقوله : ﴿قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير﴾ لأن من قال «لا إله إلا الله» عصم ماله ودمه[1] .

---

(١) روى الشيخان ، عن ابن عمر : «أن رسول الله (ص) قال : أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم ، إلا بحقها وحسابهم على الله عز وجل» ا هـ مخيون .

فصــل القــدم

ومن المتشابه صفة «القدم» فإنه ثبت في الصحيح من حديث أنس بن مالك (رضي الله عنه) ، عند مسلم[1] وغيره ، قال : قال رسول الله (ص) : «لا تزال جهنم تقول هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمه ، فتقول : قط قط وعزتك» .

وهذا أيضاً يرجع إلى المحكم ، قال تعالىٰ : ﴿وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم﴾(*) وقد مهدنا أن الصورة المنسوبة إلى الله ، هي ظلة غمام الشريعة ، وأن وجهه منها بارق نور التوحيد ، ومظهره الاخلاص ، وعلى هذا فالقدم منها ، هو : نور الإيمان ، ومظهره : الصدق ، وهذا هو القدم الذي تستغيث النار من نوره ، كما جاء في حديث أبي سمية ، قال : «سألت جابر بن عبد الله (رضي الله عنه) عن الورود ، قال سمعت رسول الله (ص) يقول : «الورود : الدخول ، لا يبقىٰ بر ولا فاجر إلّا دخلها ، فتكون على المؤمن برداً وسلاماً ، كما كانت على إبراهيم ، حتى أن للنار ضجيجاً من بردهم» .

---

(١) في صحيح البخاري في «كتاب التفسير» عن أنس عن النبي (ص) قال : «يلقى في النار ، وتقول هل من مزيد حتى يضع قدمه ، فتقول قط قط» .

وفي رواية : «فيضع الرب تبارك وتعالىٰ قدمه عليها» .

وفي صحيح مسلم في «كتاب صفة القيامة والجنة والنار» : حدّثنا أنس بن مالك أن نبي الله (ص) قال : «لا تزال جهنم تقول هل من مزيد حتى يضع فيها رب العزة تبارك وتعالىٰ قدمه فتقول : قط قط وعزتك ، ويزوي بعضها إلى بعض» هـ مخيون .

(*) سورة يونس ؛ الآية : ٢ .

وفي حديث يعلىٰ : «قال قال رسول الله (ص) ان النار لتنادي : جز يا مؤمن ، فقد أطفأ نورك لهبي» أخرجهما أبو عبد الله محمد الترمذي الحكيم[1] ، وذكر القرطبي حديث يعلىٰ عن أبي بكر النجاد .

تحقيق : مما يحقق أن القدم ما ذكرناه أمران :

أحدهما : أن نور الإيمان يكفر جميع أسباب الكفر، والمعاصي ، وهي أسباب النار .

فكما يطفي أسبابها في الدنيا ، فكذلك حقيقته تطفيء حقيقتها في الآخرة .

الثاني : نسبته إلى رب العزة ، وهو صاحب العزة ومالكها ، والعزة وإن كانت جميعها لله ، بمقتضىٰ قوله : **﴿فللّه العزة جميعاً﴾** لكنه قد نسبها لرسوله وللمؤمنين بقوله : **﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾** فما من مؤمن إلاّ وهو صاحب العزة ، فإذا وضع قدمه حق للنار أن تضج منه ، وتنزوي عنه ، وتنطفىٰ نارها بما له من نور العزة .

فائدة : في الشفا للقاضي عياض[2] ان من أسمائه (ص) «قدم صدق» ، وهو يقتضي : أنه الأصل الجامع لكل نور من أنوار صفاته وأسمائه تعالىٰ .

تنبيه : جاء في حديث أبي هريرة[3] (رضي الله عنه) ، عند مسلم : «فأما النار فلا تمتلىء حتى يضع الله تبارك وتعالىٰ فيها رجله ، فتقول : قط قط ، فهنالك تمتلىء وينزوي بعضها إلى بعض، فلا يظلم الله من خلقه أحداً» وذكر

---

(١) صاحب «نوادر الأصول» وهو أحد الكتب الضعيفة ، المشار إليها بقول العلوي صاحب «طلعة الأنوار» مختصر ألفية العراقي :

ومـا نمي لعق ، وعد ، وخط ، وكر	ومسند الفردوس : ضعفه شهر
كـذا نوادر الأصول ، وزد	للحاكم التاريخ ولتجتهد

(٢) القاضي عياض صاحب الشفا توفي سنة ٥٤٤ هـ (رحمه الله تعالى) ، اهـ مخيون .

(٣) في الصحيحين عن أبي هريرة ، قال رسول الله (ص) : «تحاجت الجنة والنار ، فقالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين ، وقالت الجنة : فمالي لا يدخلني إلاّ ضعفاء الناس وسقطهم وغرتهم ، قال الله للجنة : إنما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي ، وقال للنار : إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي ، ولكل واحدة منكما ملؤها ، فأما النار فلا تمتلىء حتى يضع الله تبارك وتعالى رجله ، تقول : قط قط قط ، فهناك تمتلىء ويزوي بعضها إلى بعض ، ولا يظلم الله من خلقه أحداً .

وأما الجنة فإن الله ينشىء لها خلقاً» اهـ مخيون .

الحديث ، وهو غير مناف لما ذكرناه ، ومرجعه للحديث الصحيح الذي قدّمناه «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه» إلى قوله «ورجله التي يمشي بها» فإنه يقتضي تحقق رجل المؤمن بنور التوحيد ، حتى تكون منسوبة إلى الله ، وحينئذ فهو موافق لما تقدم في القدم .

وقوله : «فهنالك تمتلىء» أي بأهلها من المتكبرين ، وقوله : «وينزوي بعضها إلى بعض» فيه حكمتان :

أحدهما : أنها عندما تضج بسبب نور العزة من أقدام المؤمنين ، فيخرجون منها : تخلو مواضعهم ، فلو بقيت كذلك لما كانت مملوءة ، وهو مناف لقوله تعالى : **﴿لأملأن جهنم﴾** الآية ، وأيضاً فربما كان في ذلك تخفيفاً على أهلها ، فاقتضت الحكمة أنها حينئذ تنضم وتجتمع على أهلها ، وتمتلىء بهم تحقيقا للوعيد وزيادة في العذاب .

الحكمة الثانية : انها لو بقيت مواضع المؤمنين خالية من النار : لم يتم لهم سرورهم بالأمن منها ، لعلمهم أن الله وعدها أنه يملؤها ، فربما توقعوا الإعادة ، فكان في إنزوائها ، وإنضمامها على أهلها ، وإمتلائها بهم تأمين للمؤمنين ، كما ذبح الموت[1] بين الفريقين : تحقيقاً للخلود .

قوله : «فلا يظلم الله من خلقه أحداً» أي لا يملؤها بغير أهلها ، تحقيقاً لقوله تعالى : **﴿ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد *يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد﴾**(*) .

تبصرة : بهذا القدم يفهم السر في قوله تعالى : **﴿إذ يغشيكم النعاس أمنة منه﴾** إلى قوله : **﴿وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام﴾** وفي قول الربانيين : **﴿ ربنا أغفر لنا ذنوبنا واسرافنا في أمرنا وثبت أقدمنا﴾** فنبه أن تثبيت الأقدام بالماء

---

(١) صحيح البخاري «كتاب التفسير» عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله (ص) : يؤتي بالموت كهيئة كبش أملح ، فينادي مناد : يا أهل الجنة ، فيشرئبون وينظرون ، فيقول : هل تعرفون هذا ؟ : فيقولون : نعم ، هذا الموت ، وكلهم قد رآه ، ثم ينادي يا أهل النار ، فيشرئبون وينظرون ، فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم ، هذا الموت ، وكلهم قد رآه ، فيذبح ، ثم يقول : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت ، ثم قرأ : **﴿وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة﴾** وهؤلاء في غفلة أهل الدنيا **﴿وهم لا يؤمنون﴾** اهـ مخيون .

(*) سورة ق ؛ الأيتان : ٢٩ ، ٣٠ .

المطهر ، المتنزل على القلب بروح التوحيد ، بدليل قوله تعالىٰ : ﴿**يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت**﴾ وذلك الماء المطهر هو القرآن ، بدليل قوله : ﴿**قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين**﴾ فانظر كيف أضيف الروح للقدس ، وهو الطهارة ، وجعلها المثبتة بالقرآن لأقدام الذين آمنوا ، وبشرى لهم : أي بقدم الصدق ، بدليل تصريحه به في يونس كما قدمناه .

تنبيه : بهذا القدم الصدق الذي تستغيث النار من نوره ، يفهم السر في تخصيص إبراهيم (ع) ببرد النار وسلامها ، لايمانه في قوله تعالىٰ : ﴿**فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون * الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم**﴾ الآية(**) ، وكذلك يفهم السر في أنس موسىٰ بالنار ، وقوله تعالىٰ : ﴿**فاخلع نعليك**﴾ الآية ، لأنه كان له قدم الصدق الإيماني بمقتضىٰ قوله : ﴿**وأنا أول المؤمنين**﴾ .

إشارة : قوله تعالىٰ : ﴿**اخلع نعليك**﴾ له ظاهر وباطن .

فأما الظاهر ، فالحكمة في الأمر بخلع النعل الظاهر : ان سير الأنبياء في الأرض كان سير اعتبار وادكار ونظر لما أودع فيها من سر البدء والإعادة بمقتضىٰ قوله تعالىٰ : ﴿**قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشيء النشأة الآخرة**﴾(*) وكان المراد التعرف لموسىٰ بسر الإعادة وقيام الساعة ، ولهذا كانت مناجاته في جانب الغربي ، لأن من أكبر آيات الساعة طلوع الشمس من مغربها .

وقيل له في أول مناجاته ﴿**إنني أنا الله لا إله إلاّ أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري**﴾(*) ﴿**إن الساعة آتية**﴾(**) ومن المعلوم أن بعث الخلائق وحشرهم يكون من الأرض المقدسة ، وقد فسر قوله تعالىٰ : ﴿**يوم ينادي المناد من مكان قريب**﴾[1] أي من صخرة بيت المقدس ، فمن هنا قيل لموسىٰ عندما سار بأهله

(**) سورة الأنعام ؛ الآية : ٨١ ـ ٨٢.

(*) سورة العنكبوت ؛ الآية : ٢٠ .

(*) (**) سورة طه ؛ الآيتان : ١٤ ـ ١٥ .

(١) سورة ق ؛ الآية : ٤١ .

وبلغ بيت المقدس[1] وكشف له من سر ما أودع فيه من قيام الساعة ﴿اخلع نعليك﴾ تنبيهاً على أنه انتهى سفرك ، وبلغ ما كان المراد بك من التقرب ، ولهذا قيل له : ﴿إنك بالواد المقدس﴾ أي هذا هو الوادي الذي أودع فيه سر قيام الساعة ، ورجوع الخلائق إلى الله ، فاخلع نعليك ، وألق عصاك ، فإن النعل وأخذ العصا من توابع السفر ، وخلع النعل وإلقاء العصا من أعلام الإقامة ، قال الشاعر :

فألقت عصاها واستقر بها النوى   كما قر عيناً بالأياب المسافر

وأما الباطن : فإن حقيقة النعل : ما يكون وقاية لقدم الصدق من عوائق طريق القلب إلى الله ، وما فيه من وعر وشوك ، كما نبه عليه (ص)[2] : «تعس عبد الدينار ، وتعس عبد الدرهم ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش» فنبه بهذا على أن أفتتان القلب بزينة الدنيا يعوق قدم الصدق عن السير إلى الله ، فإن عظم في عينه منها تعس به ، وأن احتقره واستهان به ، كان بمثابة الشوكة تدخل في قدم السائر ، فإن انتقش أي أخرجه بمنقاش الاستغفار ، وألقاه بالزهد فيه : سلم وسارع بقدم صدقه إلى الله ، وأن أهمله كان بمثابة الشوكة التي يهملها صاحبها حتى تتمكن ، ويفسد بها الدم ، ويحصل المرض والوقوف عن السير ، وربما تمكنت فكانت سبباً للموت ، أو زمانه[3] القدم ، والنعلان يقيان من ذلك ، وهما الرجاء فيه ، والخوف منه .

فموسى لما خرج خائفاً يترقب ، وقال عند التوجه : ﴿عسى ربي أن يهديني

---

(١) قوله : وبلغ بيت المقدس ، لعله بريد الوادي المقدس ، وهي سقطة من الناسخ ، وكم بين الطور وبين بيت المقدس . قال تعالى في القصص : ﴿آنس من جانب الطور ناراً﴾ وقال سبحانه في طه: ﴿فلما أتاها نودي يا موسى * إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى﴾ اهـ مخيون .

(٢) روى البخاري في صحيحه في الجهاد ، عن أبي هريرة : «تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة : ان أعطى رضى وإن لم يعط سخط ، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش ، طوبى لعبد أخذ بعنان فرسه في سبيل الله : أشعث رأسه ، مغبرة قدماه : إن كان في الحراسة كان في الحراسة ، وإن كان في الساقة كان في الساقة ، وإن استاذن لم يؤذن له ، وإن شفع لم يشفع» اهـ مخيون .

ورواه ابن ماجة .

(٣) زمن زمنا وزمانة ، من باب تعب : مرض مرضاً يدوم طويلاً ، والزمانة الآفة ، اهـ مخيون .

﴿سواء السبيل﴾ اعلم انه انتعل الخوف والرجاء ، وركبهما في سيره ، لأن من انتعل فقد ركب ، لحديث جابر بن عبد الله (رضي الله عنه) في صحيح مسلم[1] .

قال : كنا مع رسول الله (ص) في سفر ، فقال «أكثروا من النعال ، فإن الرجل لا يزال راكباً ما انتعل» .

فلما بلغ حضرة المناجاة والتأنيس ، وحل في وادي التقديس ، قيل له ﴿اخلع نعليك﴾ لأن الرجاء والخوف لأرباب السلوك ، لا لمن وصل وخص بمجالسة الملوك .

ومما يحقق لك أن الرجاء والخوف هما نعلا قدم الصدق ، حديثان :

أحدهما : رواه البخاري[2] عن أبي هريرة (رضي الله عنه) ، انه (ص) قال لبلال (رضي الله عنه) : «أخبرني بأرجى عمل عملته في الإسلام ، فاني سمعت دف نعليك بين يدي في الجنة» . وذكر الحديث .

فافهم بقوله : «أخبرني بأرجىٰ عمل» ان الرجاء هو نعل قدم الصدق ، ولهذا قال : «فاني سمعت دف نعليك» فأتى بالباء والفاء ، وهما يفيدان سببية الوصف للحكم ، أي أن سبب سماعه دف نعليه ، هو رجاؤه الله بعمله .

الحديث الثاني : ما رواه مسلم[3] عن العباس (رضي الله عنه) ، قال : قال

---

(١) في صحيح مسلم ، كتاب اللباس ، عن جابر ، قال سمعت النبي (ص) يقول في غزوة غزوناها : «استكثروا من النعال ، فإن الرجل لا يزال راكباً ما انتعل» ا هـ مخيون .

قلت : وكذلك هو في سنن أبي داود .

(٢) عن أبي هريرة «أن النبي (ص) قال لبلال عند صلاة الفجر : يا بلال حدّثني بأرجي عمل عملته في الإسلام ، فاني سمعت دف نعليك بين يدي في الجنة ؟ قال ما عملت عملاً أرجىٰ عندي ، اني لم أتطهر طهوراً في ساعة من ليل أو نهار إلاّ صليت بذلك الطهور ما كتب لي أن أصلّي» (دف) يعني تحريك .

في مسلم في «الفضائل» وفي البخاري في «باب فضل الطهور» بالليل والنهار ، وفضل الصلاة بعد الوضوء بالليل والنهار ، ا هـ مخيون .

(٣) في صحيح مسلم في باب «أهون أهل النار عذاباً» عن أبي سعيد الخدري : «أن رسول الله (ص) ذكر عنده عمه أبو طالب ، فقال : لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة ، فيجعل في ضحضاح من نار ، يبلغ كعبيه ، يغلي منهما دماغه» .

وفي أثره عن ابن عباس : «أن رسول الله (ص) قال : أهون أهل النار عذاباً أبو طالب ، وهو منتعل بنعلين يغلي منهما دماغه» ا هـ مخيون .

رسول الله (ص) : «أهون أهل النار عذاباً ، أبو طالب ، وأن في قدميه لنعلين يغلي منهما دماغه» .

وإنما خص بالنعلين ، لأنه كان له قدم في تصديق محمد (ص) ومحبته ونصرته والذب عنه ، ولكن كان لا يدين بدينه خوفاً من سبة العرب .

ولهذا قال لقريش عند الموت في وصيته[1] : «أوصيكم بمحمد خيراً ، فإنه الأمين في قريش ، والصديق في العرب ، وقد جاء بأمر قبله الجنان ، وأنكره اللسان ، مخافة الشنآن» .

ثم قال في آخر كلامه : «والله أن من سلك سبيله رشد ، ومن أخذ بهديه سعد» .

فانظر كيف كان له قدم صدق في محبته وقبول أمره ، ولكنه انتعل فيه الخوف من الخلق والرجاء لهم ، فظهرت حقيقته له بعد الموت ، بنعلين من النار .

وأما الحكمة في كونهما «يغلي منهما دماغه» فلأن في الصحيح[2] «ألا

---

(١) وصيته في الروض الأنف للسهيلي جـ ١ عند وفاة أبي طالب باختلاف يسير ، ا هـ مخيون .
قلت : كتب أستاذنا العلامة الشيخ محمد أبو زهرة (رحمه الله) في كتابه : «خاتم النبيين» بحثاً طيباً ، القسم الأول ، من المطبوع على نفقة صاحب السمو الشيخ خليفة بن حمدان آل ثاني ، من ص ٥٣٠ ـ ص ٥٣٥ ، قال في نهايته :
«.. ونحن نقول فيما استنبطنا ـ أنه ليس بمشرك قط ، لأن المشرك من يعبد الأصنام ويشركها مع الله تعالى وأفعاله وأقواله .
ومواقفه : تدل على أنه يرى عبادة ، ويراها أمراً باطلاً .
ولذلك أميل إلى أن أستغفر له إن كنت من أهل هذا لمقام ، وأرى أنه ليس بكافر أصلاً ، والله سبحانه وتعالى هو العليم بذات الصدور وما تخفي الأنفس» ا هـ منه .

(٢) عن معاذ بن جبل قال : «قلت يا رسول الله : أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار .
قال : «لقد سألت عن عظيم ، وأنه ليسير على من يسره الله تعالى عليه : تعبد الله لا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت» .
ثم قال : «ألا أدلك على أبواب الخير : الصوم جنة ، والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار ، وصلاة الرجل في جوف الليل .
ثم تلا : ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع ـ حتى بلغ ـ يعملون﴾ . =

أخبركم برأس الأمر وعموده وذروة سنامة : الجهاد في سبيل الله» .

ومن المعلوم : أن أبا طالب كـان أشد النـاس جهاداً عن رسـول الله (ص) ، ولكنه لم يتدين بدينه ، خشية من السبة ، فكان خوفـه لغير الله سببـاً لاحباط جهـاده وإفسـاده ، وهكذا تكـون حقيقة خـوفه لغيـر الله ـ وهـي نعله في النار ـ سببـاً لاذابـة دماغه ، وهو لهب رأسه ، وإحباطه بالاذابة والإفساد .

= ثم قال : «ألا أخبركم برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟ .
قلت بلى يا رسول الله .
قال : رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد» .
ثم قال : ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ .
قلت : بلى يا رسول الله ؟ فأخذ بلسانه ، وقال : «كف عليك هذا» .
قلت : يا نبي الله ، وانا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ .
فقـال ثكلتك أمـك ، وهل يكب النـاس في النار على وجـوههم [أو قال على منـاخـرهم] إلا حصـائد ألسنتهم» . رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن صحيـح في «الإيمان» وابن مـاجه في «الفتن» ، وغيرهما بألفاظ متقاربة .

فصــل الكــلام

ومنهـا صفة الكـلام ، والمتشابـه منها نسبـة الصوت والحـروف إلى كـلام الله سبحانه وتعالىٰ .

وقد وردت آيات وأحاديث ، توهم ذلـك ، نمنها قـوله تعـالىٰ : ﴿حتى يسمع كلام الله﴾(*) والمسموع إنما هو الحرف والصوت .

ومنها سماع موسىٰ (ع) كلام الله .

ومـا روي[1] من أن الله ينادي بصـوت يسمعه من بعدكما يسمعـه من قـرب :

(*) سورة التوبة ؛ الآية : ٦ .

(١) في صحيح البخاري في كتاب «التوحيـد» تعليقاً عن جـابر ، عن عبـد الله بن أنيس قال سمعت النبي (ص) يقول : «يحضر الله العباد فيناديهم بصـوت يسمعه من بعـد كما يسمعـه من قرب : أنـا الملك ، أنا الـديان» هـذا الحديث عن جـابر بن عبـد الله الصحابي الخـزرجي المكثر في الحديث ، وهو مع كثرة روايته وعلو مرتبتـه رحل إلى الشـام وأخذ يسمعـه من عبد الله بن أنيس الجهني الأنصاري .

قال الكرماني بصوت : أي مخلوق غير قائم بـه ، قال الكـرماني : مـا السر في كـونه خـارقاً للعادة إذ في سائر الأصوات التفاوت ظاهراً بين القريب والبعيد ؟ قلت : ليعلم أن المسموع منه كلام الله تعالىٰ ، كما أن موسىٰ (ع) كان يسمع من جميع الجهات ، كذلك قوله : «أنـا الملك أنا الديان» أي لا ملك إلّا أنا ولا يجازي إلّا أنا ، إذ تعريف الخبر دليـل الحصر ، واختـار هذا اللفظ لأن فيـه الإشـارة إلى الصفـات السـبع الحيـاة والعلم والإرادة والقـدرة والسـمـع والبصـر والكـلام ، ليمكن المجازاة على الكليـات والجزئيـات قولاً وفعـلاً . ا هـ من شرح العيني على البخاري ، ا هـ مخيون .

أنا الملك الديان .

ومنها قوله (ص)[1] : «من قرأ حرفاً من كتاب الله ، فله حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول ألم حرف ، بل ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف» وغير ذلك من الأحاديث الثابتة ، وهي مسألة مهمة ، بعيدة الغور ، تزلزلت فيها أقدام المتكلمين .

ومذهب أهل الحق : أن الله كلاماً قديماً قائماً بذاته ، واحداً في حقيقته ، مخالفاً لصفة علمه وإرادته ، منزهاً عن الحروف المرتبة والأصوات المحدثة ، منزلاً على نبيه ، مقروءاً بالألسنة ، مكتوباً في المصاحف ، مسموعاً لموسى (ع) حقيقة ، ولمن يريد الله أسماعه ، غير مخلوق في الشجرة[2] ولا قائم بالحوادث .

وموضع البراهين العقلية والسمعية على كل مقام من ذلك : الكتب الكلامية .

والمقصود ههنا رد ما وقع من المتشابه في الكتاب والسنة ، من إيهام نسبة الصوت والحرف إلى الله سبحانه وتعالى ، ولا بد - في ردها للمحكم - من مراجعة مقدمة هذا الكتاب[3] وهو : أن كلام الله سبحانه وتعالى صفته ، وصفة القديم قديمة ، تتقدس عن الحدوث ، والحروف في إفادة الكلام : يلزمها

---

(١) عن ابن مسعود قال قال رسول الله (ص) : «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول ألم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف» أخرجه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه ، وقد روى موقوفاً وقد رفعه بعضهم عن ابن مسعود ووقفه بعضهم عليه ، اهـ مخيون .

(٢) التي سمع موسى الكلام عندها .

(٣) في صحيح البخاري باب «كيف كان بدء الوحي» عن عائشة أم المؤمنين (رضي الله عنها) «أن الحارث بن هشام ، سأل رسول الله (ص) ، فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله (ص) : أحياناً يأتيني في مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده علي ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال ، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول» اهـ مخيون .

قلت : ورواه كذلك الإمام مالك وأحمد ، والترمذي والنسائي عن أم المؤمنين السيدة عائشة ، ورواه الطبراني ، وزاد في آخره «وهو أهونه علي» .

قالت عائشة (رضي الله عنها) : «ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه وأن جبينه ليتفصد عرقاً» (يفصم : يفارق ليعود ، يتفصد : يسيل ، من التفصد ، وهو السيلان) ورواه مسلم في الفضائل ، اهـ مخيون .

الترتيب ، وتقدم بعضها على بعض ، وذلك مستحيل على القديم .

ولكنا قدمنا أن لصفاته مظهرين ، وبه يعلم : أن لكلامه مظهر ، جسماني منسوب للعباد ، وهي الألسنة والأيدي والأقدام . ومظهر علوي روحاني ، وهو : روح القدس .

وقلمه العلي ، والحروف والأصوات : من لوازم المظهرين .

وكلامه منزه عنهما ، كتنزه القلب في كلامه عن الحروف اللسانية ، والأصوات الهوائية ، وإن كانت مظاهر له ، وبهذا يتضح لك جميع المتشابه .

وأنا أفصله لك :

فمنه قوله عزّ وجلّ : ﴿فأجره حتى يسمع كلام الله﴾ أي بواسطة مظاهر الجسمانيات ، وهي أصوات العباد وحروفهم ، وإطلاق كونه سامعاً لكلام الله بذلك : مجاز ، لما قدّمناه : أن المظاهر الجسمانية ليست منسوبة إلى الله تعالىٰ : لا لغة ولا شرعاً .

ومنه : عن عائشة (رضي الله عنها) في صحيح البخاري[1] ومسلم وغيرهما : «أن الحارث بن هشام ، سأل رسول الله (ص) : كيف يأتيك الوحي ؟ .

قال : أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده علي ، فيفصم عني وقد وعيت ما قال .

وأحياناً يأتيني ، يتمثل لي الملك رجلاً ، فيكلمني فأوعىٰ ما يقول» .

وهذا كله يحقق أن لكلام الله في الروحانات مظهرين :

مظهر جلي : يتشكل بالمظاهر الجسمانية وأصواتها وحروفها .

ومظهر آخر له حروف وصوت خفي روحاني ، لأن الجرس في أصله هو : الصوت الخفي ، والصلصلة : صوت اليابس الصلب إذا حرك .

ويصح نسبة المسموع حينئذ إلى الله بالتأويل الذي ذكرته لك .

---

(١) المقدمة التي كتبها هو (رحمه الله) ، والتي تبتدأ بقوله (رضي الله عنه) : «وأما التفصيل فلنقدم عليه مقدمة . . » الخ .

وههنا سؤالان :

أحدهما : ما السر في مناسبة الصوت المسموع بالصلصلة ؟ .

الثاني : ما وجه اشتداده عليه ؟ .

والجواب عن الأول: أن المتنزل بالوحي ، هو الروح ، وهذا الصوت ليس صوت الروح .

وإنما الروح إذا تجلت للرؤية : أفادت لمن تجلت عليه الرؤية في مظهر يناسب قابليته واستعداده ـ كما قدمناه ـ في اختلاف الرائين على حسب صور أخلاقهم وأعمالهم .

وكذلك إذا تجلت للأسماع : أفادت السمع بواسطة مظهر يناسب قابلية السمع .

ومن المعلوم : أن الإنسان قبل نفخ الروح فيه ، كان أصله من صلصال ، وهي صورة طين يابس ، إذا نقر وداخلته الريح صل وصوت . فافهم بذلك : أن الصوت والحرف المسموع عند تنزل روح الوحي ، إنما هو حادث متناسب لصفة الإنسان ، ظهر لتنزل روح الوحي عليه وانفصامه عنه ، ليس معناه انقطاعه ، فإن كلام الله قديم لا يقبل الانقطاع ، وإنما انفصامه : غيبة القلب عن تجليه لحجاب الحس ، فهنالك يجد نفسه قد وعى ، أي جمع له الوحي بكتابه روحانية في لوح قلبه ، تحقيقاً لقوله : **﴿إن علينا جمعه وقرآنه﴾** .

وأما الجواب عن الثاني : فإنما كان ذلك أشد الوحي ، لأن روح الإنسان لها تعلق بالحس ، وإرتباط به إرتباطاً جسمانياً ، فإذا جاء الوحي بواسطة الملك ، وهو على مثال الإنسان ، فقد تطور الملك ، وبرز بالوحي إلى الدائرة الإنسانية ، فسهل على الروح تلقيه ، لمناسبته العالم الحسي .

وإذا جاء الوحي روحاً مجرداً : اقتضى تجرد القابل له من علاقة الحس ، فاشتد ثقله كما يشتد عليه التجرد من الجسد عند الموت ، ومن هذا يفهم السر في قوله (ص)[1] لعائشة (رضي الله عنها) عقب الوحي : «حدثيني» يريد الرجوع

---

(١) هذا الحديث لم أقف عليه ، والشيخ ابن عربي معدود من الحفاظ ، وانظر قول أم المؤمنين في الحديث السابق في وصف ما يعاني من شدة (ص) ، اهـ مخيون .

إلى عالم الحس ، ليخف على أمته تلقي ما يلقيه إليهم عند التبليغ .

ومنه في البخاري[1] [والترمذي واللفظ له] عن أبي هريرة (رضي الله عنه)، قال : «إذا قضى الله في السماء أمر ضربت الملائكة أجنحتها خضعاناً لقوله ، كأنها سلسلة على صفوان ، فإذا فزع عن قلوبهم . قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا الحق وهو العلي الكبير»[2] وهذا يقتضي : ان هذا الصوت المسموع : صوت أجنحة الملائكة .

ولكن في بعض الروايات ما يقتضي نسبته إلى الوحي ، وهو يتخرج على ما قررناه ، لأنه كما أن الوحي سمعه محمد (ص) كصلصلة الجرس ، باعتبار قابليته ، فكذلك تسمعه الملائكة كجر السلسلة على الصفوان ، باعتبار قابليتهم ، لا باعتبار نفسه ، وفيه تحقيق : أن أجنحة الملائكة ليست كأجنحة الطير ، وإنما هي صفات روحانية ، كما قاله السهيلي[3] وهي قوى تسترسل بها فيما يأذن الله تعالى لها من التصريف ، ولهذا جاء ذكر الأجنحة في سياق جعلها رسلاً ، قال تعالى : ﴿جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع﴾ وضربها بها : أعدادها لقبول ما يلقى عليها من روح الأمر ، واسترسالها في تنفيذه ، وكأنه من : ضرب في الأرض إذا سار .

والغرض من ذلك كله : التمثيل والتقريب للأفهام .

---

(١) في صحيح البخاري في «التوحيد» و«التفسير» عن أبي هريرة يبلغ به النبي (ص) قال : «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله : كأنه سلسلة على صفوان ، ينفذهم ذلك ، فإذا فزع عن قلوبهم ، قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا للذي قال : الحق وهو العلي الكبير» .

هذه روايته في التوحيد ، وأكملها في التفسير بقوله : «فيسمعها مسترقو السمع ، ومسترقو السمع هكذا واحد فوق آخر ، ووصف سفيان بيده ، وفرج بين أصابع يده اليمنى ، نصبها بعضها فوق بعض ، فربما أدرك الشهاب المستمع قبل أن يرمي بها إلى صاحبه فيحرقه ، وربما لم يدركه حتى يرى بها إلى الذي يليه ، إلى الذي هو أسفل منه ، حتى يلقوها إلى الأرض .

وربما قال سفيان حتى تنتهي إلى الأرض ، فتلقى على فم الساحر ، فيكذب معها مائة كذبة ، فيصدق ، فيقولون ألم يخبرنا يوم كذا وكذا فوجدناه حقاً : للكلمة التي سمعت من السماء» اهـ مخيون .

(٢) ورواه كذلك ابن ماجة .

(٣) السهيلي صاحب «الروض الأنف» شرح السيرة النبوية وغيرها ، توفي سنة ٥٨١ ، اهـ مخيون .

تنبيه : من تشبيه ما يسمع الملائكة عند الوحي بالسلسلة ، تفهم المناسبة في رؤيا عبد المطلب[1] قبل مولد نبينا محمد (ص) : «انه خرج من ظهره سلسلة لها طرف بالمشرق ، وطرف بالمغرب ، وطرف في السماء وطرف في الأرض ، ثم صارت شجرة لها ورق من نور ، تعلق بها أهل المشرق والمغرب ، فأولها المعبرون بولد» .

فانظر مناسبة هذه الرؤيا للوحي .

أما مناسبة السلسلة ، فقد علمته .

وأما مناسبة مصيرها شجرة ، فخذه من كلامه سبحانه لموسىٰ (ع) ، وسماعه إياه من الشجرة ، وحقيقة تلك الشجرة ، هي الروح المحمدية القائمة بسر «لا إله إلّا الله» المرادة بقوله : ﴿**يوقد من شجرة مباركة زيتونة**﴾ الآية ، وهي الشجرة في قوله تعالىٰ : ﴿**مثلاً كلمة طيبة كشجرة**﴾ الآية ، وفي قوله تعالىٰ : ﴿**وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين**﴾ فالدهن هو حقيقة : الزيت الذي يكاد يضيء ولو لم تمسسه النار التي آنستها موسىٰ (ع) ، والصبغ هو حقيقة : الصبغة ، في قوله تعالىٰ : ﴿**صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة**﴾ .

تنبيه : افادة الشجرة لاستماع كلام الله ، كإفادة السنة القراء ، وكلاهما في ذلك بمثابة القلم في إفادة المكتوب، وإلى هذا السر أشار بقوله تعالىٰ : ﴿**ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله**﴾(*) وإنما ينكشف لك ذلك بمعرفة سبب نزول هذه الآية ، فإن سبب نزولها : أن اليهود قالوا : انا أوتينا التوراة ، فيها موعظة وتفصيل لكل شيء ، فلا حاجة لنا إلى ما جاء به محمد (ص) ، فأنزل الله تعالىٰ : ﴿**ولوأنما في الأرض من شجرة أقلام**﴾ الآية ، أي لو أن كل ما في الأرض من الأشجار :

---

(١) ذكر في «الروض الأنف» للسهيلي : رؤيا عبد المطلب جد النبي (ص) ، ذكر حديثها على القيرواني العابر في كتاب «البستان» قال : كان عبد المطلب قد رأى في منامه كان سلسلة من فضة خرجت من ظهره ، لها طرف في السماء ، وطرف في الأرض ، وطرف في المشرق ، وطرف في المغرب ، ثم عادت كأنها شجرة ، على كل ورقة منها نور ، وإذا أهل المشرق كأنهم يتعلقون بها ، فقصها ، فعبرت له بمولود ، يكون من صلبه ، يتبعه أهل المشرق والمغرب ، ويحمده أهل السماء والأرض ، فلذلك سماه محمداً ا هـ مخيون .

(*) سورة لقمان ؛ الآية : ٢٧ .

أقلام تفيد من كلام الله تعالىٰ ما أفادته شجرة موسىٰ لموسىٰ (ع) ، **ما نفدت كلمات الله** ، ولا حصل الاستغناء عنها ، فانظر كيف أشار لشجرة الكلمات الموسوية ، وجعلها بمثابة القلم في افادة كلمات الربوبية ، فكما أن المكتوب : لا يحل بالقلم ، ولا يكون صفة له ، ولا ينتقل به عمن هو صفته ، كذلك الكلام المسموع ، لا يحل بالألسنة ، ولا بالمصاحف ، ولا بالأقلام ، ولا يكون صفة للقارىء ، ولا ينتقل بالقراءة والكتابة عن موصوفه تبارك وتعالىٰ .

فإن قيل : فما معنى كونه منزلاً ؟ .

قلت : قد أجاب المتكلمون بأن الإنزال : الكتاب والعبارة الدالين عليه ، وفيه نظر، لأن المعتزلة وصفوه بأنه مخلوق ، ففر أهل السنة من ذلك إلى وصفه بأنه منزل ، فإذا كان الإنزال يرجع إلى الكتاب والعبارة الدالين عليه ، فالكتابة والعبارة مخلوقة أيضاً ، فلا فرق بين وصفها بالخلق أو الإنزال ، إلاّ أن رددت ذلك إلى أمر تعبدي ، أو توقيف سماعي .

والتحقيق : أن وصفه بالإنزال كوصفه تعالىٰ بالنزول ، وانه نزول بروح أمره ، وكذلك إنزال القرآن : إنزال للروح المحمدية ، قال تعالىٰ : **﴿قد أنزل الله إليكم ذكراً * رسولاً﴾**(*) فأبدل الرسول من الذكر ، والمقصود بالعامل البدل ، وذلك نص في أن إنزال الذكر هو إنزال الرسول بالذكر .

وقال تعالىٰ : **﴿واتبعوا النور الذي أنزل معه﴾**(**) .

وقال تعالىٰ : **﴿ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلاّ أنا فاتقون﴾**(*) .

فجعل الإنزال للملائكة بالروح ، وفسر الروح بكلامه ، وهو قوله تعالىٰ : **﴿أن أنذروا أنه لا اله إلاّ أنا﴾** .

ولهذا جاء بأن المفسرة .

وسيأتي مزيد بيان في صفة الإنزال إن شاء الله تعالىٰ .

(*) سورة الطلاق ؛ الايتان : ١٠ ، ١١ .

(**) سورة الأعراف ؛ الآية : ١٥٧ .

(*) سورة النحل ؛ الآية : ٢ .

فصل الجنب

ومن المتشابه : «الجنب» في قوله تعالىٰ : ﴿أن تقول نفس يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله﴾ وهو أيضاً يتخرج على ما مهدناه ، وذلك أن الصورة : إذا كانت ظلة غمام الشريعة ، فرأسها كتاب الله ، وجنبها سنة رسول الله (ص) ، ومظهرها متابعته ، ومتابعة خلفائه الراشدين ، وعلماء الأمة المتقين ومما يدل على ذلك ، قوله تعالىٰ : ﴿واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم﴾ مع قوله في أثناء السورة : ﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً﴾ فعلم أنه كتاب الله ، وكذا سنة رسوله (ص) لأنه لا ينطق عن الهوىٰ ﴿إن هو إلاّ وحي يوحىٰ﴾ فلما مهد الأمر بالمتابعة لكتابه وسنة رسوله ، حذر من إتيان عذابه قبل ذلك ، ومن قول النفس : ﴿يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله﴾ وذلك كالصريح في أن الجنب هو : سنة رسوله وعلماء الأمة المتقين ، لأنهم كانوا يسخرون من الذين آمنوا في اتباعهم لرسوله (ص) ، فلهذا أردفت حسرتها ، بقولها : ﴿وإن كنت لمن الساخرين﴾وبقولها ﴿لو أن الله هداني لكنت من المتقين﴾ فرد الله عليها بقوله : ﴿بلىٰ قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين﴾ .

تنبيه: قد سبق في أثناء السورة[1] قوله تعالىٰ: ﴿فبشر عباد * الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله﴾[2] ثم بيَن أنهم الذين أتقوا بقوله تعالىٰ : ﴿لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية

(١) سورة الزمر ؛ الآيات : ٥٥ ـ ٥٩ .

(٢) سورة الزمر ؛ الآيتان : ١٧ و ١٨ .

تجري من تحتها الأنهار﴾ ثم بيّن بقوله : ﴿وعد الله لا يخلف الله الميعاد﴾[1] .

إن ذلك هو الذي وعدهم به ، في قوله تعالى : ﴿زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة﴾[2] لأنهم يكونون في الدرك الأسفل[3] ، والذين اتقوا في الغرف ، ولذلك حق لهم أن يتحسروا على ما فرطوا في جنب الله ، وهو صحبة رسوله (ص) ، ومتابعته ، حتى يسعدوا به ، وبصحبته كما سعد به المتقون من اتباعه ، واهتدوا باتباعه ، وفي ذلك اليوم تظهر لهم حقيقة سخريتهم في قوله تعالى : ﴿ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفاً﴾ إلى قوله : ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم﴾[4] .

تبصرة : إذا تقرر لك بهذا أن الجنب جنبان : جنب حسي ، وجنب معنوي حقيقي ، فكذلك الصاحب بالجنب ، صاحبان : صاحب في السفر الحسي الجنبي ، وصاحب في السفر الغيبي القلبي .

وبذلك فافهم السر في قوله تعالى : ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً﴾ إلى قوله : ﴿والصاحب بالجنب وابن السبيل﴾[5] فإن تنزلت ، فاعتبر قوله : ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم﴾[6] الآية .

وإن ترقيت فاعتبر قوله تعالىٰ عن رسوله : ﴿ما ضل صاحبكم وما غوىٰ﴾[7] ثم اعتبر قول الرسول (ص) في سفره[8] : «اللّهم أنت الصاحب في السفر ،

---

(١) سورة الزمر ؛ الآية : ٢٠ .

(٢) سورة البقرة ؛ الآية : ٢١٢ .

(٣) يعني من النار ، نعوذ بالله منها .

(٤) سورة محمد ؛ الآية : ١٦ .

(٥) سورة النساء ؛ الآية : ٣٦ .

(٦) سورة النساء ؛ الآية : ٦٩ .

(٧) سورة النجم ؛ الآية : ٢ .

(٨) روى مسلم في صحيحه في باب «ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره» عن ابن عمر (رضي الله عنهما) : «أن رسول الله (ص) ، كان إذا أستوىٰ على بعيره ، خارجاً إلى سفر : كبر ثلاثاً ، ثم قال : ﴿سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين * وإنا إلى ربنا لمنقلبون﴾ .
اللّهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوىٰ ، ومن العمل ما ترضىٰ .
اللّهم هون علينا سفرنا هذا ، وأطو عنا بعده . =

والخليفة في الأهل» .

بيان : قد روى أبو عبد الله [الحكيم الترمذي][1] بسنده إلى عبد الله بن سلام (رضي الله عنه) : «أن النبي (ص) يجلسه الله معه على العرش»[2] وذلك يتخرج على ما مهدناه، لأننا بينا أن الصورة التي يتجلى الله فيها هي ظلة غمامة،

= اللّهم أنت الصاحب في السفر ، والخليفة في الأهل .

اللّهم اني أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنظر وسوء المنقلب في المال والأهل والولد .

وإذا رجع قالهن ، وزاد فيهن : آيبون ، تائبون ، عابدون ، لربنا حامدون» ا هـ مخيون .

(١) الحيكم الترمذي [محمد بن علي] أبو عبد الله ، صاحب «نوادر الأصول» توفي سنة ٣٢٠ يشارك في الاسم واللقب والنسبة الحكيم الترمذي أبي بكر محمد بن عمر ، العالم الرباني المتوفى سنة ٢٨٠ ويخالفه في الكنية ، واسم الأب ، وهما متعاصران ، والأخير صاحب كتاب «العالم والمتعلم» ويلقب بالوراق ، ا هـ مخيون .

(٢) روى الحافظ الذهبي في «العلو للعلي الغفار» ص ١١٩ عن سلمة الأحمر ، عن أشعث بن طليق ، عن عبد الله بن مسعود ، قال : «بينا أنا عند رسول الله (ص) أقرأ عليه ، حتى بلغت ﴿عسىٰ أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾ قال : يجلسني على العرش» .

قال الذهبي : هذا حديث منكر ، لا يفرح به ، وسلمة متروك الحديث ، وأشعث لم يلحق ابن مسعود .

وروي عن سعيد الجريري ، عن سيف السدوسي ، عن عبد الله بن سلام ، قال : «إذا كان يوم القيامة جيء بنبيكم (ص) ، فأقعد بين يدي الله على كرسيه» فقلت للجريري : يا أبا مسعود إذا كان على كرسيه : أليس هو معه ؟ .

قال : ويلكم ، هذا أقر حديث في الدنيا لعيني .

هذا موقوف ولا يثبت أسناده .

حديث جويبر ، عن الضحاك ، عن ابن عباس في ذلك سيأتي ، وليس بصحيح ، ويروي مرفوعاً ، وإنما هذا شيء قاله مجاهد ، كما سيأتي ، فالله أعلم .

وفي ص ١٥٦ عن ليث ، عن مجاهد : ﴿عسىٰ أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾ قال : يجلسه ، أو يقعده على العرش .

لهذا القول طرق خمسة ، وأخرجه ابن جرير في تفسيره ، وعمل فيه المروزي مصنفاً ، وسيأتي إيضاح ذلك بعد .

وفي ص ١٦٦ حدثنا عمر بن مدرك الرازي ، ، حدثنا مكي بن إبراهيم ، عن جويبر ، عن الضحاك ، عن ابن عباس ، في قوله تعالىٰ : ﴿عسىٰ أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾ قال : يقعده على العرش . اسناده ساقط .

وعمر هذا الرازي متروك ، وفيه جويبر .

قال متكلم : اللام في العرش ليست للمعهود ، بل للجنس . =

وهي أنوار آياته، وفي تلك الصورة يتجلى على العرش، ونبينا (ص) يتجلى لأمته في ظلة سنته، وكتاب الله وسنة رسوله: لا يفترقان، كما لا تفارق «لا إله إلا الله

= قلت: (أي الذهبي) هذا مشهور من قول مجاهد، ويروي مرفوعاً، وهو باطل.

وفي ص ٢١١ قال المروزي: سمعت أبا عبد الله الخفاف، سمعت ابن مصعب، وتلا: ﴿عسىٰ أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾ قال: نعم يقعده على العرش.

ذكر الإمام أحمد: محمد بن مصعب، فقال: قد كتبت عنه، وأي رجل هو، فأما قضية قعود نبينا على العرش، فلم يثبت في ذلك نص، بل في الباب حديث أوه. وما فسر به مجاهد الآية كما ذكرناه، فقد أنكره بعض أهل الكلام، فقام المروزي وقعد، وبالغ في الانتصار لذلك، وجمع فيه كتاباً، وطرق قول مجاهد من رواية ليث بن أبي سليم وعطاء بن السائب، وأبي يحيى القتات، وجابر بن يزيد.

فمن أفتى في ذلك العصر بأن هذا الأثر يسلم، ولا يعارض أبو داود السجستاني، صاحب السنن وإبراهيم الحربي وخلق، بحيث أن ابن الإمام أحمد قال عقيب قول مجاهد: أنا منكر على كل من رد هذا الحديث، وهو رجل سوء، سمعته من جماعة، وما رأيت محدثاً ينكره، وعندنا إنما تنكره الجهمية، وقد حدّثنا هارون بن معروف، حدثنا محمد بن فضيل، عن ليث، عن مجاهد، في قوله: ﴿عسىٰ أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾ قال: يقعده على العرش، فحدثت به أبي (رحمه الله)، فقال: لم يقدر لي أن أسمعه من ابن فضيل، بحيث أن المروزي روى حكاية، بنزول عن إبراهيم بن عرفة، سمعت ابن عمير، يقول سمعت أحمد بن حنبل يقول: هذا تلقته العلماء بالقبول.

وقال المروزي: قال أبو داود السجستاني: حدثنا ابن صفوان الثقفي، حدثنا يحيى بن أبي كثير، حدثنا سلم بن جعفر، وكان ثقة، حدثنا الجريري، حدثنا سيف السدوسي، عن عبد الله بن سلام، قال: إذا كان يوم القيامة جيء بنبيكم (ص)، حتى يجلس بين يدي الله عزّ وجلّ، على كرسيه «الحديث».

وقد رواه ابن جرير في تفسيره [أعني قول مجاهد] ثم قال ابن جرير: ليس في فرق الإسلام من ينكر هذا، لا من يقر أن الله فوق العرش، ولا من ينكره.

كذلك أخرجه النقاش في تفسيره.

وكذلك رد شيخ الشافعية ابن سريج على من أنكره، إلى أن قال: ان الفقيه أبا بكر أحمد بن سليمان النجاد المحدث، قال فيما نقله عنه القاضي أبو يعلى الفراء، (المتوفى سنة ٤٥٨، والنجاد ـ وهو مذكور في «صفة القدم» من «هذه الرسالة ـ متوفي في سنة ٣٤٨ أنظر المقدمة): لو أن حالفا حلف بالطلاق ثلاثاً ان الله يعقد محمداً (ص) على العرش، واستفتاني، لقلت له: صدقت وبررت.

قال الذهبي: فابصر حفظك الله من الهوى، كيف آل الغلو بهذا المحدث إلى وجوب الأخذ بأثر منكر.

لمحمد رسول الله» فمن ههنا صحت المجالسة له مع ربه على عرشه، ووضح بهذا حسرة النفس التي شقيت بمخالفته على تفريطها في جنب الله، لأنها تشهد

أقول : هو حافظ ، وليس محدثاً فقط ، وله كتاب في «السنن» كبير . اهـ .

وفي ص ٢٤٦ وقد ذكرنا احتفال الإمام أبي بكر المروزي في هذا العصر لقول مجاهد : ان الله تعالىٰ يقعد محمداً (ص) على العرش . وغضب العلماء لإنكار هذه المنقبة العظيمة ، التي أنفرد بها سيد البشر ، ويبعد أن يقول مجاهد ذلك إلاَّ بتوقيف ، فإنه قال : قرأت القرآن من أوله إلى آخره ثلاث مرّات على ابن عباس (رضي الله عنهما) أقفه عند كل آية أسأله .

فمجاهد : أجل المفسرين في زمانه ، وأجل المقرئين ، تلا عليه ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن محيصن فممن قال : أن خبر مجاهد يسلم له ولا يعارض : عباس بن محمد الدوري الحافظ ، ويحيى بن أبي طالب المحدث ، ومحمد بن إسماعيل السلمي الترمذي الحافظ ، وأبو جعفر محمد بن عبد الملك الدقيقي ، وأبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني [صاحب السنن] وإمام وقته إبراهيم بن إسحاق الحربي ، والحافظ أبو قلابة عبد الملك بن محمد الرقاشي ، وحمدان بن علي الوراق الحافظ ، وخلق سواهم من علماء السنة ، ممن أعرفهم وممن لا أعرفهم .

ولكن : ثبت في الصحاح أن المقام المحمود في الشفاعة العامة ، الخاصة بنبينا (ص) .

وفي ص ٢٧٣ عن الإمام أبي محمد بن يحيى بن محمد بن صاعد ، حافظ بغداد : أنه قال في هذه الفضيلة في قعود النبي (ص) على العرش : «لا تدفعها ولا تماري فيها ، ولا تتكلم في حديث فيه فضيلة للنبي (ص) بشيء» .

انتهىٰ كلام الذهبي وما نقله ، أثبتناه بطوله ، والمنعمن في الآثار والأحاديث ، يرىٰ أن المتكلم الذي قال اللام في العرش ليست للمعهود ، بل للجنس : لم يعد الصواب ، فليس فيها نص جازم ، يؤكد جلوسه على العرش العظيم ، الذي استوىٰ عليه الرحمن .

أما قول الذهبي : ثبت في الصحاح أن المقام المحمود في الشفاعة العامة : الخاصة بنبينا (ص) فهذا لا ينكر .

ولكن ليس فيه نفي اجلاس المصطفىٰ (ص) على عرش مخصوص ، بهذا المقام المحمود ، فهو مقام تكريم ، من صورة أجلاس رسول الله (ص) على عرش ، أو على كرسي بين يدي الله ، كما في الأثر .

وللإبهام الذي(*) أتىٰ من الضمير الذي يوضح رجوعه إلى النبي (ص) قرائن ، منها قوله : «بين يدي الله» وهي جملة توهم المقابلة ، والله تعالىٰ منزه عن الجهات والشبه ، ولكنها قرينة على أن عرش المصطفىٰ المكرم به ، غير عرش الرحمن العظيم ، وعلى هذا ينفض الأشكال ، وإلاَّ احتيج للتأويل ، لأن قوله تعالىٰ : ﴿الله لا إله إلاَّ هو رب العرش العظيم﴾ يتعارض مع هذا الأثر . والله أعلم .

(*) في الأصل الذي راجعنا عليه «والإبهام أتىٰ» الخ ، ولا يفهم المعنىٰ .

هنالك حقيقة معية ربه له، ومجالسته.

اعتبار: ذكر أبو عبد الله الترمذي في «نوادر الأصول» له: حديث رؤيا رسول الله (ص) لأهوال القيامة[1] وفيه: «ورأيت رجلاً من أمتي، والنبيون حلق حلق، كلما دنا إلى حضرة طرد، فجاءه غسله من الجنابة فأخذ بيده، فأقعده إلى جنبي».

وهو أيضاً: يخرج على ما مهدناه، لأن اتباع السنة، تارة يكون فيما يقتضي التنزيه، وتارة يكون فيما يقتضي الحمد، وبهما يكمل الميزان، كما ثبت

---

(١) روى الحكيم، والطبراني عن عبد الرحمن بن سمرة «اني رأيت البارحة عجباً.
رأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته، ملائكة العذاب فجاءه وضوؤه فاستنقذه من ذلك.
ورأيت رجلاً من أمتي قد بسط عليه عذاب القبر، فجاءته صلاته فاستنقذته من ذلك.
ورأيت رجلاً من أمتي قد أحتوشته الشياطين، فجاءه ذكر الله فخلصه منهم.
ورأيت رجلاً من أمتي يلهث عطشاً فجاءه صيام رمضان سقاه.
ورأيت رجلاً من أمتي من بين يديه ظلمة، ومن خلفه ظلمة، وعن يمينه ظلمة، وعن شماله ظلمة، ومن فوقه ظلمة، ومن تحته ظلمة، فجاءته حجته وعمرته فاستخرجاه من الظلمة.
ورأيت رجلاً من أمتي جاءه ملك الموت ليقبض روحه، فجاءه بره بوالديه فرده عنه.
ورأيت رجلاً من أمتي يكلم المؤمنين ولا يكلمونه، فجاءته صلة الرحم فقالت: إن هذا كان واصلاً لرحمه، فكلمهم وكلموه، وصار معهم.
ورأيت رجلاً من أمتي يأتي النبيين وهم حلق حلق، كما مر على حلقة طرد، فجاءه اغتساله من الجنابة فأخذ بيده فأجلسه إلى جنبي.
ورأيت رجلاً من أمتي يتقي وهج النار بيديه عن وجهه، فجاءته صدقته فصارت ظلاً على رأسه، وستراً عن وجهه.
ورأيته رجلاً من أمتي جاءته زبانية العذاب، فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، فاستنقذه من ذلك.
ورأيت رجلاً من أمتي هوى في النار، فجاءته دموعه التي بكى بها في الدنيا من خشية الله فأخرجته من النار.
ورأيت رجلاً من أمتي قد هوت صحيفته إلى شماله، فجاءه خوفه من الله تعالى فأخذ صحيفته فجعلها في يمينه.
ورأيت رجلاً من أمتي قد خف ميزانه، فجاءه أفراطه فثقلوا ميزانه.
ورأيت رجلاً من أمتي على شفير جهنم، فجاءه وجله من الله تعالى فاستنقذه من ذلك.
ورأيت رجلاً من أمتي يرعد كما ترعد السعفة، فجاءه حسن ظنه بالله تعالى فسكن رعدته.

في الصحيح «الطهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان»[1] .

وصاحب غسل الجنابة : إذا شهد نور المتابعة المحمدية في الغسل ، حصل له شطر الإيمان ، فلذلك فاز بصحبته للجنب المحمدي ومجالسته .

= ورأيت رجلاً من أمتي يزحف على الصراط مرة ويحبو مرة ، فجاءته صلاته عليه فأخذت بيده فأقامته على الصراط حتى جاز .

ورأيت رجلاً من أمتي انتهى إلى أبواب الجنة ، فغلقت الأبواب دونه ، فجاءته شهادة أن لا إله إلاّ الله فأخذت بيده ، فأدخلته الجنة» .

ورواه في «الوابل الصيب» بمغايرة ، وقال : رواه الحافظ أبو موسى المديني ، في كتاب «الترغيب في الخصال المنجية ، والترهيب من الخلال المردية» وبنى كتابه عليه ، وجعله شرحاً له ، وقال : هذا حديث حسن جداً .

(١) في صحيح مسلم ، عن أبي مالك الأشعري(رضي الله عنه) ، قال : قال رسول الله (ص) : «الطهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملآن ، [أو تملأ] ما بين السموات والأرض» .

فصل صفة الفوقية

وأما صفة الفوقية ، فقد جاء بها الكتاب والسنة ، كقوله تعالىٰ : ﴿يخافون ربهم من فوقهم﴾ وقوله تعالىٰ : ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ وآيات كثيرة ، وأحاديث ، وهو معدود من المتشابه ، وذلك أن «فوق» كلمة موضوعة لافادة جهة العلو ، والله تعالىٰ منزه عن الجهات ، وإنما المراد منها حيث أطلقت في حق ربنا سبحانه : إفادة العلو الحقيقي[1] .

ومما يدل على عدم اختصاصه بجهة «فوق» قوله تعالىٰ : ﴿وهو الله في السموات وفي الأرض﴾ وقوله : ﴿وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله﴾ وقوله تعالىٰ : ﴿ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله﴾ وقوله : ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ وقوله : ﴿ولا أدنىٰ من ذلك ولا أكثر إلاّ هو معهم﴾ وآيات كثيرة يطول ذكرها ، ولو كان في جهة العلو : لتعارضت هذه الآيات ، واختلفت ، وهو مناف لقوله تعالىٰ : ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه إختلافاً كثيراً﴾ .

وفي مسلم[2] عن أبي هريرة (رضي الله عنه) : أنه (ص) قال :

---

(١) في نسخة : العلو الرتبي .

(٢) في صحيح مسلم ، باب ما يقول في الركوع والسجود ، عن أبي هريرة أن رسول الله (ص) قال : «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، فأكثروا من الدعاء» .

«أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»(١) فنفي تقييده بجهة فوق ، وهو : ﴿وما ينطق عن الهوىٰ * إن هو إلا وحي يوحىٰ﴾ .

والذي يجمع بين الآيات والأحاديث : أن يعلم أن العلو له اعتباران : اعتبار إضافي ، واعتبار حقيقي ، فعلو المخلوقات بعضها على بعض ، إنما هو علو إضافي ، لأن ما من مخلوق له جهة علو ، إلا وهو مستقل بالنسبة إلى مخلوق آخر هو فوقه ، إلى ما يشاء الله .

وهذا العلو الإضافي قسمان :

قسم حسي : وهو المفهوم بالنسبة إلى الجهات المكانية ، المخصوص بالجواهر المفتقرة للحين .

وقسم معنوي : وهو المفهوم بالنسبة إلى درجات الكمال العرفاني ، لأرباب القلوب ، أو الكمال الوهمي لأرباب التقوىٰ(٢) قال تعالىٰ : ﴿ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات﴾ وقال تعالىٰ : ﴿أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً﴾ هذا كله في العلو الإضافي .

وأما العلو الحقيقي ، فإنما هو لله سبحانه ﴿وسع كرسيه السموات والأرض ولا يئوده حفظهما وهو العلي العظيم﴾ وعلوه هذا محقق قبل الجهات والأماكن ، مفهوم بدون اعتبار النسب والاضافات ، عام في جميع تجلياته على مخلوقاته بأسمائه وصفاته .

وإنما يعرفه ويشهده أرباب البصائر والقلوب ، ولتجلي نور توحيده بعلو فوقيته سبحة ، وله حجاب ، فسبحته(*) صفة القهر ، وحجابه خلوص العبودية ، قال تعالىٰ : ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ .

تنبيه : إذا أردت أن تتحقق أن فوقيته ليست فوقية مكانية ، وإنما هي الفوقية الحقيقية ، بقهر الربوبية للعبودية ، فتفكر في حديث(٣) «كان الله ولا شيء معه»

---

(١) ورواه داود ، والنسائي ، والبزار ، عن عبد الله بن مسعود ، وبقيته «فأكثروا الدعاء» .

(٢) في نسخة لأرباب النفوس .

(*) بضم السين وسكون الباء ، وفي القاموس وسبحات وجه الله : أنواره .

(٣) روى البخاري في صحيحه ، في «بدء الخلق» عن عمران بن حصين ، قال : قال رسول الله (ص) : «كان الله ، ولم يكن شيء غيره ، وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء ، وخلق السموات والأرض ، فنادىٰ مناد ذهبت ناقتك يا ابن الحصين ، فانطلقت ، فإذا =

ولم يتجدد له بخلقه للسموات علو ، ولا بخلقه الأرض تزول ، ولا بخلقه للعرش استواء .

وإنما عن تجلي أسمائه وصفاته نشأت أعداد مخلوقاته ، غير مماسة له[1] ولا منتسبة إليه بفوق ولا تحت ، ولا شيء من الجهات ، قال تعالىٰ : ﴿سبح اسم ربك الأعلىٰ * الذي خلق فسوى﴾ فوصفه بالأعلىٰ حال إتصافه بالخلق ، فدل على أن علوه محقق قبل الخلق ، ولذا قال تعالىٰ : ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ الآية ، وصف نفسه آخر الآية بالعلو والتنزيه ، في قوله تعالىٰ بعد ذكره قبضه للأرض وطيه للسماء[2] ، فدل على أن علوه علو حقيقي : لا مكاني .

وتأمل قوله تعالىٰ : ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾[3] مع قول فرعون على بني

= هي يقطع دونها السراب ، فوالله لوددت أني كنت تركتها» .

قال الشرقاوي في «شرحه» على «الزبيدي» كان الله في الأزل ، أي أنفرد وتوحد ، فكان تامة وجملة «ولم يكن شيء غيره» حالية ، ويحتمل أنها خبر كان على مذهب الأخفش ، المجوز دخول الواو في خبر كان وأخواتها ، نحو كان زيد وأبوه قائم .

وأما ما وقع في بعض الكتب في هذا الحديث «كان الله ولا شيء معه ، وهو الآن على ما عليه كان» قال ابن قتيبة هذه زيادة ليست في شيء من كتب الحديث ، اهـ مخيون .

(١) روى ابن تيمية في «تفسير سورة الاخلاص» عن الضحاك عن ابن عباس ، أن وفد نجران قدموا على النبي (ص) بسبعة أساقفة ، من بني الحرث بن كعب ، منهم : السيد ، والعاقب ، فقالوا للنبي (ص) : صف لنا ربك ، من أي شيء هو ؟ .

قال النبي (ص) : «ان ربي ليس من شيء ، وهو بائن من الأشياء» فانزل الله تعالىٰ : ﴿قل هو الله أحد﴾ .

قال الإمام الدردير في شرحه على خريدته في التوحيد ، عند قوله (مخالف للغير) : أي مخالفته تعالىٰ لغيره من الحوادث ، فليس تعالىٰ بجوهر ، ولا جسم ، ولا عرض ، ولا متحرك ، ولا ساكن ، ولا يوصف تعالىٰ بالكبر ، ولا بالصغر ، ولا بالفوقية ، ولا بالتحتية ، ولا بالحلول في الأمكنة ، ولا بالاتحاد ، ولا بالاتصال ، ولا بالانفصال ، ولا باليمين ، ولا بالشمال ، ولا بالخلف ، ولا بالأمام ، ولا بغير ذلك من صفات الحوادث ، إذ لو كان مماثلاً لها لوجب له تعالىٰ ما وجب لها من الحوادث ، والافتقار ، وذلك محال ، لما مر .

واعلم : ان العالم وان عظم في نفسه ، فهو بالنسبة لعظم قدرته تعالىٰ ليس بشيء ، فكيف يكون العلي الكبير ، القديم ، القدير : حالاً أو متصلاً أو منفصلاً ، او مستقراً ، أو على جهة لهذا الشيء الحقير الحادث الفقير ، اهـ مخيون .

(٢) الآية بتمامها ﴿وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالىٰ عما يشركون﴾ سورة الزمر ؛ الآية : ٦٧ .

(٣) سورة الأنعام ؛ الآية : ١٨ .

إسرائيل ﴿سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون﴾[1] فهل يفهم أحد أن فرعون ادّعىٰ أنه فوق بني إسرائيل : نسبة بالمكان أو بالجهة .

وإنما لما أدّعىٰ الربوبية بقوله : ﴿أنا ربكم الأعلىٰ﴾ كان من لازم دعواه ادعاؤه الفوقية اللائقة بالربوبية ، وهي الفوقية الحقيقية ، بالقهر ، فلذلك قال : ﴿وانا فوقهم قاهرون﴾ .

لا جرم كذبه الله في الأمرين :

فكذبة في قوله : ﴿أنا ربكم الأعلىٰ﴾ بقوله لموسىٰ : ﴿لا تخف إنك أنت الأعلىٰ﴾ .

وكذبه في قهره بقوله : ﴿فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم * وأضل فرعون قومه وما هدىٰ﴾ .

تنبيه : قوله تعالىٰ : ﴿رفيع الدرجات﴾ يرجع إلى العلو والفوقية الحقيقية ، وليس المراد : أن العلو الحقيقي له درجات وتفاوت .

وإنما المراد : أن للعباد في ترقيهم إلى معرفته وخلوص التحقيق به : درجات :

الأولىٰ : درجة الإيمان .

والثانية : درجة التقوىٰ .

والثالثة : الاتباع .

والرابعة : درجة العلم .

قال تعالىٰ : ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾ .

تنبيه : قوله تعالىٰ : ﴿في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه﴾ وقد

---

(١) سورة الأعراف ؛ الآية : ١٢٧ .

فسرت بالمساجد ، وفسرت بالقلوب ، وكيفما كان ، فرفعها : تحققها واشتمالها على ما ذكره من الدرجات المذكورة ، وتمام الآية يحققه .

تنبيه : لما ادّعىٰ فرعون الربوبية ، واعتقد الجهة لله تعالىٰ قال : **﴿يا هامان ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب * أسباب السموات فأطلع إلى إله موسىٰ﴾** فرد الله عليه وسخف سوء رأيه بقوله تعالىٰ : **﴿وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل﴾** أي عدل عن سبيل القرب والدنو من إله موسىٰ ، فإنه تنزه عن علو المكان ، وإنما يصعد إليه بالكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه[1] .

أين هو من قول موسىٰ **﴿وعجلت إليك رب لترضىٰ﴾** مع أنه لم يبن له صرح ، ولا احتاج في الدنو والقرب إلى صعود السماء .

وكذلك إبراهيم حين جاء ربه بقلب سليم ، ووهب له لسان صدق علي ، فكان مجيئه إليه ، ووصوله إليه ، وعلوه : بسلامة القلب وصدق اللسان ، لا بالتسور والصعود للمكان ، وقد ثبت إيواء الله للمؤمنين في قوله تعالىٰ : **﴿واذكروا إذا أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم﴾** .

وفي صحيح البخاري[2] عن أبي واقد الليثي، أن ثلاثة حضروا حلقة ذكر ، فدخل أحدهم الحلقة ، والثاني جلس خلفهم ، والثالث أدبر ذاهباً ، فقال (عليه الصلاة والسلام) : «أما أحدهم فأوىٰ إلى الله فآواه الله ، والآخر استحيا فاستحيا الله منه ، والآخر أعرض ، فأعرض الله عنه» .

فنبه (ص) ، على أن الداخل أوىٰ إلى الله ، فآواه الله ، مع العلم بأنه ليس الإيواء في الآية والحديث باعتبار مكان .

وفي صحيح[3] مسلم وغيره عن أبي هريرة (رضي الله عنه) ، أن النبي (ص)

---

(١) يشير لقوله تعالىٰ : **﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾** اهـ مخيون .

(٢) في «كتاب العلم» من صحيح البخاري ، عن أبي واقد الليثي أن رسول الله (ص) بينما هو جالس في المسجد ، والناس معه إذ أقبل ثلاثة نفر ، فأقبل أثنان إلى رسول الله (ص) ، وذهب واحد ، قال : فوقفا على رسول الله (ص) ، فأما أحدهما ، فرأى فرجة في الحلقة ، فجلس فيها ، وأما الآخر فجلس خلفهم ، وأما الثلث ، فأدبر ذاهباً ، فلما فرغ رسول الله (ص) قال : ألا أخبركم عن النفر الثلاثة : اما أحدهم فاوى إلى لله فآواه الله ، وأما الآخر فاستحيا ، فاستحيا الله منه ، وأما الآخر ، فاعرض ، فأعرض الله عنه» اهـ مخيون .

(٣) في صحيح مسلم في باب «النهي عن البصاق في المسجد» ، عن أبي هريرة : أن رسول الله =

رأى نخامة في المسجد [في القبلة] فقال : «ما بال أحدكم يقوم مستقبل ربه فيتنخع أمامه ، أيحب أحدكم أن يستقبل فيتنخع في وجهه» .

فدل على أنه ليس مخصوصاً بجهة فوق ، وإلاَّ لما كانت قبلة المصلي ، وأمامه .

وبالجملة ، فالأحاديث الدالة على عموم إحاطة ربنا لجميع الجهات ، وعدم اختصاصه : كثيرة .

والقصد : قد حصل بما ذكرناه .

= (ص) رأى نخامة في قبلة المسجد ، فأقبل على الناس ، فقال : «ما بال أحدكم يقوم مستقبل ربه ، فيتنخع أمامه ، أيحب أحدكم أن يستقبل فيتنخع في وجهه ، فإذا تنخع أحدكم فليتنخع عن يساره ، تحت قدمه ، فإن لم يجد فليقل هكذا [ووصف القاسم أحد رواته] فتفل في ثوبه ، ثم مسح بعضه على بعض .

«والنخامة من الحلق ، أو الخيشوم ، ويُقال لها : النخاعة ، وتنخع ، بمعنى : تنخم» .

فليقل هكذا ، أي فليفعل .

وإطلاق القول على الفعل : مجاز مرسل ، علاقته السببية ، فإن القول يصير سبباً للفعل ، اهـ نووي» اهـ مخيون .

فصل الاسراء

قصة الإسراء : وإن كانت مشتملة على الترقي بالنبي (ص) إلى السموات ، فليست منافية لما ذكرناه ، ولا مستلزمة لإثبات الجهة ، ويدل عليه أمور ، منها افتتاح السورة بـ «سبحان» المقضى للتنزيه تنبيهاً على تعاليه عن التحيز بالجهات ، وعلى عدم اختصاصه بجهة .

الثاني : قوله تعالى : ﴿أسرى بعبده﴾ فأتى بباء الإلصاق ، المفيدة للمصاحبة ، في تعدية الفعل : تنبيهاً على مصاحبته له في إسرائه ، وانه ليس نائياً ولا بعيداً عنه ، فيحتاج في قربه إلى قطع مسافة مكانية ، وتحقيقاً لقوله (ص) : «اللّهم أنت الصاحب في السفر» .

الثالث : قوله تعالىٰ : ﴿بعبده﴾ تنبيهاً على إنه على حسب التحقق بخضوع العبدية ، يكون الترقي إلى حضرة الربوبية .

الرابع : قوله : ﴿ليلاً﴾ وإن كان لفظ الإسراء مفيداً لذلك ، تنبيهاً على أن كل ما تضمنه الإسراء ، كان خارجاً عن العادة في مثله ، فإنه جعل العلة فيه : أن يريه من آياته ، والإراءة العادية سلطانها النهار ، فقال : ﴿ليلاً﴾ ليعلم أن الرؤية المقصورة ليست عادية ، بل هي رؤية : بنور رباني ، سلطانه الليل ، دون النهار .

الخامس : قوله تعالىٰ : ﴿من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصىٰ﴾ نبه به على أن الإسراء لو كان لضرورة رؤية ربه لكونه مخصوصاً بجهة العلو : لم تكن

حاجة بالذهاب إلى المسجد الأقصى ، ولأمكن الترقي من مكة إلى السماء .

فدل على أن الإسراء والترقي ، من مكان لمكان : لحكمة وراء زعم مثبت الجهة ، والسر فيه ، وفي كونه ذكره الله تعالى في كتابه : تنبيهاً على أن العبد لا يصل إلى الله إلاّ فرداً ، تحقيقاً ، لقوله تعالى : ﴿وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً﴾ ولا تتحقق له الفردية إلاّ بعد مفارقة الحوادث وتجرده عنها .

فهنالك يصل إلى حضرة عنديته .

وقد جاء الكتاب العزيز بالتنبيه على أن حضرة عنديته ، وراء دوائر السموات والأرض ، قال تعالى : ﴿وله من في السموات والأرض ومن عنده﴾[1] فعطف (من عنده) على ﴿من في السموات والأرض﴾ والعطف يقتضي المغايرة . فدل على أن حضرة العندية وراء السموات والأرض ، وهي مع ذلك محيطة بحضرات السموات والأرض ، كإحاطة ربنا بذلك كله ، مباينة له كمباينته ، فمن أرادها فعليه بتفرقة الحوادث ومباينته لها .

ثم اعلم ان الفرقة فرقتان : فرقة قلبية غيبية ، وفرقة حسية : فإن فارقها بقلبه وصل إلى الله بقلبه ، وإن فارقها بحسه تبعاً لقلبه ، وصل إلى الله بحسه وقلبه ، فلذلك كان الإسراء ، مرتين : مرة بالروح ، ومرة بالجسد ، تنبيهاً على أنه (ص) شرع لأمته فراق الحوادث مرتين : مرة بالروح ، وهو الإسراء الأول ، ومرة بالجسد حساً ، وهو الإسراء الثاني ، ومن المعلوم أنه لا يتحقق لفرقة الحوادث حساً إلاّ بمجاوزة دوائر الأفلاك كلها ، كما ثبت ليلة الإسراء . وأما ترتيب نعليه ، وترقيه في توجهه : ففيه أسرار بديعة : أظهرها وأجلاها : ان فرض الصلاة كان ليلة الإسراء ، والصلاة حضرة القرب والمناجاة والمراقبة المثمرة لنعيم الرؤية .

ومن المعلوم أن التوجه توجهان : روحاني ، وحسي . فقبلة التوجه الروحاني : وجه الله ، ولا اختصاص له بمكان ، وأما التوجه الحسي فله قبلتان : بيت المقدس والكعبة ، فبيت المقدس : هو قبلة الأنبياء ، والكعبة . هي قبلة إبراهيم (ع) ، فجاء الإسراء الروحاني أولاً تأسيساً للشريعة في قوله تعالى : ﴿ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله﴾ وجاء الإسراء الحسي مبدوءاً بالتوجه

---

(١) هذا رأي ، ورأي آخر أن الواو : واو الابتداء ، وجملة ﴿من عنده﴾ مبتدأ ، خبره ﴿لا يستكبرون عن عبادته﴾ والواو في كلا الحالين تفيد المغايرة .

لبيت المقدس ، ثم إلى السماء ، ثم بالرجوع إلى الكعبة تأسيساً للشريعة في التوجه الحسي في الصلاة أولاً لبيت المقدس ، ثم للسماء في قوله تعالىٰ : ﴿قد نرىٰ تقلب وجهك في السماء﴾ ثم بالرجوع إلى قبلة مكة في قوله تعالىٰ : ﴿فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾ .

إشارة : لما كان توجه الإسراء إلى مكة بعد خروجه من حضرة القرب في التلقي إلى حضرة القرب في التبليغ ، جاء التشريع في التوجه إلى الكعبة على وفق المناسبة ، فقال فيه : ﴿ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾ ومن هذا يفهم السر في قوله تعالىٰ : ﴿ومن الليل فتهجد به نافلة لك﴾ إلى قوله : ﴿وأخرجني مخرج صدق﴾ وهذا المخرج للدعوة والتبليغ ، هو المخرج الذي ورثه عنه أمته في قوله تعالىٰ : ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ الآية .

تنبيه : قوله تعالىٰ : ﴿ثم دنا فتدلىٰ * فكان قاب قوسين أو أدنىٰ﴾ إيّاك أنْ تفهم أن ذلك يشعر بتحديد في القرب ، أو تخصيص في جهة ، وإنما هو دنو تجل وكشف ، لأنه ذكره في قصة الإسراء بالروح ، ألا ترىٰ قوله تعالىٰ بعده : ﴿ما كذب الفؤاد ما رأىٰ﴾ ثم ذكر بعده الإسراء الحسي فقال تعالىٰ : ﴿ولقد رآه نزلة أخرىٰ﴾ إلى قوله : ﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرىٰ﴾ فإذا علم أنه دنو تجل روحاني ، وكشف عرفاني ، فهمت سر قوله : ﴿وهو بالأفق الأعلىٰ﴾ من قوله : ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق﴾ فكان أفقه في الرؤية، وفي بيان الحق فكان ﴿قاب قوسين﴾ أي قدر قوسين ، والقوس في اللغة يستعمل للذراع ، وما يقدر ويقاس به ، وهو المراد هنا ، وهو من قوله تعالىٰ في الصحيح : «أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه حين يذكرني» الحديث ، وفيه : «فإن تقرب إلي شبراً تقربت منه ذراعاً ، وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت منه باعاً» . وليس المراد فيهما ذراع حسي محدود ، إنما المراد تمثيل التقريب لدنو الذاكر من المذكور في مجالس النجوىٰ والذكر ، وتجلى سر المعية للقلب ، وأوفىٰ الرتب في ذلك تحقق القلب بسر ﴿سبحان الله﴾ وسر ﴿الحمد لله﴾ وكذلك كان (ص) ليلة الإسراء . وإذا أردت التحقق لذلك فخذه من افتتاح سورة الإسراء بـ : ﴿سبحان﴾ واختتامها بقوله : ﴿وقل الحمد لله﴾ ثم نبه على انتفاء التقدير من دنوه بقوله : ﴿أو أدنىٰ﴾ وهو التحقق بالتوحيد في نعيم الرؤية للآية الكبرىٰ ، وهي : ﴿لا إله إلاّ الله﴾ ولذلك وصفه بقوله آخر سورة الإسراء : ﴿وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً﴾ إلى

قـوله : ﴿وكبـره تكبيراً﴾ تحقيقـاً لقولـه : «وما بينهم وبين النـظر إلى ربهم إلاّ رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»[1] كما قدّمناه .

إيضاح : إذا أردت أن تفهم سر التـدلي في قولـه : ﴿فتدلىٰ﴾ فتـأمل مـا رواه أبو عيسىٰ الترمذي من حديث العنـان ، وفيه ذكـر الأرضين السبع ، وان مـا بين كل أرض وأرض كما بين السماء والأرض ، ثم قـال (عليه الصلاة والسلام) : «والـذي نفسي بيده لو دلى أحدكم بحبل لـوقع على الله» فنبـه (ص) على عدم تحيـزه تعالىٰ في السماء ، وأنه ليس مختصاً بجهة ، كمـا نبه على ذلـك قولـه تعالىٰ : ﴿ثم دنـا فتدلى﴾ فإن الإسراء كان للعلو ، فربما توهم المحجوب أن الدنو في قـوله تعـالىٰ : ﴿دنـا﴾ زيادة العلو ، فنبـه بقولـه : ﴿فتدلىٰ﴾ على أن قـربه ﴿قـاب قـوسين﴾ كـان ثمرة التدلي المشعر بالتنـزل ، وأنه تعـالىٰ لا يختص قربـه بجهة العلو ، بـل التدلي إليه بالخضوع أقرب تحقيقاً ، لقوله : ﴿فاسجد واقترب﴾ وفي الصحيـح «أقرب مـا يكون العبد من ربه وهو ساجد»[2] .

تبصرة : قوله (ص) : «لو دلي أحدكم بحبل لوقع على الله»[3] لـه تأويـلان :

---

(١) روى مسلم في صحيحه «باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالىٰ» من كتـاب الإيمـان ، عن عبد الله بن قيس عن النبي (ص) قـال : «جنتان من فضـة آنيتهمـا ومـا فيهمـا ، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، ومـا بين القوم وبين أن ينـظروا إلى ربهم إلاّ رداء الكبريـاء على وجهه في جنة عدن» اهـ مخيون .

(٢) رواه البزار عن عبد الله بن مسعود .

(٣) عن أبي هريرة (رضي الله عنـه) قال : «بينمـا رسول الله (ص) جـالس وأصحابـه إذ أتىٰ عليهم سحاب ، فقال رسول الله (ص) : «أتدرون ما هذا ؟ .

قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : هذه العنان ، هذه زوايا الأرض ، يسوقها الله تعالىٰ إلى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه .

ثم قال : هل تدرون ما فوقكم ؟ .

قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : فإنها الرقيع : سقف محفوظ وموج مكفوف .

ثم قال : هل تدرون كم بينكم وبينها ؟ .

قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : بينكم وبينها خمسمائة سنة .

ثم قال : هل تدرون ما فوق ذلك ؟ .

قالوا : الله ورسوله أعلم .

ظاهر وباطن ، فالظاهر التنبيه على إحاطته سبحانه بكل شيء ، وعلى إحاطة حضرته كما قدمناه في الإسراء .

وأما الباطن فالحبل حبلان : حادث ، وقديم . فالحادث : حبل الوريد ، وهو الحديث النفساني والنور العقلي ، فلو دلىٰ المتفكر حبل شعاع عقله إلى منتهىٰ المخلوقات السفلية ، لوقع في كل حضرة من حضرات مدركاته على الله ، لأنه أقرب إليه من كل شيء **﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾** .

وأما الباطن القديم : فهو حبل الله المتين ، وكتابه المبين ، فمن تمسك به : شهد سر تنزله على أراضي القلوب ، ووقوع حبل أشعته على الله فيها ، لأن القلب بيت الرب **﴿فلا أقسم بمواقع النجوم﴾** إلى قوله : **﴿ولكن لا تبصرون﴾** .

تبصرة : إذا أردت زيادة التبصر بأن الإسراء ، وعروج الملائكة ، ورفع

= قال : سماءان ، بعدما بينهما خمسمائة سنة ، حتى عد سبع سموات ، ما بين كل سماءين كما بين السماء والأرض .

ثم قال : هل تدرون ما فوق ذلك ؟ .

قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : فإن فوق ذلك العرش ، وبينه وبين السماء بعد ما بين السماءين .

ثم قال : هل تدرون ما الذي تحتكم ؟ .

قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : فإنها الأرض .

ثم قال : هل تدرون ما الذي تحت ذلك ؟ .

قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : فإن تحتها أرضاً أخرىٰ بينهما خمسمائة سنة ، حتى عد سبع أرضين ، بين كل أرضين خمسمائة سنة .

ثم قال : والذي نفس محمد بيده لو أنكم دليتم بحبل إلى الأرض السابعة السفلىٰ لهبط على الله ، ثم قرأ : **﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم﴾** أخرجه الترمذي ، وقال حديث غريب .

وقال : قال بعض أهل العلم في تفسير هذا الحديث : انما أراد «لهبط على علم الله ، وقدرته وسلطانه» وعلم الله وقدرته وسلطانه في كل مكان ، وهو على العرش كما وصف نفسه في كتابه والعنان : اسم للسحاب، ومعنىٰ زوايا الأرض : الحوامل ، والرقيع : اسم للسماء ، وقيل : هو اسم لسماء الدنيا ، ا هـ مخبون . =

عيسىٰ ، وإدريس (ع) ، لا يـدل على أن الله تعالىٰ مخصوص بجهة السماء ، فاعتبر فرض الحج على العباد إلى البيت الحرام ، وأمر الله تعالىٰ الناس بالتوجه إليه من جميع الجهات ، وجعل سكانه جيران الله[1] وحجاجه وفدة وضيفانه ، والحجر الأسود يمينه ، مع أن نسبة البيت وغيره إلى الله سبحانه باعتبار المسافة واحدة ، فعلم أن القصد بالسير إلى البيت : ليس مقصوداً ، لأن السير يقتضي القرب والوصول إليه بالمكان ، وإنما لله سبحانه تعبدات وأسرار في ضمن مشروعات يقتضيها من عباده ، لحكم ظاهرة وخفية ، ألا تراه كيف ناجىٰ موسىٰ بالوادي المقدس ، وأسمعه كلامه من الشجرة[2] ووصفه بالقرب إلى مجلس حضرته ونجواه ، مع الاتفاق على أنه تعالىٰ لا يختص بجهة الوادي المقدس ، ولا يحل كلامه ـ وهو صفته ـ بالشجرة ، وان موسىٰ قرب إليه مع كونه بالأرض ، وسمع نداء ربه من جانب الطور ، ولم يكن ربه بجانب الطور ، وإنما لتجلياته مظاهر وحجب روحانية وجسمانية ، لا يشهدها إلّا من فتق الله رتق قلبه ، وفلق أصباح ليله ، ونور مصباح مشكاته ، بزيت شجرة توحيده **﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور﴾** .

تشكيك : قد يورد على ذلك نحو قوله تعالىٰ : **﴿أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض﴾** وقوله : **﴿يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه﴾** وأمثال ذلك :

وقوله (ص)[3] للجارية «أين الله ؟» .

---

(١) روى النسائي وغيره عن أبي هريرة : «وفد الله ثلاثة الغازي ، والحاج ، والمعتمر» أما «سكان الحرم جيران الله» فلم أطلع عليه في كتب الحديث ، وظاهر استنباطه من القرآن العظيم قوله تعالىٰ : **﴿أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم﴾** . وأما «الحجر الأسود يمين الله» فقد سبق ذكره ، ا هـ مخيون .

(٢) روى ابن جرير عن عبد الله بن مسعود ، قال : «رأيت الشجرة التي نودي منها موسىٰ (ع) سمرة خضراء ترف» يعني من شجر السمر .

(٣) أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي وغيرهم عن معاوية بن الحكم السلمي ، قال : «كانت لي غنم بين أحد والجوانية ، فيها جارية لي ، فأطلعتها ذات يوم ، فإذا الذئب قد ذهب منها بشاة ، وأنا رجل من بني آدم ، فأسفت فصككتها ، فأتيت النبي (ص) ، فذكرت ذلك له ، فعظم ذلك علي ، فقلت : يا رسول الله أفلا أعتقها ؟ قال : أدعها . فدعوتها ، فقال لها : أين الله ؟ قالت : في السماء . قال : من أنا ؟ قالت : أنت رسول الله (ص) ، قال : اعتقها فإنها =

فقالت : في السمـــاء .

قال : أعتقها فإنها مؤمنة» .

والجواب : أنه قـد قررنـا أن تجلياتـه تعالىٰ بـأسمائـه وصفاتـه محيطة بـدوائر السمـوات والأرض ، وأن لها في تصـرفها وسـائط سفلية منسـوبة للعبـاد ، ووسـائط علويـة منسوبة له ، فـأطلق على نفسه سبحـانه انـه في السماء بـاعتبار الـوسـائط ، ومـظاهر تجليـاته العلويـة ، وانه في الأرض بـاعتبار المـظاهر ، والـوسائط السفليـة **﴿وهـو الـذي في السمـاء إلـه وفي الأرض إلـه﴾** وقـال تعـالىٰ : **﴿لا تتخـذوا إلهين إثنيـن إنمـا هو إلـه واحد﴾** فـإذا كـان المقصـود بـالسيـاق تحـذيـر أهـل الأرض ، وتفخيم الأمـر : جاء التعبيـر بمن في السماء ، فـإن مظاهـره السماويـة هي القائمـة بالتصرفات الغيبية المنسوبة إليه ، كما قررناه .

وأما تنزل التـدبير وعـر وجه ، فهـو عروج روحـاني ، وسر رحمـاني ، وكشف عرفاني ، وسيأتي له مزيد بيان بعد ذكر مسألة الاستواء .

وأما تقرير الجاريـة على أن الله في السماء ووصفهـا بأنهـا مؤمنة ، فـالحق أن النبي (ص) : لـم يعتمد في إيمانها وتقريرها ظـاهر لفـظها ، فـإن لفظهـا ليس مقيداً لتوحيد الله ، لا على المذهب القائل بالجهة ولا غيرهم .

أمـا عنـد من لا يثبت الجهـة فـواضـح ، وأمـا عنـد مثبت الجهـة ، فـلأنهم مـوافقون على أنـه قد عبـدت المـلائكـة والشمس والكـواكب ، وهي في السمـاء ، وعبـد عيسىٰ وهو حـين الأخبـار في السماء ، وليس في لفـظها مـا يخـرج هؤلاء عن الآلهة ، ولا ما يقتضي وصفها بالإيمان .

وأقرب احتمال في ذلك أن الجاريـة أشرق لبصيـرتها نـور التوحيـد في الآفاق السمـاوية ، تحقيقـاً لقولـه تعالىٰ : **﴿سنـريهم آياتنـا في الآفاق﴾** الآيـة . فلما قـال لها : أين الله ؟ قالت في السماء .

أي ظهر نور توحيده في السماء ، فقال : «اعتقها فإنها مؤمنة» .

= مؤمنة» اهـ مخيون .

وأقول : هذه المرأة كانت خرساء ، ومعنىٰ قالت : أشارت .

أنظر في ذلك «استحالة المعية بالذات» ففيه تفصيل طيب يجب أن تقرأه .

ويحقق ذلك كونه لم يقل : انها مسلمة ، لأن الإسلام تتعلق أحكامه باللسان والجوارح الظاهرة ، ولم يكن ظهر منها شيء من ذلك يعتمد عليه ، وقال : «انها مؤمنة» والإيمان من لوازم القلوب ، فدل على أن اعتماد النبي (ص) في تقريرها ، كان أمراً [ما] شهده منها يرجع إلى قلبها ، لا إلى لفظها ، مع احتمال لفظها له ، فلذلك أقرها عليه ، والله أعلم .

فصـل الاستـواء

ومن الآيات المتشابهة ، آيات الإستـواء ، والأحاديث الـواردة فيه ، ومـرجعها عنـد المحققين إلى الآيـات المحكمـات ، وأول مـا ينبغي تقـديمـه معنىٰ الاستـواء لغة ، وأصله : أفتعال ، من السـواء ، والسواء في اللغـة : العدل ، والـوسط ، وله وجـوه في الاستعمـال تـرجع إلى ذلـك ، منهـا إستـوىٰ : بمعنى أقبـل ، نقله الهروي[1] عن الفراء[2] قال :

العرب يقولون : استوىٰ إلي يخاصمني ، أي أقبل علي .

الثاني : بمعنىٰ : قصد ، قاله الهروي .

الثالث : بمعنىٰ استولـى .

الرابع : بمعنىٰ اعتـدل .

الخامس : بمعنىٰ استقـام .

السادس : بمعنىٰ علا ، قال الشاعر :

ولمـا علونـا واستـوينـا عـليهـم ... تـركنـاهم صـرعىٰ لنسـر وكـاسـر

(١) هو العلامة محمد بن محمد بن الأزهر بن طلحـة بن نوح الأزهـري : اللغوي الأديب الهـروي الشافعي [أبو منصور] صاحب «تهذيب اللغة» أدرك ابن أبي دريد ، ولم يأخذ عنه ، تـوفي سنة ٣٧٠ هـ ، ١ هـ مخيون .

(٢) الفراء : «يحيى بن زياد» وفاته سنة ٢٠٧ ، ١ هـ مخبون .

قاله الحسن بن سهل[1] :

إذا علم أصل الوضع وتصريف الاستعمال فنزل على ذلك الإستواء المنسوب إلى ربنا سبحانه وتعالىٰ ، وقد فسره الهروي بالقصد ، وفسره ابن عرفة[2] بالإقبال ، كما نقله عن الفراء : وفسره بعضهم بالإستيلاء ، وأنكره ابن الأعرابي[3] قال : العرب لا تقول أستولىٰ إلّا لمن له مضاد ، وفيما قاله نظر ، لأن الإستيلاء من الولي ، وهو القرب ، أو من الولاية ، وكلاهما لا يفتقر إطلاقه لمضاد .

ونقل الحسن بن سهل عن ابن عباس (رضي الله عنهما) أنه فسر قوله تعالىٰ : ﴿**ثم استوى إلى السماء**﴾ قال : علا أمره ، وهذه التفاسير كلها محتملة ، وهي على وفق اللغة والمعاني اللائقة بربنا سبحانه[4] .

وأما استوىٰ بمعنىٰ أستقر ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿**واستوت على الجودي**﴾ وقوله تعالىٰ : ﴿**لتستووا على ظهوره**﴾ الآية ، فلا يليق نسبة مثله إلى إستواء ربنا تعالىٰ على العرش .

مع أنا نقول : قد علمت أصل اشتقاق الإستواء ، ولا مدخل فيه لمعنىٰ الإستقرار ، وإنما الحق : أن معنىٰ أستوىٰ على الدابة جاء على الأصل ، ويكون معناه : أعتدل ، أو علا عليها ، والإستقرار من لازم ذلك بحسب خصوصية المحل ، لا أن للإستقرار مدخلاً في معنىٰ اللفظ مطلقاً ، وحينئذ فلا يصح نسبة مثله إليه تعالىٰ ، لاستحالته في حقه وعدم وضع اللفظ له .

---

(١) الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران [أبو هلال] اللغوي العسكري صاحب التفسير وغيره ، المتوفىٰ سنة ٣٩٥ على ما ذكره صاحب «كشف الظنون» في جملة مواضع ، اهـ عن الرسالة المستطرفة للكتاني ، اهـ مخيون .

(٢) الإمام (أبو عبد الله) إبراهيم بن محمد بن عرفة النحوي نقطوية صنف كتاباً في الرد على الجهمية ، توفي سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة ، اهـ مخيون .

(٣) وهناك تفسير آخر : استوىٰ بمعنىٰ : تم ، كقوله تعالىٰ : ﴿**ولما بلغ أشده واستوىٰ**﴾ في سورة القصص ـ يعني ثم شبابه ورجولته . والمعنىٰ أنه تمَّ الخلق بالعرش ، فلا خلق بعد العرش ، انظر في ذلك شرح الشيراوي على حزب البر .

(٤) ابن الأعرابي : العلامة اللغوي المشهور توفي سنة ٢٣١ واسمه محمد بن زياد ، ترجمته في الوفيات ، اهـ مخيون .

وقد ثبت عن الإمام مالك[1] (رحمه الله) أنه سئل : كيف استوى ؟ فقال : «كيف غير معقول ، والإستواء غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة» .

فقوله : «كيف ، غير معقول» أي كيف من صفات الحوادث ، وكل ما كان من صفات الحوادث فإثباته في صفات الله تعالىٰ بنافي ما يقتضيه العقل ، فيجزم بنفيه عن الله سبحانه .

قوله : «والإستواء غير مجهول» أي : أنه معلوم المعنىٰ عند أهل اللغة ، والإيمان به على الوجه اللائق به تعالىٰ واجب، لأنه من الإيمان بالله وبكتبه ، «والسؤال عنه بدعة» أي حادث ، لأن الصحابة (رضي الله عنهم) كانوا عالمين بمعناه اللائق بحسب اللغة ، فلم يحتاجوا للسؤال عنه ، فلما جاء من لم يحط بأوضاع لغتهم ، ولا له نور كنورهم يهديه لصفات ربه ، شرع يسأل عن ذلك ، فكان سؤاله سبباً في اشتباهه على الناس ، وزيغهم عن المراد ، وتعين على العلماء حينئذ ألا يهملوا البيان .

قال تعالىٰ : ﴿وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه﴾ ولا بد في إيضاح البيان من زيادة ، فنقول : قد قررنا أن الإستواء مشتق من السواء ، وأصله : العدل ، وحينئذ فالإستواء المنسوب إلى ربنا تعالىٰ في كتابه بمعنىٰ : أعتدل ، أي قام بالعدل ، وأصله من قوله تعالىٰ : ﴿شهد الله أنه لا إله إلّا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط﴾ فقيامه بالقسط والعدل هو استواؤه ، ويرجع معناه إلى أنه أعطىٰ بعزته كل شيء خلقه موزوناً بحكمته البالغة ، للتعرف لخلقته بوحدانيته ، ولذلك قرنه بقوله : ﴿لا إله إلّا هو العزيز الحكيم﴾ والإستواء المذكور في كتابه : إستواءان إستواء سماوي ، وإستواء عرشي : فالأول معدي بالي ، قال تعالىٰ : ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوىٰ إلى السماء فسواهن سبع سموات﴾ وقال : ﴿ثم أستوىٰ إلى السماء وهي دخان﴾ ومعناه ـ والله أعلم ـ : أعتدل ، أي قام بقسطه وتسويته إلى السماء ، فسواهن سبع سموات ، ونبه على أن إستواءه هذا هو قيامه بميزان الحكمة ، وتسويته بقوله أولاً

(١) إمام دار الهجرة [أبو عبد الله] مالك بن أنس الأصبحي ، جده أبو عامر ، صحابي جليل ، شهد المغازي كلها خلا بدراً ، وابنه مالك جد مالك ، من كبار التابعين ، وأما الإمام فولد سنة ثلاث وتسعين ، ومات سنة تسع وستين ومائة ، اهـ مخبون .

عن الأرض : ﴿وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين﴾ وبقوله آخراً : ﴿ذلك تقدير العزيز العليم﴾ وأما الإستواء العرشي ، فهو أنه تعالىٰ قام بالقسط متعرفاً بوحدانيته في عالمين : عالم الخلق ، وعالم الأمر ، وهو عالم التدبير ﴿ألا له الخلق والأمر﴾ فكان استواؤه على العرش للتدبير بعد انتهاء عالم الخلق ، لقول الله تعالىٰ : ﴿الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوىٰ على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلاّ من بعد أذنه﴾ وبهذا يفهم سر تعدية الإستواء العرشي بـ «على» ، لأن التدبير للأمر لا بد فيه من إستعلاء واستيلاء .

اعتبار : اعتبر ـ بعد فهم هذا ـ قوله تعالىٰ في خطابة لنبينا (ص) : ﴿يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم * الذي خلقك فسواك فعدلك﴾ واعتبر ما أثمرته هذه التسوية والتعديل ، بقوله تعالى عند ليلة الإسراء : ﴿ذو مرة فاستوىٰ * وهو بالأفق الأعلىٰ﴾ مع قوله (ص) [1] :

«بلغت إلى مستوىٰ أسمع فيه صريف الأقلام» [2] .

ومن المعلوم أن القلم إنما يجري بالقدر ، كما ثبت في حديث عُبادة بن الصامت [1] (رضي الله عنه) :

---

(١) من حديث طويل رواه البخاري عن أبي ذر ، انظر تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٩ .

(٢) روى البخاري في أول «كتاب الصلاة» من صحيحة حديث المعراج وفيه : قال النبي (ص) : «ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوىٰ أسمع فيه صريف الأقلام» ظهرت أي علوت وارتفعت لمستوىٰ ـ بفتح الواو ـ قال الخطابي : المراد به المصعد وقال عن صريف الأقلام هو صوت ما تكتبه الملائكة من أقضية الله تعالىٰ ووحيه وما ينسخونه من اللوح المحفوظ أو ما شاء الله تعالىٰ من ذلك أن يكتب ويرفع لما أراده الله من أمره وتدبيره في خلقه سبحانه وتعالىٰ لا يعلم الغيب إلاّ هو ، الغني عن الاستذكار بتدوين الكتب والاستثبات بالصحف ، أحاط بكل شيء علماً واحصىٰ كل شيء عدداً ، اهـ عن عمدة القارىء للعيني ، اهـ مخيون .

(٣) رواه الترمذي في القدر ، وفي التفسير ، وأبو داود في السنن «واللفظ له» قال عبادة بن الصامت لابنه : يا بني انك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطاك لم يكن ليصيبك ، سمعت رسول الله (ص) يقول : ان أول ما خلق الله القلم فقال له أكتب .

قال : رب وماذا أكتب ؟ .

قال : أكتب مقادير كل شيء ، حتى تقوم الساعة .

يا بني اني سمعت رسول الله (ص) يقول : «من مات على غير هذا فليس مني» اهـ مخيون .

ان أول ما خلق الله القلم ، فقال له : أكتب .

فقال : وما أكتب ؟ .

فقال أكتب القدر ! ما كان وما هو كائن إلى الأبد .

وبهذا الاعتبار يعلم أن الإستواء ، عبارة عما قررناه لك من أن إستواءه قيامه بالقسط ، وتقدير المقادير في عالم خلقه وعالم أمره .

فصل النزول

ومن الأحاديث المتشابهة أحاديث[1] نزوله سبحانه كل ليلة إلى سماء الدنيا ، وهو لا ينافي ما ذكرناه ، ولا يستلزم إثبات الجهة ، ولا إتصافه تعالىٰ بالحركة والنقلة ، فإنها عرض ، والأعراض يلزمها الحدوث ، والحدوث على القيم محال على ما هو مقرر في الكتب الكلامية ولسنا له الآن ، وإنما القصد تخريج صفة النزول على ما يوافق القواعد التي مهدناها في صفاته تعالىٰ . وقد أول بعضهم نزول بنزول علمه أو قدرته ونحوه وهو غير منج ، فإن علمه وقدرته وصفاته إن أريد نزولها نفسها فهو محال ، لأن الصفة قائمة بالموصوف فإذا لم يجز على موصوفها النزول فصفته أولىٰ وأحرىٰ ، وأن أريد بنزولها تعلقها بما في السماء الدنيا فتعلق علمه وقدرته بالموجودات كلها لم يزل ولا يزال فكيف يخص بجزء من الليل أو غيره ، هذا مع القطع بأنه تعالىٰ يمسك السموات والأرض أن تزولا . فمن قبضته لا تزال محيطة بالسموات والأرضين كلها كيف يحتاج إلى النزول إليها أو يختص تعلق علمه وقدرته بها بزمان دون غيره . وإنما الجاري على القواعد والآيات المحكمة قد بينه الله في كتابه بمثلين مثل فيك ومثل خارج عنك .

الأول : قوله تعالى : ﴿الله نور السموات والأرض﴾ الآية ومن المعلوم أن

---

(١) روى البخاري في صحيحه في «كتاب التوحيد» عن أبي هريرة أن رسول الله (ص) قال : «يتنزل» وفي رواية «ينزل ربنا تبارك وتعالىٰ كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقىٰ ثلث الليل الآخر ، فيقول : من يدعوني فاستجب له ، من يسالني فأعطيه . من يستغفرني فأغفر له» اهـ مخيون .

النور إذا جعل محيطاً بدوائر شفافة سبعة وثمانية بعضها محيط ببعض ، فأول ما يظهر أثره في أدناها إليه وأوسعها دائرة فيراه أهلها ، ثم ينفذ شعاعه إلى الثانية فيظهر فيه على حسب صفاته ثم هكذا إلى ثالثة ورابعة إلى السابعة وكل من كان في دائرة منها يرىٰ النور قد نزل إلى دائرته وهو نزول ظهور وتجل لا نزول حركة ونقلة فعلىٰ مثل هذا خرج صفة نزوله سبحانه مع تنزيهه عن تفاوت نسب دوائر الأفلاك إليه ، وعن بعده عن بعض وقربه من بعض ، بل هو أقرب إلى كل من نفسه ، ولا بد لك حينئذ من مراجعة ما تقدم في الإستواء على العرش ، فتعلم أن صفة النزول من لوازم صفة الاستواء ، وقد تقدم أن صفة الإستواء هو قيامه في عالم الأمر بسر التدبير ، فنزوله حينئذ هو نزول روح الأمر بسر التدبير من حضرة الإستواء ﴿وهو العرش﴾ إلى سائر دوائر الكائنات لحكمة التعرف ، قال تعالىٰ : ﴿ثم استوىٰ على العرش﴾ ﴿يدبر الأمر من السماء إلى الأرض﴾ وقال تعالىٰ : ﴿الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن﴾ ثم بيّن أن ذلك التنزل لحكمة التعرف بقوله : ﴿لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً﴾ .

تنبيه : إنما نسب النزول إليه سبحانه ، لأن روح الأمر هي مظهر نور التوحيد ، قال تعالىٰ ﴿ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلاَّ أنا﴾ وقد بيّنا أن نور توحيده هو وجهه سبحانه، فلهذا جعل نزول أمره بمثابة نزوله ، ومعرفتها بمثابة معرفته ، تحقيقاً لأن «من عرف نفسه فقد عرف ربه»[1] .

---

(١) جاء في ص ٢٦٢ جـ ٢ من «كشف الخفاء» للعجلوني : قال ابن تيمية موضوع . وقال النووي قبله : «ليس بثابت» وقال أبو المظفر السمعاني في القواطع : «انه لا يعرف مرفوعاً ، وإنما يحكي عن يحيى بن معاذ الرازي» يعني من قوله» .

وقال ابن الغرس بعد أن نقل عن النووي «أنه ليس بثابت» قال لكن كتب الصوفية مشحونة به ، يسوقونه مساق الحديث ، كالشيخ محيي الدين بن عربي وغيره .

قال : وذكر لنا شيخنا الشيخ حجازي الواعظ ، شارح الجامع الصغير للسيوطي ، بأن الشيخ محيي الدين بن عربي : معدود من الحفاظ .

وذكر بعض الأصحاب : أن الشيخ محيي الدين قال : «هذا الحديث وإن لم يصح من طريق الرواية ، فقد صح عندنا من طريق الكشف» .

وللحافظ السيوطي فيه تأليف لطيف سماه «القول الأشبه في حديث : «من عرف نفسه فقد

تبصرة : إذا علمت معنىٰ نزوله في العالم الأكبر ، فاعتبر بذلك استواءه ونزوله في عالم الإنسان ، وهو : العالم الأصغر ، كما سيأتي بيانه .

المثل الثاني : قوله تعالىٰ : **﴿تبارك الذي بيده الملك﴾** إلى قوله : **﴿حسير﴾** فلا تعتقد أن المراد منك أن يرجع بصرك في طباق السماء ، فإن الله يعلم انك لا تدرك ببصرك ذلك ، لضعفه وشدة البعد ، وتأمل قوله : **﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾** أي أن الرحمن خلقك وخلق السموات ، قال تعالىٰ : **﴿الرحمن * علم القرآن * خلق الإنسان﴾** الأيات فكما خلق السموات ، خلق فيك أمثلة لها ، لا تفاوت بين تلك الأمثلة وبينك ، فارجع بصرك في تلك الأمثلة : تعلم أنه سبحانه ضرب قلبك لنفسه مثلاً ، وذلك أن قلبك هو صاحب دوائر أطوارك ، وله تعالىٰ في استوائه عالمان : عالم خلق ، وهو عالم حسك ، وعالم أمر ، وهو عالم غيبك ، فإذا أراد تدبير عالم الحس تنزل بروح أمره ، وهو نور البصر .

ومن المعلوم عند علماء التشريح : ان للروح الباصر سبع طباق ، تتنزل منها إلى أن تصل إلى عالم الحس ، وأنت إذا أعتبرت ذلك حكمت بسببه أن نزوله سبحانه منزه ، عن النقلة والحركة ، ألا ترىٰ أن القلب يدرك بالبصر ، ويدرك به البصر الشيء البعيد حساً في آن واحد ، من غير تنقل ولا خطور في طباقه ، ينفذ من بعضها لبعض ، ولا مهلة في تنزله ورجوعه إليه ، ولا تفاوت في نسبته إليها .

وقد قال المحققون من أهل النظر : ان العين مرآة القلب ، أي من نظر إلى عين رجل رأى منها حقيقة قلبه ، ولتحقق الروح الباصر بالقلب اشتبه على كثير من العقلاء ، فاعتقدوا أن البصر ليس حساً مغايراً للقلب .

وكذا باقي الحواس ، بل هي بمثابة الشبابيك ، والقلب هو المدرك منها لما في عالم الحس .

وهذا كله : يكشف لك سر نسبة النزول إلى ربنا سبحانه ، بنزول روح

= عرف ربه» وهو من الكتب الموجودة في الحاوي للفتاوى للسيوطي .

وقال النجم : قلت وقع في أدب الدنيا والدين للماوردي عن عائشة : «سئل النبي (ص) : من أعرف الناس بربه ؟ قال : أعرفهم : بنفسه» ا هـ مخيون .

أمره ، وكونه من أكبر آيات توحيده .

تذكرة : في الحديث[1] : «ما من مسلم يسلم علي إلاّ رد الله علي روحي لأرد عليه سلامه» .

---

(١) روى البيهقي في «حياة الأنبياء» عن أبي هريرة : أن رسول الله (ص) قال : «ما من أحد يسلم علي إلاّ رد الله إلي روحي حتى أرد عليه السلام» .

قال البيهقي : وإنما أراد ـ والله أعلم ـ إلاّ وقد رد الله إلي روحي حتى أرد عليه السلام .

قال الأستاذ البوسنوي معلقاً : حديث أبي هريرة أخرجه أيضاً أحمد ، وأبو داود ، والمصنف [أي البيهقي] في كتابه «شعب الإيمان» وكتابه «الدعوات الكبير» .

قال النووي في الأذكار ورياض الصالحين : أسناده صحيح ، وصححه أيضاً ابن القيم .

وفي الحديث إشكال ، وهو أن ظاهره مفارقة روح النبي (ص) لبدنه الشريف في بعض الأوقات ، وهو مخالف للأحاديث الدالة على حياة الأنبياء ، وقد أجاب العلماء عن هذا بأجوبة كثيرة ، فأجاب السيوطي في كتابه «أنباه الأذكياء» بخمسة عشر جواباً : يراجعها من شاء .

ومال البيهقي (رحمه الله تعالى) إلى أن قوله (ص) : «رد الله إلي روحي» جملة حالية يقدر فيها «قد» وقاعدة العربية : أن جملة الحال إذا وقعت فعلاً ماضياً قدرت فيها «قد» كقوله تعالى : ﴿إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاءوكم حصرت صدورهم﴾ أي «وقد حصرت» ويبقى الأشكال في «حتى» لأن الظاهر انها للتعليل .

فأجاب الحافظ السيوطي : انها لمجرد العطف ، فصار تقدير الحديث : ما من أحد يسلم علي إلاّ وقد رد الله علي روحي قبل ذلك وارد عليه .

وأجاب الشهاب الخفاجي : بأن الأنبياء والشهداء أحياء ، وحياة الأنبياء أقوى ، وإذا لم يسلط عليهم الأرض ، فهم كالنائمين ، والنائم لا يسمع ولا ينطق حتى ينتبه .

فمعنى الحديث ، أنه (ص) إذا صلّى عليه يستقيظ من النوم ، فالمراد برد الروح : الإرسال الذي في قوله تعالى : ﴿ويرسل الأخرى﴾ الآية ، لا أن روحه (ص) تقبض قبض الممات ، ثم تنفخ وتعاد كموت الدنيا وحياتها» ا هـ .

أقول : أن الأشكال مندفع بأن رد الروح هنا القصد منه : إرجاعها من حال الفناء في المشاهدة وقرة العين بصلاتها وقربها إلى حال كحال الحس والشهادة ، حتى ترد السلام ، فقد روى البيهقي وغيره عن النبي (ص) : «الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون» .

وذكر السيوطي وغيره أن هذا متواتر ، وثبت في حديث النسائي وغير «قرة عيني في الصلاة» وجاء في حديث المزيد الذي رواه ابن أبي الدنيا باسناد ثابت من رواية حذيفة في كتاب «صفة الجنة» قول الله تعالى لأهل طاعته :

«فسلوني فهذا يوم المزيد ، فيجتمعون على كلمة واحدة : ربنا أرنا وجهك ننظر إليه فيكشف عن تلك الحجب ، ويتجلى لهم عزّ وجلّ ، فيغشاهم من نوره شيء لولا أنه قضي أن لا يحترقوا لاحترقوا ، لما يغشاهم من نوره ، ثم يُقال لهم : ارجعوا إلى منازلكم ، فيرجعون إلى منازلهم وقد أعطى كل واحد منهم الضعف على ما كانوا فيه ، فيرجعون إلى أزواجهم وقد =

وقد نبهت على الأشكال المتعلق بهذا ، وجوابه في «الأمالي» والقصد بذكره هنا : مناسبة لما نحن فيه ، فإنه للعبد مع الله حالين : حالاً يجمع روحه عليه ،

= خفوا عليهم وخفين عليهم ، بما غشيهم من نوره ، فإذا رجعوا تراد النور حتى يرجعوا إلى صورهم التي كانوا عليها . . . » الخ الحديث ص ٣٩ سفر السعادة للفيروز آبادي .

فحضرة المصطفىٰ (ص) في حالة غشيان من نور الله تعالىٰ ، فيخفي لذلك كل شيء غيره ، لغيبوبة الروح في هذا النور ، حتى إذا سلّم مسلم تراد النور ، ورد الله تعالىٰ إليه روحه حتىٰ يرد السلام ، كحالة المضعفين في حديث المزيد مع أهلهم حين لا يرونهم ، وأول ما يرد لهم من الحواس السمع والكلام ، ثم الرؤية .

واعجب لإثبات الخفاجي حياة الأنبياء في أول كلمته ، ثم جعلها نوماً ، حتى قال : «انه (ص) إذا صلّىٰ عليه يستيقظ من النوم» وحضرة المصطفىٰ (ص) هو صاحب الوسيلة ، وهي أعلىٰ درجة .

وقول المؤلف : «ولا يلزم من رد روحه إليه لرد السلام» إلى آخره ، يبيّن شيئاً من احوال الآخرة التي لا تقاس على الدنيا ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم» ا هـ مخيون .

أقول: وقد نقلت لك نص ما أورده الفيروز آبادي (رحمه الله تعالىٰ) تبركاً بالحديث الشريف، سائلاً الله تعالىٰ :: بكرمه وجوده وفضله : أن يجعلنا مع أهل هذه الحضرة المباركة :

وأما شرفه وفضله [أي يوم الجمعة] في الآخرة واسمه : فإن الله تبارك وتعالىٰ : إذا صير اهل الجنة إلى الجنة ، وأهل النار إلى النار : جرت عليهم ، هذه الأيام وهذه الليالي : ليس فيها ليل ولا نهار ، فأعلم الله عزّ وجلّ مقدار ذلك وساعاته .

فإذا كان يوم الجمعة ـ حين يخرج أهل الجمعة إلى جمعتهم ـ نادى أهل الجنة مناد : يا أهل الجنة اخرجوا إلى واد المزيد [ووادي المزيد لا يعلم سعته وطوله وعرضه إلاّ الله] فيه كثبان المسك رؤوسها في السماء .

قال : فيخرج غلمان الأنبياء بمنابر من نور ، ويخرج غلمان المؤمنين بكراسي من ياقوت ، فإذا وضعت لهم وأخذ القوم مجالسهم : بعث الله تعالىٰ عليهم ريحاً تدعىٰ «المثيرة» تنثر ذلك المسك ، وتدخله من تحت ثيابهم وتخرجه في وجوههم وأشعارهم .

وتلك الرياح أعلم كيف يصنع بذلك المسك من امرأة أحدكم لو رفع إليها كل طيب على وجه الأرض .

قال : ثم يوحي الله تبارك وتعالىٰ إلى حملة عرشه : ضعوه بين أظهرهم ، فيكون أقل ما يسمعون منه : أن يا عبادي الذين أطاعوني بالغيب ولم يروني ، وصدقوا برسلي واتبعوا أمري : سلوا : فهذا يوم المزيد . فيجتمعون على كلمة واحدة ـ ربنا أرنا وجهك ننظر إليه ـ فيكشف عن تلك الحجب ، ويتجلىٰ لهم عز وجلّ ، فيغشاهم من نوره شيء لولا انه قضىٰ أن لا يحرقوا لاحترقوا ، لما يغشاهم من نوره .

ثم يُقال لهم : ارجعوا الى منازلكم ، فيرجعون إلى منازلهم ، وقد أعطىٰ كل واحد منهم الضعف على ما كانوا فيه ، فيرجعون إلى أزواجهم وقد خفوا عليهم وخفين عليهم ، بما =

تحقيقاً لتوحيده ، وتكميلاً لشهوده ، وحالاً يرد روحه عليه : هداية لخلقه وتوفية لحقه ، وهذا الجمع والرد من الأسرار الإلهية ، نبه به النبي (ص) على أن - حاله في مماته كحاله في حياته - لا يزال بروحه عند الله .

وإذا سلّم عليه مسلم ، أو جاءه زائر : ردّ الله إليه روحه كما كان يردها في حياته .

وفيما ذكرناه من الروح الباصر كشف لحقيقة ذلك ، فإنه ما من نفس إلاّ ويتجمع فيه الروح الباصر إلى القلب : مؤدّياً إليه ما يراه في عالم الحس ، ثم يرد للعين من غير شعور بنقلة ولا كيفية ولا زمان .

فلو حلف الحالف : أن روحه الباصر ما زايل قلبه : لم يحنث ، ولو حلف حالف أنه مازايل عينه : لم يحنث كذلك ، ولا يلزم من رد روحه إليه لرد سلام المؤمن المسلم عليه ، أن لا تكون باقية عند ربها ، ولا من بقائها عنده إلاّ تكون مردودة إلى نبيه ، والله أعلم .

تبصره : إذا سمعت بنزول ربنا كل ليلة [الحديث[1]] فلا يكن حظك منه النزول في

= غشيهم من نوره ، فإذا رجعوا تراد النور حتى رجعوا إلى صورهم التي كانوا عليها .

فتقول لهم أزواجهم : لقد خرجتم من عندنا على صورة ورجعتم على غيرها ؟ .

فيقولون : ذلك أن الله عزّ وجلّ تجلى لنا فنظرنا منه .

قال : انه والله ما أحاطه خلق ، ولكنه قد أراهم الله عزّ وجلّ من عظمته وجلاله ما شاء أن يريهم .

قال : فذلك قوله - فنظرنا منه - .

قال : فهم يتقلبون في مسك الجنة ونعيمها في كل سبعة أيام الضعف على ما كانوا فيه .

قال رسول الله (ص) : فذلك قوله تعالى : ﴿**فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون**﴾ .

(1) قال الحافظ في الفتح : استدل به من أثبت الجهة ، وقال هي جهة العلو ، وأنكر ذلك الجمهور ، لأن القول بذلك يفضي إلى التحيز ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وقد اختلف في معنى النزول على أقوال ، فمنهم من حمله على ظاهره وحقيقته ، وهم المشبهة - تعالى الله عن قولهم - ومنهم من أنكر صحة الأحاديث الواردة في ذلك جملة ، وهم الخوارج والمعتزلة ، وهو مكابرة ، والعجب أنهم أولوا ما في القرآن من نحو ذلك ، وأنكروا ما في الحديث : اما جهلاً ، واما عناداً .

ومنهم من أجراه على ما ورد مؤمناً به على طريق الإجمال ، منزهاً الله تعالى عن الكيفية والتشبيه ، وهم جمهور السلف ، ونقله البيهقي وغيره عن الأئمة الأربعة ، والسفيانين ، =

عالم الحس ، واعتبر بذلك نزوله سبحانه بروح ذكره إلى سماء قلبك ، ألا تراه كيف نبهك على هذا بقوله تعالى : ﴿فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا قد

= والحمادين ، والأوزاعي والليث وغيرهم .

ومنهم من أوله على وجه يليق : مستعمل في كلام العرب .

ومنهم من أفرط في التأويل ، حتى كاد يخرج إلى نوع من التحريف .

ومنهم من فصل بين ما يكون تأويله قريباً مستعملاً في كلام العرب ، وبين ما يكون بعيداً مهجوراً ، فأول في بعض ، وفوض في بعض ، وهو منقول عن الإمام مالك ، وجزم به من المتأخرين ابن دقيق العيد .

قال البيهقي : وأسلمها الإيمان بلا كيف ، والسكوت عن المراد ، إلاّ أن يرد ذلك عن الصادق فيصار إليه .

ومن الدليل على ذلك اتفاقهم على أن التأويل المعين غير واجب ، فحينئذ التفويض أسلم .

وقال القاضي أبو بكر بن العربي في العارضة : «حكي عن المبتدعة رد هذه الأحاديث ، وعن السلف أمرارها ، وعن قوم تأويلها ، وبه أقول» .

فأما قوله «ينزل» فهو راجع إلى أفعاله ، لا إلى ذاته ، بل ذلك عبارة عن ملكه الذي ينزل بأمره ونهيه ، والنزول كما يكون في الأجسام يكون في المعاني ، فإن حملته في الحديث على الحسي ، فتلك صفة الملك المبعوث بذلك ، وان حملته على المعنوي ، بمعنى أنه : لم يفعل ثم فعل فيسمىٰ ذلك نزولاً عن مرتبة إلى مرتبة ، فهي عربية صحيحة ، انتهىٰ .

والحاصل أنه تأوله بوجهين :

اما بأن المعنىٰ : ينزل أمره ، أو الملك بأمره .

وأما بأنه استعارة بمعنىٰ التلطف بالداعين ، والإجابة لهم ، ونحوه .

وقد حكى أبو بكر بن فورك أن بعض المشايخ ضبطه بضم أوله ، على حذف المفعول : أي ينزل ملكاً ، ويقويه ما رواه النسائي من طريق الأغر ، عن أبي هريرة وأبي سعيد بلفظ .

«ان الله يمهل حتى يمضي شطر الليل ، ثم يأمر منادياً يقول : هل من داع فيستجاب له» الحديث .

وفي حديث عثمان بن أبي العاص :

«ينادي مناد : هل من داع يستجاب له» الحديث .

قال القرطبي : وبهذا يرتفع الأشكال» .

وذكر العيني في «عمدة القاري» شرحه لصحيح البخاري ، فيمن خرجه غير صاحبي الصحيحين : أصحاب السنن الأربعة : والدار قطني ، وأحمد ، والبزار ، والطبراني ، وابن حبان ، وغيرهم وعد رواته من الصحابة واحداً وعشرين صحابياً ، وأم المؤمنين : عائشة وأم سلمة ، والروايات فيها اختلاف في وقت النزول ، فذكرت : «حين يبقىٰ ثلث الليل الآخر» وعند مسلم «ثلث الليل الأول» . وفي لفظ «شطر الليل» أو «ثلث الليل الأخير» قال النووي .

يحتمل أن يكون النبي (ص) : أعلم بأحد الأمرين في وقت ، فأخبر به ، ثم أعلم بالآخر في =

أنـزل الله إليكم ذكراً﴾ ﴿رسولاً﴾ الآيـة ، ثم قال بعـدهـا ﴿الله الـذي خلق سبـع سموات﴾ الآية ، فبـدأ بآيـة نزول ذكـره قبل ايـة نزول أمـره ، تنبيهاً على الإهتمـام

= وقت آخر ، فاعلم به .

وسمع أبو هريرة الخبرين فنقلهما جميعاً ، وسمع أبو سعيد الخـدري خبر الثلث الأول فقط ، فأخبر به مع أبي هريرة .

وفي ألفاظه «ينـزل الله» ، و «يهبط الله ، ثم يعلو إلى السماء العليـا على كرسيـه» وفي رواية «ارتفع» وعند ابن خزيمة «فإذا طلع الفجر صعد إلى العرش» .

ثم قال العيني : قال إسحاق بن راهويـة : جمعني وهذا المبتـدع - يعني إبراهيم بن صـالح - مجلس الأمير عبد الله بن طـاهر ، فسـألني الأمير عن أخبـار النزول فسـردتها ، فقـال إبراهيم : كفرت برب ينزل من سماء إلى سماء ، فقلت آمنت برب يفعـل ما يشـاء ، قال فـرضي عبد الله كـلامي ، وانكر علي إبـراهيم ، وقد أخـذ إسحاق كـلامه هـذا من الفضيل بن عيـاض (رحمـه الله) ، فإنه قـال : إذا قال الجهمي : أنـا أكفر بـرب ينزل ويصعـد ، فقد آمنت بـرب يفعل مـا يشـاء ، ذكره أبـو الشيخ ابن حبـان في كتاب «السنـة» وذكر فيـه عن أبي زرعـة ، قـال : هـذه الأحاديث المتواترة عن رسول الله (ص) : «ان الله ينزل كل ليلة إلى السمـاء الدنيـا» قد رواهـا عدة من أصحاب رسول الله (ص) ، وهي عندنا صحاح قوية ، قال رسول الله (ص) : «ينـزل» ولم يقل كيف ينزل ، فلا نقول : كيف ينزل ، نقول كما قل رسول الله (ص) .

وروى البيهقي في كتاب «الأسماء والصفات» عن المزني : حديث النزول قد ثبت عن رسول الله (ص) من وجوه صحيحة ، وورد في التنزيل مـا يصدقـه ، وهو قـوله ﴿وجـاء ربك والملك صفاً صفاً﴾ .

قـال العيني : قلت : لا شك أن النـزول إنتقـال الجسم من فـوق إلى تحت ، والله منزه عن ذلك ، فهو من المتشابهات ، فالعلماء فيه على قسمين :

الأول المفوضة : يؤمنـون بها ويفـوضون تـأويلها إلى الله عـزّ وجلّ ، مـع الجزم بتنـزيهه عن صفات النقصان .

والثاني المؤولة : يؤولون بها على مـا يليق به ، بحسب المـواطن ، فأولـوا بأن معنى «ينـزل الله» ينزل أمره ، أو ملائكته ، وبأنه استعـارة ، ومعناه التلطف بـالداعين والإجـابة لهم ، ونحـو ذلك ، وليس في هذا الباب وأمثاله إلاّ التسليم والتفويض إلى ما أراد الله من ذلك ، فإن الأخذ بظاهره يؤدّي إلى التجسيم ، وتأويله يؤدّي إلى التعطيل ، والسلامة في السكوت والتفويض .

وأقول : ظاهر أن التجسيم والتشبيه ، وكـل ما يخـالف التنزيـه غير مقصـود ، لقولـه تعالى : ﴿ليس كمثله شيء﴾ ولأنـه تعالى منـزه عن قيد المكـان ، وهو المـادة ، فإذا لم تـوجـد ، فـلا مكان ، ومنزه عن قيد الزمان ، وهو حركة المادة ، فإذا لم تتحـرك فلا زمـان ، فإذا وصف بمـا يتعلق بهما الحق تعالى تيسيراً علينا : كانا من القرائن المانعـة لإرادة المعنى الأصلي ، وصرف معنـاهما لنـوع من المجاز للتقـريب ، لانها منـا ، أو فوض الأمـر إليه تعـالى ، لأنه قـال ﴿ولا يحيطون به علماً﴾ وقوله (ص) «ثلث الليل» و «شطره» خاص بالزمان ، وقولـه «ينزل» و «يهبط»=

بالأول ، وقال في الأول : ﴿ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور﴾ وقال في الثاني : ﴿لتعلموا أن الله على كل شيء قدير﴾ وذلك يقتضي أن نزوله بروح الذكر يثمر النور والهداية ، وأن الله يتولىٰ إخراج العبد من ظلمته ، ولا يكله إلى نفسه ، وأن نزوله بروح الأمر : يثمر الدلالة والتكليف بالعلم ، وكم بين من دل ، وبين من نور وبين من حمل وأخرج ، وبين من حمل وكلّف .

تنبيه : اختصاص نزوله بالثلث الأخير من الليل ، له ظاهر وباطن :

فأما الظاهر : فلأن الليل محل النوم ، وتوفي الأنفس ، ورقيها إلى الله .

وقد ذكر أرباب العلم الطبيعي : أن النوم المعتبر في صلاح البدن ثمان ساعات ، وهي ثلثا الليل ، فاقتضت حكمة الربوبية تخصيص النزول بالثلث الأخير رحمة للعباد ، وتلطفاً بهم ، حتى يكونوا قد تيقظوا ، وتأهبوا لقبول ما ينزل على قلوبهم من بركات نزوله سبحانه .

وأما الباطن : فلأن الحجاب هو ليل القلوب ، وهو ناشيء عن نوم القلب ، وفي الحديث[1] : «يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا نام ثلاث عقد ، فإذا قام فذكر الله انحلت عقدة ، فإذا توضأ انحلت عقدتان ، فإذا صلّىٰ انحلت ثلاث عقد» .

فالقلب إذا نام بليله عقد الشيطان ، فإذا استيقظ فذكر الله انحلت عقدة ، فذهب ثلث ليله ، فإذا توضأ انحلت عقدتان ، فذهب ثلثا ليله ، ووضوؤه استغفاره ، قال تعالىٰ في قصة نوح : ﴿فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً﴾

= و «يصعد» و «ارتفع» يخص المكان .

قال العلامة اللقاني :

وكل نص أوهم التشبيها   أوله أو فوض ، ورم تنزيها

اهـ المخيون .

(١) في صحيح البخاري «بدء الخلق» عن أبي هريرة أن رسول الله (ص) قال : «يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد ، يضرب كل عقدة مكانها عليك ليل طويل فارقد ، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة ، فإن توضأ انحلت عقدة ، فإن صلى انحلت عقدة كلها ، فأصبح نشيط طيب النفس ، وإلاّ أصبح خبيث النفس كسلان» اهـ مخيون .

قلت : والحديث متفق عليه من البخاري ومسلم ، ورواه الإمام أحمد ، وأبو داود ، والنسائي ، وابن ماجه .

يرسل السماء عليكم مدراراً﴾ فإذا صلّى فصلاتـه في ثلث الليل الحجـاب الأخر ، وهي العقـدة الثالثـة ، وهناك يكـون نزول روح الـذكر عليـه ، فتنحل عقـدة كلها ، ويكشف لـه عن حقيقة : «أن الصـلاة صلة بين العبد وبين ربـه» وعلامـة الـوصلة : كشف ليل الحجاب ، والتلذذ بروح الخطاب .

فصــل المجيء والاتيان

ومن المتشابه : صفة مجيئه سبحانه وتعـالىٰ وإتيانـه ، في نحو قـوله تعـالىٰ : ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربـك﴾ الآية ، وقـوله : ﴿وجـاء ربك والملك صفـاً صفاً﴾ وهـو أيضـاً يـرجـع إلى معنىٰ المحكم ، ولا ينـافيـه ، لأن من المحكم قوله تعالىٰ : ﴿يوم يقـوم الروح والمـلائكة صفـاً﴾ فإذا رددت إليـه قولـه : ﴿وجـاء ربك والملك صفـاً صفاً﴾ علمت أنـه يتجلىٰ بوحـدانيتـه في الـروح ، وأن المجيء للروح ، ونسب إليه تعالىٰ ، كما نسب نزول الروح إليه لتجليه فيه .

وتحقيقه: أن الروح هو من عالم الأمر، وقد قال تعالىٰ: ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكـة أو يأتي ربـك﴾ وقد تقـدم ذكر إتيـانه في ظلل الغمـام ، فلا حـاجة لاعادته .

تحقيق : أعلم أن الروح الأصلي ، الجامـع لحقائق الصفـات في عالم الأمـر في قـولـه تعـالىٰ : ﴿يـوم يقـوم الـروح﴾ هــو روح القـدس المحمــدي ، استـواء ونزولاً ، ومجيئاً وإتياناً ، وهو صاحب التجلي بنـور التوحيـد ، في مظاهـر السموات والأرض ، وفي ظلل غمـام الشرائـع ، وصور الأعمـال كمـا تقـدم ، وهـو صـاحب الرحم الإيمانية ، والنسب المحمدي ، بدليل قولـه تعالىٰ للرحم[1] : «ألا تـرضين أن من وصلك وصلتــه، وإن من قــطعــك بتتــه» مــع قــولــه (عـليــه الصــلاة

(١) روى البخاري في التفسير ، عن أبي هـريرة ، عن النبي (ص) قـال : «خلق الله الخلق ، فلما فرغ منه ، قامت الرحم ، فأخذت بحقو الرحمن ، فقال له : مه ؟ قالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة ، قال ألا ترضين أن أصل من وصلك ، وأقطع من قطعك ، قالت بلى يا رب» =

والسلام)[1] : «كل نسب يوم القيامة منقطع إلاَّ نسبي» وإلى رحمه المتعلقة بالعرش : تعرج الأرواح كل ليلة عند النوم ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها﴾ الآية ، فما كان منها طاهراً سجد تحت العرش كما في الحديث[2] فسجوده وصلته لها ، وبسيماها يعرف بدليل ، قوله تعالىٰ في المتصلين بالمعية المحمدية

= قال : «فذاك» .

قال أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾ .

ورواه في «التوحيد» وليس فيه «فأخذت بحقو الرحمن» ، وفيه «فذلك لك» .

وأخرجه مسلم وغيره . قال العيني : فلما فرغ منه : أي فلما قضاه وأتمه . والرحم أي القرابة ، مشتقة من الرحمة ، وهي عرض ، جعلت في جسم ، فلذلك قامت وتكلمت ، فأخذت بحقو الرحمن .

وفي رواية الطبري «بحقوي الرحمن» بالتثنية ، قال الطيبي : التثنية فيه للتأكيد ، لأن الأخذ باليدين آكد في الإستجارة من الأخذ بيد واحدة .

والحقو : بفتح الحاء المهملة وسكون القاف والواو : الأزار والخصر ومشد الأزار .

وقال عياض : الحقو : معقد الأزار ، وهو الموضع الذي يستجار به ، ويتحرم به على عادة العرب ، لأنه من أحق ما يحامي عنه ويدفع ، كما قالو : «نمنعه مما نمنع منه أزرنا» فاستعير ذلك مجازاً للرحم في استعاذتها بالله من القطيعة .

وقال الطيبي : هذا القول مبني على الإستعارة التمثيلية ، كأنه شبه حالة الرحم ، وما هي عليه من الإفتقار إلى الصلة والذب عنها بحال مستجير يأخذ بحقو المستجار به ، ثم أسند على سبيل الإستعارة التخييلية : ما هو لازم المشبه به من القيام ، فيكون قرينة مانعة من إرادة الحقيقة ، ثم رشحت الإستعارة بالقول والأخذ ، وبلفظ الحقو ، فهو إستعارة أخرىٰ .

و «مه» اسم فعل ، معناه الزجر : أم : أكفف .

وقال ابن مالك : هي هنا «ما» الاستفهامية ، حذفت ألفها ، ووقف عليها بهاء السكت .

قوله (أصل) حقيقة الصلة «العطف والرحمة» اهـ باختصار ، ا هـ مخيون .

(١) «كل نسب وصهر ينقطع يوم القيامة إلاَّ نسبي وصهري» في الجامع الصغير عن ابن عساكر ، عن ابن عمر ، وجعل أمامه علامة الصحيح ، ا هـ مخيون .

قلت : وزواج سيدنا عمر (رضي الله عنه) من السيدة أم كلثوم بنت الإمام علي بسبب هذا الحديث . وفيه قصة لطيفة راجعها في كتاب البيان والتعريف في «أسباب ورود الحديث الشريف» وفي كتب المناقب .

(٢) جاء في تفسير النسفي عند هذه الآية من «سورة الزمر» قوله : وروى «أن أرواح المؤمنين تعرج عند النوم في السماء ، فمن كان منهم طاهراً أذن له في السجود ، ومن لم يكن منهم طاهراً لم يؤذن له فيه» ولم يعزه لأحد ، ا هـ مخيون .

وذكر ابن القيم كتابه «طريق الهجرتين» قال أبو الدرداء : «إذا نام العبد المؤمن عرج بروحه =

﴿سيماهم في وجوههم من أثر السجود﴾ وما كان منها غير ظاهر بسبب التمريج الذي حصل له من الشيطان المخلوق من مارج من نار ، لم يؤذن له ، لأنه قطعها باتباع العدو ، فيسجد قاصياً ، فبعده عنها : ثمرة قطعه لها ، وعدم الأذن له هو : قطع الله له .

تنبيه : هذه هي «الرحم» التي أشتق لها اسم من اسمه «الرحمن» صاحب أسماء الله الحسنىٰ ، في قوله تعالىٰ : ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنىٰ﴾ فما من اسم حسن للعبد ، إلاَّ وهو مشتق من أسمائه تعالىٰ الحسنىٰ ، وإليها مرجعه ، واشتقاقه منها على حسب صلته للرحم الإيمانية المحمدية ، وعلامة صلته بها : صدق مودته لأخوانه المؤمنين ، وقوة ألفته بهم ، وانجماعه عليهم ، وعلامة قطعه لها : مفارقته لهم .

وإليه الإشارة بقوله تعالىٰ : ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا﴾ الآية ، مع قوله : ﴿إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء﴾ فانظر بسبب التفريق : كيف قطع عنهم نسبة المحمدي ، بقوله تعالىٰ : ﴿لست منهم﴾[1] ونبه على أنهم قد قطعوا عن الله بقوله : ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء﴾ فتحقق بذلك قوله : «من قطعك بتته» .

إشارة : وصلة الروح للروح المحمدية ، والرحم الإيمانية ، وسجودها على حسب ما فطرت عليه في أصل نشأتها ، من سر «لا إله إلاَّ الله» ورثته من نورها ، وأرثها من نورها : تارة يكون بسبب ، وهو القيام بحقها ، وتارة يكون بنسب ، وهو امتزاجها بالروح الإيمانية ، في قوله تعالىٰ : ﴿أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه﴾ .

فمن قام بحق «لا إله إلاَّ الله» فهو أحق بها ، وهو صاحب سبب .

ومن أيد بروحها ، فهو صاحب نسب ، وقد ذكرها الله تعالىٰ في قوله : ﴿وألزمهم كلمة التقوىٰ وكانوا أحق بها وأهلها﴾ .

= حتى تسجد تحت العرش ، فإن كان طاهراً أذن لها في السجود ، وإن كان جنباً لم يؤذن لها بالسجود، وهذا والله أعلم هو السر الذي لأجله أمر النبي (ص) الجنب إذا أراد النوم ان يتوضأ . وهو : إما واجب على أحد القولين ، أو مؤكد الاستحباب على القول الآخر ، اهـ المراد ، ولم يعزه لأحد ، اهـ مخيون .

(١) في قوله : ﴿إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء﴾ سورة الأنعام : الآية : ١٥٩

فصـل المعيـة

في الحـديث[1] : «كـان الله ولم يكن معه شيء غيـره ، وكـان عـرشـه على الماء وكتب في الذكر كل شيء» أخرجه البخاري من حديث عمران بن حصين .

وقـد كثـر ذكـر معيـة الله لعبـده في مـواضـع من الكتـاب والسنـة ، وهـو من المتشـابه ، ورجـوعه إلى المحكم بـأن يعلم بأن الله سبحـانـه في المـوجـودات قـد ضرب لنفسه مثلاً بالواحد في الأعداء .

ومن المعلوم : ان مـا من عـدد إلاّ وهـو في الحقيقـة يـرجـع إلى الـواحـد ، فـالاثنان من شهـود الواحـد مرة مـرة ، والثلاثـة من شهوده مـرة ومرة ومـرة ، وهكذا جميـع الأعـداد ، فلو طلبت لعـدد من الأعـداد حقيقـة مجـردة عن الـواحـد ، لم تجدها ، ولسبب ذلـك كانت الأعـداد لا تتناهىٰ ، لأن تجليـات الواحـد لا تتناهىٰ ، ولـولا معية الـواحد للواحـد مـا ثبتت الشفعيـة ، ولـولا إحـاطتـه بـالشفعيـة مـا ثبتت الـوتريـة ، وهو الأول والآخـر ﴿**ما يكـون من نجوىٰ ثـلاثة إلاَّ هـو رابعهم**﴾ الآية ، فمن أشهده الله آخريـة معيته لـه فقد شفعـه ، فإن أشهـده مع ذلـك أولية معيتـه فقد أوتـره ، «أن الله وتر يحب الـوتر»[2] ومن أشهـده سـر وحـدانيتـه في نفسـه ورجـوع الأعداد إليه ، فقد وحده «ما وحد الـواحد إلاَّ الـواحد» وبهـذا يفهم السر في قـوله : «من عرف نفسه فقد عرف ربه»[3] .

---

(١) تقـدم ذكـره .

(٢) متفق عليـه .

(٣) سبق ذكره ، وأنه ليس بحديث .

تنبيه : اعلم أنه تعالىٰ ، كما أنه واحد في ذاته ، فهو واحد في صفاته ، وذاته سبحانه منزهة عن المعية ، فليست مع شيء ، ولا معها شيء ، ولكنه مع كل شيء بصفاته[1] .

وكذلك العبد الذي وحده ، وأشهده سر الوحدانية في ذاته ، بتجلي ذاته المقدسة على سره .

فقد ظهر لك بهذا : أن المعية من أحكام الصفات ، فرب عبد يشهده الله معيته له بصفة وصفتين ، كقوله تعالىٰ : ﴿إنني معكما أسمع وأرىٰ﴾ ورب عبد يشهده معيته له مطلقاً كقوله (ص) لأبي بكر (رضي الله عنه) : «لا تحزن إن الله معنا» .

ومعية الصفات عامة لجميع المخلوقات ، وإنما اختصاص الأنبياء والأولياء بالشهود ، والتأييد بالروح منها ، كما حكي عن أحد أصحاب الشيخ أبي النجا[2] (رحمه الله) ، أنه كان يقول : قال لي وقلت له ، ويكثر من ذلك .

فقيل له : من هو الذي يقول لك وتقول له ؟ .

قال : لله .

قالوا : الله يقول لك ؟ .

قال : نعم . ويأخذ بيدي كلما قمت وقعدت .

قالوا : لك هذا خاصة ؟ .

قال : لا ، بل للناس عامة ، ولكني أنا أشهد ، وهم لا يشهدون .

تبصرة : رب عبد يخص بشهود المعية ، ولا يتعدىٰ ذلك منه إلى اتباعه ، كقول موسىٰ (ع) لبني إسرائيل : ﴿إن معي ربي سيهدين﴾ ورب عبد يتعدى منه نوره إلى أتباعه ، فيشهدون به سر المعية ، كقول سيدنا محمد (ص) : «إن الله معنا» ولم يقل : معي ، لأنه أمد أبا بكر بنوره ، فشهد سر المعية .

---

(١) انظر «فصل القرب» من هذه الرسالة .

(٢) هو أبو مدين الغوث ، المتوفى سنة ٥٩٠ أو سنة ٥٩٤ ، انظر المقدمة ، وهذه كنيته المفضلة عند ابن عربي ، اهـ مخبون .

ومن هنا : يفهم سر إنزال السكينة على أبي بكر (رضي الله عنه) ، وإلاّ لم يثبت تحت أعباء هذا التجلي والشهود ، وأين معية الربوبية في قصة موسىٰ (ع) من معية الإلهية في قصة نبينا (ص)[1] .

تربية : إذا أردت شهود نور المعية ، فعليك بتزكية النفس ، قال تعالىٰ : ﴿قد أفلح من زكاها﴾ وفي حديث رواه أبو عبد الله الترمذي الحكيم في «نوادر الأصول» بسنده إلى عبد الله بن معاوية الغاضري[2] (رضي الله عنهم) ، قال قال رسول الله (ص) : «ثلاث من فعلهن طعم طعم الإيمان ، من عبد الله وحده بأنه لا إله إلاّ هو ، وأعطىٰ زكاة ماله طيبة بها نفسه ، ولم يعط الهرمة ولا الدرنة ، ولا المريضة ، ولكن من أوسط أموالكم ، وزكا نفسه» .

فقال رجل : وما تزكية نفسه ، قال : أن يعلم ان الله معه حيث ما كان» .

فانظر كيف نبه على أن تزكية النفس : تثمر العلم بمعية الله .

فإن قلت : بماذا تكون تزكية النفس ؟ .

---

(١) وهو قول ابن عباس وغيره ، قالوا : لأن الرسول لم تزل معه سكينة . وهو أحد قولين : أنظر تفسير ابن كثير (رحمه الله) .

في قول موسىٰ (ع) : ﴿كلا إن معي ربي سيهدين﴾ التجلي بكلمة الرب ، وهي كلمة فيها معنىٰ التربية والعطف والحنان الذي احتاجه سيدنا موسىٰ الذي معه قومه بالآلاف .

وفي قول رسول الله (ص) ـ إن الله معنا ـ الجلال والقهر والعظمة ، ورسول الله (ص) هو وأبو بكر في صحراء قاحلة ، لا أحد فيها ، فالتجلي هنا بالحفظ والصون في المخاوف . ففرق بين التجلين ، والله تعالىٰ أعلم .

(٢) قال أبو داود في سننه في كتاب «الزكاة» قرأت في كتاب عبد الله بن سالم بحمص ـ عند آل عمرو بن الحارث الحمصي ـ عن الزبيدي ، قال : وأخبرني يحيي بن جابر ، عن جبير بن نفير ، عن عبد الله بن معاوية الغاضري ، [من غاضرة قيس] قال : قال النبي (ص) : «ثلاث من فعلهن فقد طعم طعم الإيمان ،من عبد الله وحده وأن لا إله إلاّ الله،وأعطىٰ زكاة ماله طيبة بها نفسه ، وافدة عليه كل علم ، ولا يعطي الهرمة ، ولا الدرنة ، ولا المريضة ، ولا الشرط ـ اللئيمة ـ ولكن من أوسط أموالكم ، فإن الله تعالىٰ لم يسألكم خيره ، ولم يأمركم بشره» .

ورواه الطبراني أيضاً .

في النهاية : «الشرط اللئيمة» بفتح الشين والراء ، أي رذال المال ، وقيل : صغاره وشراره ، ا هـ مخيون .

قلت: بلزوم الذكر، قال الله تعالىٰ في الحديث:

«أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معين حين يذكرني»(*) .

فعلى حسب الذكر: يكون تطهير النفس وتزكيتها.

وقال تعالى: ﴿قد أفلح من تزكىٰ﴾ ﴿وذكر اسم ربه فصلّىٰ﴾ وعلى حسب التزكية يكون شهود المعية .

(*) رواه الإمام أحمد ، والبيهقي ، والترمذي ، وابن ماجه ، عن أبي هريرة ، ورواه الإمام مسلم عنه أيضاً وعن سيدنا أنس (رضي الله عنهما وأرضاهما) ، مع اختلاف في بعض اللفظ .

فصل الحب

ومن الصفات المتشابهة : صفة الحب ، وقد نسب في الكتاب إلى الله تعالى بقوله: ﴿**يحبهم ويحبونه**﴾ وبقوله : ﴿**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله**﴾ وكذا في السنة ، في أحاديث ، وقد اختلف علماء الظاهر والباطن في تأويله ، والمعول عليه عندهم : انه يرجع إلى التعبير بالشيء عن ثمراته ، فحب العبد لله : محبة إدامته لذكره ، وإقامته لطاعته ، وحب الله لعبده : إقباله بوجه[1] إحسانه ورحمته إليه ، وإفاضة سوابغ نعمه وجوده عليه ، وهذا فيه تعطيل لحقيقة الوصف ، والذي حملهم على ذلك : ان الحب في الشاهد : عبارة عن ميل القلب ، وهو مستحيل على الله سبحانه ، لتعاليه عن الحوادث .

والتحقيق : أن الحب ترجع حقيقته مطلقاً إلى سر روحاني ، يجمع الله به المتفرق ، ويوحد المتعدد ، وذلك ان ﴿**الله نور السموات والأرض**﴾ فما من شيء من الكائنات ، إلّا وفيه سر من الواحد ، قائم به ، كما تقدم تحقيق ذلك في «فصل المعية» ، ومن المعلوم : ان المخلوقات مختلفة من حيث الأسماء والصور ، ومراد الله منها إئتلافها في الرجوع إلى الواحد ﴿**وإليه يرجع الأمر كله**﴾ وإنما تأتلف الصور والأسماء المختلفة من حيث ذلك السر القائم بها من تجلي الواحد ، وليست كلها متساوية ، بل هي متفاوتة على حسب قابليتها لتجليه .

وقد جعل الله الحب سراً يكشف حجاب الاختلاف بالصورة والاسم ، عما

---

(١) في نسخة «توجه» ا هـ مخيون .

قام بهما من السر المتقف ، فيأتلف السر مع السر بواسطة التعارف .

وفي الحديث[1] : «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف» فإن حصل الكشف من الجانبين : حصل التحابب من الجانبين ﴿يحبهم ويحبونه﴾ وإن حصل من أحد الجانبين اختص بالمحبة ، ولهذا تجد بعض الناس يحب من لا يظهر عليه أنه يحبه ، لأن المحب كشف له عن سر التوحيد المناسب له القائم بمحبوبه ، فألفه ولم يكشف لمحبوبه عن السر القائم بمحبه .

وجملة الأمر : أن لا محبوب في الوجود إلاَّ الله .

ولقد أحسن بعضهم في التنبيه على ذلك إجمالاً فقال في محبوبه شعراً :

شيء به تسبىٰ القلوب سوى الذي يدعي الجمال ، ولست أدري ما هو !!؟

---

(١) رواه البخاري في صحيحه في «كتاب أحاديث الأنبياء» (عليهم الصلاة والسلام) عن عائشة (رضي الله عنها) ، قالت : سمعت النبي (ص) يقول : «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها إئتلف ، وما تناكر منها اختلف» .

ورواه مسلم من حديث أبي هريرة . قال العيني في عمدة القاري : الأرواح : جمع روح ، وهو الذي يقوم به الجسد ، ويكون به الحياة (جنود مجندة) أي جموع مجتمعة ، وأنواع مختلفة ، وقيل : أجناس مجنسة ، وفي هذا دليل على أن الأرواح ليست بأعراض ، فإنها كانت موجودة قبل الأجساد ، وانها تبقىٰ بعد فناء الأجساد ، ويؤيده «أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر» .

وتعارفها : موافقة صفاتها التي خلقها الله عليها ، وتناسبها في أخلاقها ، وقال : لأنها خلقت مجتمعة ، ثم فرقت في أجسادها ، فمن وافق قسيمه ألفه ، ومن باعده نافرة .

وقال الخطابي فيه وجهان :

أحدهما : أن يكون إشارة إلى معنىٰ التشاكل في الخير والشر ، وأن الخير من الناس يحن إلى شكله ، والشر يميل إلى نظيره ، والأرواح إنما تتعارف بضرائب طباعها ، التي جبلت عليها من الخير والشر ، فإذا اتفقت الأشكال تعارفت ، وتآلفت ، وإذا اختلفت تنافرت وتناكرت .

والآخر : انه روى أن الله تعالىٰ خلق الأرواح قبل الأجساد ، وكانت تلتقي ، فلما التبست بالأجساد ، تعارفت بالذكر الأول ، فصار كل واحد منها إنما يعرف وينكر على ما سبق له من العهد المتقدم .

وقال القرطبي : إذا وجد أحد من نفسه نفرة ممن له فضيلة ، أو صلاح يفتش عن الموجب لها ، فإنه ينكشف له ، فيتعين عليه أن يسعىٰ في إزالة ذلك ، حتى يتخلص من ذلك الوصف المذموم ، وكذلك القول إذا وجد في نفسه ميلاً إلى من فيه شر وشبهة ، ا هـ المراد ، ا هـ مخيون .

وقال بعضهم دوبيت :

البلبل يا صاح يشدو بفنن والورق تنوح : يا ترى العشق لمن ؟
والكون جميعه غرام وشجن يشا باشك[1] يا من الكل فتن

فقد ظهر أن الحب سر يكشف حجاب الحوادث عن أسرار التوحيد فيجتمع متفرقها ويتحد متعددها ومن توهم أنه الميل أو الإرادة ، أو بعض الآثار الحادثة التي يجدها المحب ، فليس على حقيقة من أمره ، وإنما التبس عليه الأعراض المنفعلة عن الحب بالحب .

واعلم : أنه لا يطلق على العبد انه يحب الله إلّا إذا كشف له عن سر التوحيد مجرداً عن الحوادث فأحبه ، فأما إذا أحب السر متوهماً انه أحب مظهره من الحوادث فلا ، وبهذا حصل الإلتباس في حقيقة الحب وفي أطلاقه على غير الله وفي صحة إطلاقه عليه .

تنبيه : قولنا : «لا يصدق حب الله إلّا بالكشف عن سر التوحيد ، مجرداً عن الحوادث» مجمل له تفصيل ، وهو : ان كشف تجريده : تارة يكون عياناً ، وتارة يكون إيماناً .

فالعيان كحال إبراهيم (ع) حيث توجه إليه في الكواكب ، ثم في القمر ، ثم في الشمس ، ثم توجه إليه مجرداً ، فقال : **﴿وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض﴾** الآية .

ونبه على تجريد حبه عن الحادث ، بقوله : **﴿لا أحب الآفلين﴾** والإيمان ، كحال من أخبره الصادق «ان السر في هذا المظهر»[2] . فنشأ له بنور التصديق

---

(١) «يشا» بالتركية يعني «عاش» و«باش» أي الرئيس عن فضيلة الأستاذ محمد زاهد الكوثري ، اهـ مخيون .

(٢) يبدو لي : أن الشيخ يقصد ذلك الرجل الذي قال له رسول الله (ص) : «أنت مع من أحببت» .

وذلك أن النبي (ص) رأى رجلاً محزوناً ، فقال له (ص) : ما لي أراك محزوناً ؟ .

فقال : يا نبي الله شيء فكرت فيه .

فقال : ما هو ؟ .

قال : نحن نغدوا ونروح ننظر إلى وجهك ونجالسك ، وغداً ترفع مع النبيين ، فلا نصل إليك ؟ .

=

والإيمان حب كشف له عن ذلك السر : كشفاً إيمانياً .

ومنه قوله تعالىٰ : **﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾** فنبه على أن سر التوحيد ، المأذون في محبته : له مظهر ، وهو ظلل غمام الشريعة ، واتباعه فيها يستلزم إتصافه بها ، وهو بمثابة تعرض المحب للمواطن التي يظهر له فيها محبوبه ، ومن شأن المتعرض لمواطن الحبيب ، أن يراقب وجه محبوبه عند تجليه فيها ، فلهذا أمر العبد بالمراقبة ، في قوله (ص) : «الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1] .

تبصرة : ومن هذا قوله تعالىٰ : **﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾** **﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله﴾** ونحوه من الآيات : يتضمن الأخبار للعباد : ان سر التوحيد الجامع : مظهره : «محمد (ص)» فمن أحبه فقد أحب الله .

فمن الاتباع من كشف له عن تجرد ذلك السر عياناً كحال ، أبي بكر (رضي الله عنه) في قوله[2] بعد موته : «من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله ، فإن الله حي لا يموت» .

فلم يرد عليه النبي (ص) شيئاً ـ فأتاه جبريل ، بهذه الآية : **﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم عليهم من النبيين﴾** الآية .

(١) تقدم الكلام عليه ، اهـ مخيون .

(٢) في صحيح البخاري في «باب مرض النبي (ص)» عن ابن شهاب قال : اخبرني أبو سلمة ، أن عائشة (رضي الله عنها) أخبرته ، ان أبا بكر (رضي الله عنه) ، أقبل على فرس من مسكنه بالسنح ، حتى نزل ، فدخل المسجد ، فلم يكلم الناس ، حتى دخل على عائشة ، فتيمم رسول الله (ص) وهو مغشي بثوب حبرة ، فكشف عن وجهه ، ثم أكب عليه فقبله وبكى ، ثم قال : «بأبي أنت وأمي ، والله لا يجمع الله عليك موتتين : اما الموتة التي كتبت عليك ، فقدمتها» .

قال الزهري : وحدّثني أبو سلمة عن عبد الله بن عباس ، أن أبا بكر خرج وعمر بن الخطاب يكلم الناس ، فقال اجلس يا عمر ، فأبىٰ عمر أن يجلس ، فأقبل الناس إليه وتركوا عمر ، فقال أبو بكر :

أما بعد من كان منكم يعبد محمداً (ص) ، فإن محمداً قد مات ، ومن كان منكم يعبد الله ، فإن الله حي لا يموت .

قال الله سبحانه وتعالىٰ : **﴿وما محمد إلاّ رسول قد خلت من قبله الرسل﴾** إلى قوله : **﴿الشاكرين﴾** وقال : والله لكأن الناس لم يعلموا ان الله أنزل هذه الآية ، حتى تلاها أبو بكر ، فتلقاها منه الناس كلهم ، فما أسمع بشراً من الناس إلاّ يتلوها ، فأخبرني سعيد بن المسيب ، =

ولشهود ذلك السر ، كان يسجد له : الحجر ، والبعير ، ويسعى إليه الشجر[1] .

ومن الاتباع من حجب عن تجرده ، حتى أخبر به في قوله تعالىٰ : ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك﴾ إلى قوله : ﴿لوجدوا الله تواباً رحيماً﴾ .

ويحكى : عن بعض الشيوخ : أنه رآه (ص) في نومه ، فقال له : اعذرني يا رسول الله ، فإن محبة الله شغلتني عن محبتك ، فقال له : ويحك يا مبارك ، من أحبني فقد أحب الله ، ومن أحب الله فقد أحبني .

تحقيق : قوله تعالىٰ[2] «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته» الحديث ، فيه أسرار ، منها :

= ان عمر قال : والله ما هو إلاّ أن سمعت أبا بكر تلاها ، فعقرت حتى ما تقلني رجلاي ، وحتى أهويت إلى الأرض ، حين سمعته تلاها ، علمت أن النبي (ص) قد مات ، ا هـ مخيون .

(١) روى أبو الحسن : علي بن محمد الماوردي ، المتوفى سنة ٤٥٠ صاحب «أدب الدنيا والدين» في كتابه «أعلام النبوة» ص ٨٢ : ومن آياته (ص) ما رواه عبد الله بن ابي أوفى ، قال : بينما نحن قعود عند رسول الله (ص) ، إذ أتاه آت ، فقال : يا رسول الله : ناضح بني فلان قد دبر عليهم .

قال : فنهض ونهضنا معه ، فقلنا : يا رسول الله : لا تقربه ، فانا نخافه عليك ، فدنا من البعير ، فلما رآه البعير سجد له ، فوضع يده على رأس البعير ، وقال : هات السكان ، فوضعه في رأسه ، وأوصى به خيراً .

وفي ص ٨٤ : ومن آياته (ص) ما رواه عبد الله بن بريدة عن أبيه قال جاء أعرابي إلى رسول الله (ص) فقال : يا محمد ، هل من آية فيما تدعو إليه ؟ قال : نعم أئت تلك الشجرة ، فقل لها رسول الله (ص) يدعوك ، فمالت عن يمينها ويسارها ، وبين يديها ، فتقطعت عروقها ، ثم جاءت تخد الأرض ، حتى وقفت بين يديه ، فقال الأعرابي ، مرها لترجع إلى منبتها ، فأمرها فرجعت إلى منبتها ، فقال الأعرابي ائذن لي أسجد لك ، فقال لو أمرت احداً أن يسجد لأحد لأمرة المرأة أن تسجد لزوجها ، قال : فائذن لي أن أقبل يديك ورجليك ، فأذن له» .

وفي ص ٨٥ : ومن آياته (ص) ، ما رواه جابر بن عبد الله ، قال : كان في رسول الله (ص) خصال : لم يكن يمر في طريق فيتبعه أحد إلاّ عرف أنه قد سلكه ، من طيب عرقه ، ولم يكن يمر بحجر ولا شجر إلاّ سجد له .

وروى الحافظ بن سيد الناس سجود الحجر والشجر له (ص) ، عن بحيرا الراهب ، ا هـ مخيون .

(١) الحديث القدسي سبق ذكره .

التنبيه على أن الحب سر يجمع المتفرق ، ويوحد المتعدد ، كما ذكرناه .

ومن كلام المحققين : «الحبيب أنت ، ألا أنك غيره» .

ومنها : التنبيه على أن العبد تارة يكون محباً متقرباً وتارة يكون محبوباً ، وترجع حقيقة التقسيم : إلى شهود العبد ، وحظه من تجلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿**يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه**﴾ .

فإن شهدَ : ما منه إلى الله ، فقد شهد رجوع الأمر بسر التوحيد منه إلى الله ، فهو محب ، وعلامته : دوام ذكره ، وتوجهه بالتقرب بالنوافل ، وغلبة الشوق ، والقلق ، والهيمان ، ونحوه .

وإن شهد ما من الله إليه ، فقد شهد بدء الأمر من الله ، وتنزله بروح التوحيد إليه ، فهو محبوب ، وعلامته : السكون ، والإستسلام ، ودوام المراقبة .

ومنها : التنبيه على أن المحبوب قسمان : قسم يفنى بمحبوبه ، وقسم يبقىٰ به .

فنبه على حال الأول بقوله : «كنت سمعه» ونبه على حال الثاني بقوله : «الذي يسمع به» ونبه بهما ، على أنه : لا بقاء إلّا بعد فناء ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿**وما رميت إذ رميت ولكن الله رمىٰ**﴾ فنبه على الفناء بقوله : ﴿**وما رميت**﴾ وعلى البقاء بقوله : ﴿**إذ رميت**﴾ وعلى تحقق المحب بالحبيب ، بقوله تعالىٰ : ﴿**ولكن الله رمىٰ**﴾ .

دقيقة : ومن ذلك قوله تعالىٰ : ﴿**سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً**﴾ إلى قوله : ﴿**انه هو السميع البصير**﴾ الضمير لمحمد (ص) ، والسميع البصير هو الحبيب . شعر :

رأت قمر السماء ، فأذكرتني ... ليالي وصلنا بالرقمتين[1]
كلانا ناظر قمراً ، ولكن ... رأيت بعينها ، ورأت بعيني

وإنما يتضح قصد الشاعر بتخريجه على ما نحن فيه ، وهو :

انه يشير على أن قمر السماء : من عشاق محبوبته ، وأن محبوبته رأته ذات

(١) اسم مكان مشهور عند العرب .

ليلة ، فكسته برويتها له نور جمالها ، ومحاسن صفاتها ، وألقت عليه شبهها ، وأعارته اسمها ، فأذكرت هذا العاشق بتلك الليالي التي وصلته بالرقمتين ، فانها بوصلها له أفنته عن صفاته ، وغلبت عليه بصفاتها ، حتى صارت معه كالقمر الواحد ، وكلاهما ينظره .

ولهذا قال : «كلانا ناظر قمراً» أي قمراً واحداً ، تعدد مظهره ، لكونها تنظر بعينه ، وهي عين المحبة ، لأن المحب صار محبوباً ، وهو ينظر بعينها ، لأنها أعارته عينها : رآها بها ، فكان البصير لها : نفسها .

فصل لفظة عند

ومن المتشابه لفظة «عند» وقد جاءت منسوبة إلى الله ، في الكتاب والسنة كثيراً ، وهي في اللغة كلمة تستعمل لافادة الملك ، ولافادة الحضور ، ولا اشتباه في استعمالها لله تعالىٰ ، لافادة الملك .

وإنما الاشتباه في افادتها للحضور .

واعلم ان حضرة الله سبحانه : ليست حضرة مكانية ، لتعاليه عن المكان تقدس ، بل حضرته وراء حضرات السموات والأرض ، قال تعالىٰ : ﴿وله من في السموات والأرض ومن عنده﴾ فعطف ﴿من عنده﴾ على ، ﴿من في السموات الأرض﴾ والعطف يقتضي المغايرة ، وهي مع كونها وراء السموات والأرض ، فهي ميمنة على حضرات السموات والأرض ، ومحيطة بها ، فما من حضرة مكانية إلاّ وحضرة الله محيطة بها ﴿وهو الله في السموات وفي الأرض﴾ .

وإذا تقرر ذلك ، فعنديته سبحانه : متعددة بحسب الاضافة ، متحدة بحسب الحقيقة .

فأما تعددها ، فلأنه ما من اسم من أسمائه تعالىٰ ، إلاّ وله في تجليه «عندية» تخصه : يشهدها أرباب القلوب الذاكرة له ، وفيها مجالس المناجاة لهم .

ويخلع عليهم فيها خلع الرضا منه .

ومن سلطان ذلك الاسم : تخرج الربوبية لأهله ، وتظهر تواقيع الولاية بذكره .

وأما اتحادها بحسب الحقيقة ، فعند الله ، هو موطن استقرار عباده ، قال تعالىٰ : ﴿وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع﴾ ومعنى ذلك أن عندية الله ، ما زالت ولا تزال محيطة بعبده ، كما قال تعالىٰ : ﴿ونحن أقرب إليه منكم﴾ ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ ولكن رب عبد دام له هذا الشهود ، فهو لا يزال مستقراً عند الله في محياه ومماته ومبدئه وعوده ، وإن اختلفت عليه الأحوال .

ومعنى : «توفى هذا العبد بالموت إلى الله» ترقيه في مراتب التجلي ، وحقائق الكشف ، وتعاقب مظاهر «العندية» على روحه : مظهراً بعد مظهر .

ورب عبد شهد في البدء «عندية» الله له ، ثم حجب عنه مكانه من الله ، بسبب كثرة تخليطه ، وظلمة إكتسابه ، فذلك مستودع استودعه الله لرسل أسبابه وملائكته الموكلين به ، فلا يزال محجوباً إلى الأجل المقدر له ، فيرد إلى الله ، كما قيل :

وما المال والأهون إلاّ وديعة ... ولا بد يوماً أن ترد أودائع

وترجع حقيقة الرد : إلى كشف الحجاب ، وتجلي إحاطة الله به ، كما قال تعالىٰ : ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ إلى قوله : ﴿وجاءت كل نفسٍ معها سائق وشهيد لقد كنت في غفلة﴾ الآية ، هنالك يشهد أنه لا مستقر إلاّ عند الله ، وقد نظمت في ذلك :

قد كنت أحسب أني عن فنائكم ... ناء، وأن بأرض الله متسعا
فلم يزل لطفكم بي ، تحت حجبكم ... حتى رفعتم حجاب الفرق[1] فارتفعا
فلاح اني مقيم : ما برحت على الـ ... أبواب عبداً ، وان اللطف ما انقطعا

إشارة : قوله تعالىٰ : ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ تنبه على العباد المخصوصين من أهل «العندية» والاستقرار .

---

(١) في نسختين حجاب العز ، ا هـ مخيون .

وقوله : ﴿ويرسل عليكم حفظة﴾ خطاب للمحجوبين من المستودعين للحفظة .

ولهذا قال : ﴿حتىٰ إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون * ثم ردوا إلىٰ الله مولاهم الحق﴾ ثم حذر المكذب بذلك ، بقوله تعالىٰ : ﴿وكذب به قومك وهو الحق قل لست عليكم بوكيل * لكل نبإ مستقر﴾ ونبه على أن مستقر الأنباء عنده ، وأنه يظهر بزوال حجاب البصيرة ، بقوله : ﴿فإذا برق البصر * وخسف القمر﴾ إلى قوله : ﴿إلى ربك يومئذ المستقر * ينبؤا الإنسان يومئذ بما قدم وأخر﴾ .

تنبيه : قوله تعالىٰ : ﴿ما عندكم ينفد وما عند الله باق﴾ له ظاهر وحقيقة ، فظاهره : ان ما عند العبد من المال والولد وزينة الدنيا : بصدد الزوال والنفاد ، وما عند الله من الجزاء ـ على تقدير انفاقه : باق لا ينفد .

وأما حقيقته : فكل شيء له نسبتان : نسبة عارضة ، وهي نسبته للعبد ، ونسبة أصلية : وهي نسبته لله .

فمعنىٰ كونه «عند العبد» هو : نسبته إليه ، وهو فائت زائل .

ومعنىٰ كونه «عند الله» هو نسبته إليه ، وهو باق لا يزول .

والمراد : ان العبد يخرج الأشياء كلها عنه ، ويمحو نسبتها إليه ، بنسبتها إلى الله ، وقد بقيت له .

ومتى نسبها إلى نفسه وقدرته ، فقدت ، قال تعالىٰ : ﴿حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وأزينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا﴾ الآية ، فعند ظن القدرة عليها : أخذت وزالت .

وقال تعالىٰ في ضده : ﴿فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك﴾ فأرشدها عند الخوف : أن تلقيه من يدها ، وتخرجه عن حفظها ، فإن الله حينئذ يتولاه بحفظه ، ويبقيه برحمته .

تربية : قوله تعالىٰ : ﴿ فابتغوا عند الله الرزق﴾ فيه تلطف بعبده في استدعائه للإقبال عليه ، بالاعراض عن سواه ، لأن العبد مجبول على الافتقار للرزق . وإيثاره بالطلب ، فلو جعل الرزق : لا يكتسب إلاّ بالإقبال على

الأسباب : شغله ذلك عن الله ، فكان من لطف الله بعبده : أنه جعل ابتغاء الرزق بالإقبال عليه ، إقبالاً يشهد به العبد قرب الله منه ، وإحاطته به ، فيكون العبد بذلك في حضرته وعنده .

ومتى بلغ العبد إلى هذا : جاءه الرزق من حيث لا يحتسب .

ألا ترى مريم لما تركت الأسباب ، وأقبلت على الله بلزوم المحراب ، كان زكريا (ع) **﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله﴾** الآية .

فصل لفظة : أين

ومن المتشابه لفظة : «أين» وهي كلمة يستفهم بها عن الحيز المكاني .

وقد ورد بها الكتاب في قوله تعالى : ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾ والسنة في قوله (ص) للجارية[1] : «أين الله ؟ فقالت : في السماء» .

ومن المعلوم : أن التحيز على الله محال .

فأما «أين» في الآية : فإنها أطلقت لافادة معية الله للمخاطبين في الأين اللازم لهم ، لا له سبحانه ، فهو مع كل صاحب أين بلا أين .

وأما إطلاقه في حديث الجارية ، فقد تقدم الكلام عليه ، في فصل «الكلام على الجهة» و «الإسراء» .

---

(١) أخرجه مسلم ، وأبو داود ، والنسائي ، وغيرهم ، اهـ مخبون .

فصل
الضحك ، والرضا ، والغضب

ومن المتشابه : بصفة الضحك والرضا والغضب .

وقد ورد الرضا والغضب في الكتاب والسنة .

وورد الضحك في السنة في أحاديث .

وقد أختلف أهل الحقائق في معنى الرضى في الشاهد ، وهل هو حال أو مقام ، وأياً ما كان فهو : من مقولة «الكيف» الحادثة ، وهو مستحيل على الله ، فالضحك في الشاهد معروف ، وامتناعه على الله بالنسبة لذاته ضروري ، فلذلك كان من المتشابه ، ورجوعه للمحكم بما قدّمناه في الصورة ، فيكون ظهور الضحك في الصورة ، التي يتجلىٰ فيها ربنا على عبده ، ولا اشتباه في ذلك ، فإن أصل الضحك عند الحكماء ينشأ من إقبال القلب إلى وجهة الصدر ، فينفعل لإقباله البدن بالكيفية التي تسمىٰ ضحكاً ، والفاعل في الحقيقة لذلك كله هو : الله .

فلا إشكال : انه إذا أقبل بروح توحيده ، على عبده في الصورة المتشكلة ، من عمله : انه يظهر على تلك الصورة بإقباله هيئة الضحك المناسبة للضحك المعتاد ، بإقبال القلب .

وينسب ذلك الضحك إليه ، كنسبة الصورة والوجه إليه ، بالمعنىٰ الذي قدّمناه ، ويتضاعف بذلك نعيم الرؤية للمؤمن ، وافاضه جوائز وخلعة الكرم عليه .

وقد ثبت[1] أنه «يلقى المؤمن إذا مات بروح وريحان ورب غير غضبان.

فانظر كيف جعل مظهر لقائه الروح[2]، وفي الروح[3] يظهر لذلك العبد رضاه وضحكه وعدم غضبه، وحقق بقوله: - ورب غير غضبان - أن الروح[3] مظهر الربوبية وأن العبد بلقائه الروح[4] يلاقي ربه، ولولا ذلك لأشكل - على قواعد العربية - لأنه عطف الرب على الروح، وأشرك بينهما في تعدي الفعل إليه بالباء، على وجه تعديه للمفعول، وذلك ينافي كون الرب فاعلاً ليلقى.

وإذا أنت أخرجته على المعنى الذي ذكرناه، لم يبق فيه اشكال.

والله تعالى أعلم

تمت الرسالة المباركة، بحمد الله وتوفيقه، ومنه وكرمه

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً

والحمد لله رب العالمين

---

(١) روى ابن ماجه في سننه في «باب ذكر الموت» عن أبي هريرة، عن النبي (ص)، قال: «الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل صالحاً قالوا: اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب، أخرجي حميدة، وأبشري بروح وريحان، ورب غير غضبان، فلا يزال يقال لها حتى تخرج، ثم يعرج بها الى السماء، فيفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقولون: فلان، فيقال: مرحباً بالنفس الطيبة، كانت في الجسد الطيب، ادخلي حميدة، وابشري بروح وريحان ورب غير غضبان، فلا يزال يقال لها ذلك حتى ينتهي بها الى السماء التي فيها الله عز وجل.

وإذا كان الرجل السوء، قال: اخرجي أيتها النفس الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة، وابشري بحميم وغساق، وآخر من شكله أزواج، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يعرج بها الى السماء، فلا يفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقال: لا مرحباً بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، ارجعي ذميمة، فإنها لا تفتح لك أبواب السماء، فيرسل بها من السماء، ثم تصير الى القبر».

قال السندي في حاشيته: «فيها الله» أي فيها يظهر ويلقى حكمه. وآخر: اي بآخر، وازواج: بدل منه، أي وبأوصافه ومن شكله: جار ومجرور وقع حالا من أزواج، وباصناف كائنة من جنس المذكور من الحميم والغساق، والله أعلم.

ثم قال:

وفي الزوائد، اسناده صحيح: رجاله ثقات ا هـ.

ورواه أحمد في مسنده، والحاكم في مستدركه، ا هـ مخيون.

(٢ و٣ و٤ و٥) بالضم: مابه حياة الأنفس، والقرآن، والوحي، وجبرائيل، والنفخ، وأمر النبوة وحكم الله تعالى وأمره.

وبالفتح، الراحة، والرحمة، ونسيم الريح.

ومكان روحاني: طيب الريح.